سلسلة الحضارة الصينية
تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية

أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية

الفصول الشمسية الصينية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
تأليف: تشو يا بينغ



BEIJING PUBLISHING GROUP
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة — الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة — الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق — تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية — الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية — الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية — الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي — العمارة الصينية
- التشابه والتغاير — فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم — العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح — الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي — الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية — الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح — الخط الصيني
- عالم صغير — الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر — الأدب الصيني
- طفولة حضارة — الأساطير والخرافات الصينية
- كلٌ متكامل بين العالمين العقلي والمادي — الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل — الأوبرا التقليدية الصينية





سلسلة الحضارة الصينية
تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
تأليف: تشو يا بينغ



B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Phenological Secrets in a Ballad

Chinese Solar Terms

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2008-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة

لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

汤一介

مقدمة الكتاب

تقاليد فريدة في الحياة

حين تفتح تقويماً في منزل صيني، فقد تجد تواريخ عليها إشارة باللون الأحمر مع عبارات صينية تحتها، تشير هذه العبارات إلى الفصول الشمسية، وتحمل أسماء مثل: استيقاظ الحشرات، السطوع المحض، مطر الحبوب، الحبوب في السنابل، الندى الأبيض، الندى البارد، نزول الصقيع، الثلج الكبير...

لعلك لم تولِ هذه العبارات الكثير من الانتباه لأنك لم تفتح التقويم إلا للبحث عن الإجازات! لقد أصبحت دورة الأسبوع في زمننا المعاصر هي ما يتحكم بحياتنا: بنية زمنية تتألف من سبعة أيام نعمل خلالها لخمسة أيام مقابل يومين من الراحة. بالنسبة إلى سكان المدينة في الصين الذين يعيشون في غابة من الإسمنت والفولاذ، لا تتجاوز هذه التواريخ التي تحمل الإشارات الحمراء كونها مجرد ذكريات من تاريخ حضارتهم؛ إلا إذا أُعلن ذلك التاريخ كعطلة رسمية. لكن بالنسبة إلى الفلاحين في حقولهم، إن عطل نهاية الأسبوع لا تعني أي شيء، وستلفت هذه التواريخ كل 15 أو 16 يوماً انتباههم بشكل أكبر.

على جميع الأحوال، حين تتعاقب سلسلة من التواريخ واحداً تلو الآخر لتشكل دورة كاملة عبر الفصول، فقد يلامس هذا مكاناً ما في قلبك ويبث فيه إحساساً بالبرية يترافق مع ذكرى أغنية شعبية تناقلها الناس منذ القدم تطن في أذنك؛ وعندها تتخيل هواء الطبيعة ما قبل زمن الصناعة يسري في أنفاسك باعثاً روحاً من السعادة والفرح في قلبك. لقد كان الصينيون القدامى ينظرون إلى الأشهر والسنوات على أنها تواتر لإيقاع طاقتَي الين واليانغ، وعلى أساس هذا الاعتبار كانت الفصول الشمسية أوقاتاً مميزة تتفجر فيها طاقة التشي الخاصة بكل من الين واليانغ.

يحمل تقسيم الفصول الشمسية في ثناياه تقاليد ثقافية عريقة يعود تاريخها إلى آلاف السنوات، وتتجلى في مظاهر عديدة منها الأغاني الشعبية التي تدور حول الفصول، والشعور بدورة الزمن، فيكاد كل طفل في الصين يحفظ الأغنية الشعبية التي تقول:

الربيع : المطر ، الاستيقاظ، الربيع : سماء القمح الصافية
الصيف : سنابل القمح الممتلئة ، الصيف : تتضاعف الحرارة
الخريف : الحرارة وندى الخريف ، نزول الصقيع البارد
الشتاء : الثلج ، الشتاء الثلجي : البرد الأصغر والأكبر

تشمل أغنية الفصول الشمسية الأربعة والعشرين جميع الأحرف الصينية الأربعة والعشرين، حيث اختير كل واحد منها من فصل شمسي، وتوجد هذه الأغنية في كل كتب المرحلة الابتدائية في نظام التعليم الإلزامي في الصين. كثيراً ما يسمع الأطفال الصينيون جداتهم يتمتمن الكلمات: «التسعات الباردة الثالثة والرابعة قادرة على أن تقتل ثوراً!»، وما يقصدنه هو أنه يجب على الأطفال ارتداء المزيد من الثياب الدافئة المحشوة بالقطن. وكذلك، إن تلفزيون الدولة الرسمي في الصين (CCTV) يبث نشرة الأخبار عند الساعة السابعة مساء من كل يوم، تليها نشرة الأرصاد الجوية التي كثيراً ما يقول مقدموها: «اليوم هو كذا وكذا من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين» بهدف تنبيه الناس إلى التغيرات في الطقس.

يعرف جميع الناس في الصين الفصول الشمسية كجزء لا يتجزأ من إرثهم الثقافي المشترك الذي وجد طريقه إلى حياتهم اليومية، وقد كان لهذه الفصول الشمسية أثر عميق ومتميز على الثقافة الصينية كتقليد تناقلته الأجيال عبر آلاف السنين لا يقل في أهميته بالنسبة إلى الشعب الصيني عن عيد الربيع.

تشكّل الفصول الشمسية الأربعة والعشرون أبسط أنواع التقويم وأكثرها عملية بالنسبة إلى النشاطات الزراعية؛ فقد لخّص الصينيون القدامى في هذه العبارات الأربع والعشرين التي تحمل كل واحدة منها كلمتين جميع المميزات المناخية لفصول السنة الأربعة، وهذا من دون ريب من الاختراعات العظيمة لهذا الشعب المبدع. إذا كان لنا أن نفسّر الفصول الشمسية الأربعة والعشرين من خلال علم الفلك الحديث، فإن هذه الفصول تشير إلى 24 نقطة تتوزع بمسافات متساوية بعيداً عن بعضها بعضاً على دائرة دوران الأرض حول الشمس، حيث إن نقاط إسقاط أشعة الشمس على الأرض تكون وفق إحداثيات. تنقسم هذه الفصول الشمسية الأربعة

والعشرون على فصول السنة الأربعة، حيث يحتوي كل فصل على ستة فصول شمسية.

لكنّ ما يزيد من أهمية هذا الإنجاز هو أن الصينيين القدامى لم يكونوا يعلمون أي شيء عن دوران الأرض حول الشمس. وما لاحظه أولئك الناس هو أن الشمس تطلع من الشرق وتغيب في الغرب، وكانت هذه الظاهرة الطبيعية المطلقة هي الوحيدة حول تعاقب الزمن بالنسبة إليهم. لكن هذا لم يمنعهم من الملاحظة والرصد ومحاولة الفهم، لأنه- في الحقيقة- سواء أكانت الشمس تدور حول الأرض أم كانت الأرض تدور حول الشمس، فإن هذا لن يعني إلا الفرق بين الحركة الظاهرة والحركة الحقيقية، أما نتائج الرصد التي يخرج بها شخص على الأرض فلن تختلف في كلتي الحالتين.

أثناء حقبة الحضارة اليونانية القديمة، تمكن إراتوستينس الإسكندري من حساب محيط الأرض باستخدام عمود، وبالطريقة ذاتها وقبل خمسة آلاف سنة نصب الصينيون عموداً تمكنوا من خلاله من تحديد أربعة أوقات مهمة في السنة المدارية تعرفها حركة الشمس الظاهرة، وهذه الأوقات هي التالية: الانقلاب الشتوي، والاعتدال الربيعي، والانقلاب الصيفي، والاعتدال الخريفي. بعد ذلك، وباستخدام هذه الأوقات تمكنوا من تحديد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين بدقة. بدأ استخدام طريقة نصب العمود لقياس الظل- والتي تسمى باللغة الصينية: توقوي- بشكل واسع في المناطق المحاذية لوسط النهر الأصفر وأسفله. ولهذا، إن المنطقة التي خرجت منها الفصول الشمسية الأربعة والعشرون هي ما يسمى اليوم بالسهول الوسطى. أما في ما يتعلق بأول شخص تقدم بمفهوم الفصول الشمسية الأربعة والعشرين فلم يحفظه لنا التاريخ، ويستحيل على أبحاثنا تحديد هويته بدقة، وكل ما لدينا هو عدد من الأساطير القديمة حول بداية هذا الأمر. ما يمكننا أن نتيقن منه هو أنه قد جرت عملية تاريخية برز منها مفهوم الفصول الشمسية، وأن هذه العملية تزامنت مع التقدم الزراعي الذي نشأت على أساسه حضارة الصين القديمة.

في الأزمنة القديمة، كان المجتمع الصيني مجتمعاً زراعياً بامتياز. وقد ظلت التقاليد المرتبطة مع «الاعتماد على المناخ لأجل الطعام» دون تغيير ولا تبديل لحقب طويلة امتدت عبر آلاف السنين؛ ومن نافلة القول أن المعرفة بالمناخ وتقلباته كانت تحمل أهمية كبرى للفلاحين. وقبل ظهور التقاويم التامة، بدأ الصينيون القدامى

بتوجيه الإنتاج الزراعي عبر الفصول الشمسية؛ حيث تعكس بعض أسماء الفصول الأربعة والعشرين- مثل: الحبوب في السنابل- تطبيق تقسيم السنة هذا على الزراعة. فالفصول الشمسية في جوهرها تقويم زراعي بسيط، وقد استمرت في لعب دور مهم للغاية حتى في التقاويم الصينية التي تم تطويرها لاحقاً، بل ولقد اقترح شِن كوه، وهو أحد أعظم العلماء في الصين القديمة، تقويماً يتألف من «اثني عشر تشي»، وقد كان لهذا التقويم أهمية ثورية استخدمت فيه الفصول الشمسية لتنظيم التقويم.

كانت للفصول الشمسية الأربعة والعشرين- بالإضافة إلى علاقتها الوطيدة مع الزراعة والتقويم- علاقة في غاية الأهمية مع الفينولوجيا (أو علم دراسة العلاقة بين المناخ والظواهر الأحيائية) وعلم الظواهر الجوية في الصين القديمة؛ فقد راقب الناس وقتها الظواهر الطبيعية، وسجلوا جميع التغيرات الموسمية في الطيور والحيوانات والأعشاب والأشجار، ثم تمت مطابقة النتائج مع الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، وإثر ذلك تم تطوير دراسة في علم الأحياء المناخية تحت اسم: «اثنتان وسبعون علامة فينولوجية» تُظهِر الأفكار الفلسفية الصينية حول التفاعل بين الين واليانغ ووحدة السماء والإنسان؛ وقد طبقت هذه الفكرة الأخيرة بشكل خاص في عناية الناس بصحتهم، ومهّدت الطريق أمام مجال آخر للدراسة في الطب الصيني التقليدي، وهو دراسة نظام الحياة الذي ينبغي اتباعه بحسب الفصول الشمسية.

ومع تطور دراسة التاريخ ونشأة تدوين العلوم انتشرت الفصول الشمسية الأربعة والعشرون في شتى أرجاء الصين، وأثّرَت في الحياة اليومية التي عاشها كل شخص صيني منذ ذلك الوقت؛ إذ إن للكثير من النشاطات الثقافية الشعبية التي تمارس في الصين روابط مباشرة مع الفصول الشمسية، حيث يأكل الناس لفائف الربيع (السبرينغ رول) عند بداية فصل الربيع؛ وهو ما يسمى «بلقمة الربيع». أما عند الانقلاب الشتائي فيتناول الناس الفطائر ويسمونها: جياوتسي، والتي توحي ببداية وقت الشتاء. وكذلك لأضاحي شه الربيعية في جنوب الصين ومهرجان المعبد في شمالها علاقات وثيقة للغاية مع تبدل الفصول الشمسية.

لقد أثّرت الفصول الشمسية الأربعة والعشرون في الشعب الصيني أبلغ تأثير عبر آلاف السنوات من التاريخ، وتأسس عليها إرث حضاري فريد من نوعه.



المحتويات









الفصل الرابع

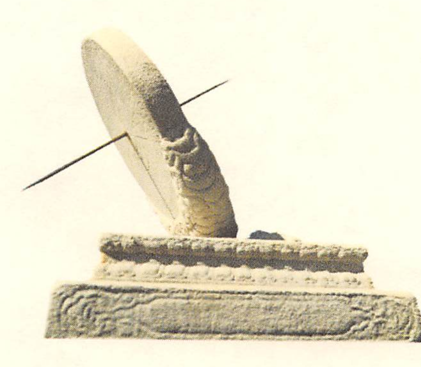
الفصول الشمسية والفينولوجيا:
التفاعل بين كل شيء في الكون

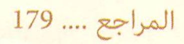
الفصل الخامس

الفصول الشمسية ونظام الحياة:
الوحدة بين السماء والإنسان

الفصل السادس

الفصول الشمسية والأزياء الفولكلوري:
الحياة في الطريق العظيمة للطبيعة





潤物的歌咏

الفصل الأول

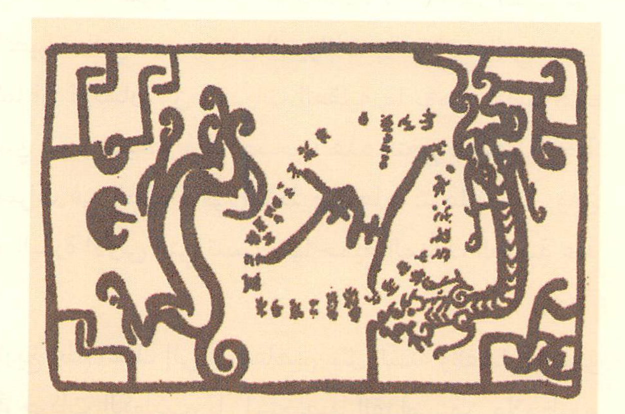
أصل الفصول الشمسية الصينية : رصد التغيّرات الفلكية لتحديد فصول السنة

تحديد الصينيين القدامى لفصول السنة

عبر الامتداد التاريخي الذي استمر لبضعة آلاف من السنين بين عصور ما قبل التاريخ وانبثاق فجر الحضارة، قام عدد كبير من الناس بالنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم محاولين فك طلاسم أسرارها، ومراقبين كل ما يمكنهم رصده في الكون، ومحاولين اكتشاف القوانين التي تحكم سيره؛ فرأوا الشمس والقمر يمخران عباب السماء، والأنهار والجداول تشق أديم الأرض، والأجسام السماوية تدور في أفلاك الكون، وأنواعاً مختلفة ومتباينة لا تكاد تحصى من الأحياء تزدهر وتتكاثر على يابسة جميع القارات، وفي أعماق جميع البحار والمحيطات.

كان أسلاف الشعب الصيني من أولئك الناس الذين قاموا بكل ذلك، فرصدوا وحللوا ودرسوا وحسبوا ما رأوه سنة بعد سنة حتى تكونت لديهم معارف فريدة في مجالَي دراسة الظواهر الأحيائية وعلم الفلك (الصورة 1-1)، وقد كان تقسيم دورة السنة الأرضية إلى الفصول الشمسية الأربعة والعشرين أحد تجلّيات هذه المعارف الفريدة.

إذا نظرنا إلى خريطة حديثة التقطتها الأقمار الصناعية للصين فسوف نجدها تبدو وكأنها عملاق يمد ذراعيه ليعانق أراضي السهول الوسطى، لكنّ ذراعَي عملاقنا الخيالي هذا لا تنغلقان لتشكلا دائرة، بل تفرّق بينهما فتحة ضخمة في الزاوية الجنوبية الشرقية حيث يقع المحيط. أما الأجزاء الأخرى من الذراعين فهي إما مرتفعات عالية لا تكاد الطيور تزورها أو غابات لم يكد يطأها إنسان. جعلت هذه الظروف الجغرافية



الصورة 1-1 جدول أبراج شيو الثمانية والعشرين، وهو جدول قد أنشئ في حقبة الممالك المتحاربة، وتم اكتشافه في مدينة سويتشو، هوبي

تدعى أبراج شيو الثمانية والعشرون أيضاً: أبراج شه الثمانية والعشرين، أو أبراج شينغ الثمانية والعشرين. تفردت الصين القديمة بطريقة تقسيم الأبراج هذه، وتقوم على تقسيم صور النجوم على أساس دائرة الأبراج، وبذلك يصل عدد الأجزاء إلى 28، ويدعى كل جزء: برج شيو.



منطقة السهول الوسطى منعزلة نسبياً، وقد نشأت على هذه الأراضي حضارة زراعية رائعة على درجة عالية من الرقي استمرت لآلاف السنين. وإذا عاد بنا الزمن عشرة آلاف سنة إلى الوراء فسوف نرى عصراً كان الناس فيه يحفرون الأخشاب ليشعلوا النار، ويعقدون الحبال كي يسجلوا ما يودون تسجيله. لقد بدأ أسلاف الشعب الصيني حضارتهم الزراعية عبر الزراعة بالقطع والحرق، ولكن كيف فعلوا ذلك؟

قبل حوالي عشرة آلاف سنة، بدأ الصينيون القدامى الذين كانوا يعيشون على حوض البحر الأصفر بزراعة الحبوب وتربية الماشية، فكانت الأمور المتعلقة بالتربة والمناخ من أهم عناصر حياتهم اليومية. فحين يبدأ الثلج بالذوبان في النهر الأصفر تخرج براعم أشجار الصفصاف على ضفّتيه، وتزقزق طيور الوقواق، وتستفيق الحيوانات والحشرات من سباتها الشتوي، حيث تخرج تلك الأخيرة من التربة الناعمة والرطبة. ورغم أن الناس في ذلك الوقت كانوا يفتقدون إلى المعرفة العلمية، إلا أنه لم تكن تنقصهم حدة الحدس التي هدتهم إلى معرفة أن هذا الوقت هو الأنسب لزراعة البذور.

لقد أرشدت حدة الحدس عقول الفلاحين إلى أراضي التربة الصفراء هذه لأكثر من عشرة آلاف سنة، ولربما نبع هذا الحدس من شيئين: الأول هو غريزة الإنسان البيولوجية، فالإنسان تماماً مثل الحيوانات لديه نمطه البيولوجي الذي يعيش جسمه على إيقاعه، والذي يجعله قادراً على الشعور بتقلبات الين واليانغ وتغير المناخ بين البرودة والحرارة خلال فصول السنة التي تترك جميعها بصماتها على جسده، مع أن الإنسان إجمالاً أقل حساسية لساعته البيولوجية من الحيوانات. أما المصدر الثاني فهو التغيرات الفينولوجية أو التغيرات التي تحصل على الحيوانات والنباتات والتي ترتبط بقوة مع حياة الإنسان، كما أن للإنسان من القدرات العقلية ما يؤهله لرصد هذه التغيرات وإدراك النمط الذي تسير عليه، ولذلك أصبحت هذه التغيرات الفينولوجية جزءاً من فهم الإنسان للتغيرات في الطبيعة في أبسط صورها وأكثرها بدائية. وفي الحقيقة، إن هذا الفهم هو البذرة الأولى التي تنبت منها جميع المدارك العلمية عند الإنسان.

يشير الباحثون في تاريخ علم الفلك إلى أن مفاهيم مثل السنة والفصل والشهر لم تنشأ على أساس مراقبة حركات الكواكب، بل استخلصها القدامى من ملاحظتهم

التغيرات الفينولوجية في تلك الأزمنة القديمة. على سبيل المثال، يُعَرَّف الحرف الصيني «年» - والذي يقرأ: «نيان» ويعني السنة- في كتاب شوه جيه تسي (أصل الأحرف الصينية) «كنضوج نبتة الدخن»، وهو أحد أول المعاجم التي تم تأليفها في الصين القديمة. وهذا الحرف المذكور مرادف للحرف: «稔» والذي يعني «الحصاد»، ما يكشف لنا أن الصينيين القدامى- أو على الأقل سكان حوض نهر يانغتسه منهم- استخدموا دورة حصاد الحبوب كعلامة على مرور السنة، أما غيرهم مثل مجموعات الأقليات الإثنية في مقاطعة يونان فقد استخدموا ظواهر فينولوجية مثل زقزقة الوقواق وازدهار نبتة القابوق وجهوز الأرز للحصاد كعلامات على بدء السنة الجديدة. فيما قام غيرهم من مجموعات الأقليات الإثنية التي لم تكن لديها أنظمة كتابة للغة بالإشارة إلى بدء السنة من خلال اخضرار بعض الأعشاب وأوراق الشجر أو ذبولها. وإذا أردنا أن ندرك مدى أهمية التغيرات الفينولوجية على التقويم عند القدامى، فما علينا إلا أن نقرأ أبيات القصيدة الشهيرة التي تقول: «الأعشاب الكثيفة الناضرة على السهل، تخضر وتذبل مرة في السنة». بل إن بعض المجموعات الإثنية ترقّم السنوات من خلال عدد المرات التي تحولت فيها سهول الأعشاب إلى اللون الأخضر!

خلال الأزمنة القديمة التي لم تكن فيها اللغة المكتوبة قد تطورت بعد، استهدى الصينيون القدامى عفوياً إلى تسجيل كل دورة من التغيرات الفينولوجية من خلال ربط عقدة على خيط أو حبل حيث تشير كل عقدة إلى مرور سنة، وهكذا كانت الحبال المعلقة تلك أول سجل لمرور السنين! (الصورتان 1-2، 1-3).

الصورة 1-2 تطور الحرف «年» والذي يعني «سنة»

يمكننا أن نرى من تطور الحرف أن جميع تنوعات طرائق كتابته مرتبطة مع الحبوب. ومع مرور الزمن، ربط الصينيون القدامى معنى حرف «年» مع نضج الحبوب.





الصورة 1-3 تسجيل مرور الزمن من خلال ربط عقد على الحبال. هذا الحبل معروض في قاعة العرض في متحف الكتب القديمة المكتوبة بلغات الأقليات في يونان (تصوير يانغ شينغ بين)

تظهر الصورة طريقة تسجيل مرور الزمن من خلال ربط عقد في الحبال؛ وهو الأسلوب الذي تتبعه مجموعة دولونغ الإثنية الأقلوية. تمثل كل عقدة مرور يوم. وما يعنيه هذا السجل هو: سنلتقي بعد عشرة أيام!

أمّا عملية تمييز الفصول واستخدامها كعلامات على مرور السنة فقد كانت أكثر تعقيداً بكثير. فالمناخ يختلف من منطقة إلى أخرى، لكن المناطق المحيطة بحوض النهر الأصفر وحوض نهر يانغتسه كانت تتسم بمرور أربعة فصول يسهل تمييزها من خلال رصد الظواهر الفينولوجية؛ كما قيل في أحد الكتب الصينية الكلاسيكية القديمة: «حين يرى الناس تكاثر الطيور والحيوانات يفهمون تغيرات المناخ في الربيع والخريف. ويميز الناس بين الفصول المختلفة حين يرون الطيور والحيوانات التي توشك على وضع صغارها». لكن الفصول كما تم تعريفها في تلك الحقبة لم تفرق بينها حدود واضحة تساعد على تمييزها بدقة.

أما مفهوم الشهر فقد تأسس بدوره على الظواهر الفينولوجية. وتقول عبارة من أغنية شعبية مذكورة في كتاب الأغاني: «في الشهر الخامس، يهز الجندب طويل القرنين رجليه؛ وفي الشهر السادس يهز الجندب طويل القرنين جناحيه»، وتعكس النتائج التي توصل إليها الصينيون القدامى من مراقبتهم للظواهر الفينولوجية التي تحصل من شهر إلى آخر. بالطبع، حين تطورت العلوم وتوصلت إلى وسائل الرصد الفلكي بدت هذه «التقاويم الفينولوجية» بدائية وغير دقيقة. (الصورة 1-4)

الصورة 1-4 الملفوفة والجندب طويل القرنين (رسم تشي باي شي)

استخدم الناس القدامى ملاحظاتهم حول التغيرات الدورية في الحيوانات والنباتات كعلامات تشير إلى مرور سنة، وهو ما نسميه اليوم: التقويم الفينولوجي.


三百石印富翁齊璜七十七歲老眼作



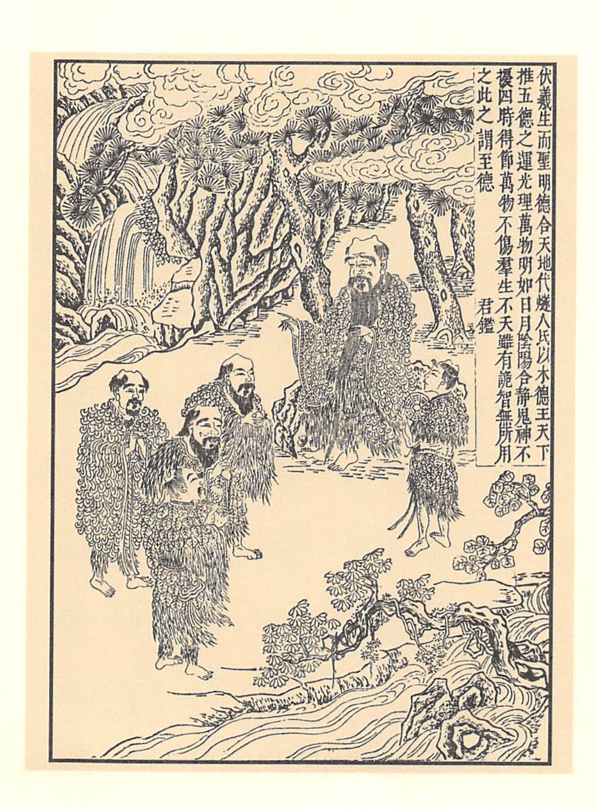
أثناء الحقب القديمة في الصين، مرت فترة تاريخية طويلة من «ضبط الوقت الفينولوجي». وبحسب الأساطير القديمة، بدأ استخدام الظواهر الطبيعية وملاحظة تأثيرها على الحيوانات والنباتات لتحديد فصول السنة في زمن حقبة الملوك الثلاثة. كان سوي رن شي أحد الملوك الثلاثة، وهو من نُسِب إليه اختراع حفر الخشب لإشعال النار، لكن الناس في زمنه ما كانوا يعرفون كيفية مراقبة النجوم، كما لم يعرفوا أي شيء عن الطاقة الكونية، التشي. لكن كل هذا تغير في زمن الملك فو شي شي، فبحسب ما ذكره شي تسي (وهو كتاب ألفه العلماء الاصطفائيون في زمن ما قبل سلالة تشين): «اختار فو شي الأشكال الثمانية. لقد عرف ثمانية فصول شمسية، وتعلمت الأمة كلها معه». أطلق على تقويم فو شي: «ضبط وقت التنين»؛ حيث اعتُمِد سبات الأفاعي الشتوي واستيقاظها منه كعلامتين فينولوجيتين تقسمان السنة إلى فصلين: الشتاء والصيف.

وصلت طريقة تحديد الفصول من خلال رصد الظواهر الفينولوجية إلى ذروتها في عهد «شاو هاو شي»، حيث استُخدِمت الطيور كعلامات لضبط الوقت؛ فقد أصبحت هجرة الطيور علامة دقيقة نسبياً في تحديد الفصول. وتنكشف لنا هذه الحقيقة من خلال مواقف مسؤولي الدولة الذين تم تعيينهم في ذلك الزمن؛ فقد عين «شاو هاو شي» زعيم قبيلة العنقاء، «فينغ نياو شي» في منصب «لي تشنغ»، أي المسؤول عن التقويم وتحديد الفصول. أما «شوان نياو شي»، زعيم قبيلة الطائر الأسود، فقد عُيِّن في منصب «سي فن»؛ لأن مراقبة هجرة طيور السنونو قد تستخدم لتحديد وقت الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي. أما «تشاو بو شي»، زعيم قبيلة طائر النهس، فقد عُيِّن في منصب «سي تشي» لأن طائر النهس قد يُستخدَم لتحديد الانقلاب الشتوي والانقلاب الصيفي. في حين أن «تشيانغ نياو شي»، زعيم قبيلة الطائر الأزرق، شغل منصب «سي تشي»؛ أي المسؤول عن بداية الربيع وبداية الصيف، فيما عُيِّن «دان نياو شي» زعيم قبيلة الطائر الأحمر في منصب «سي بي»؛ أي المسؤول عن بداية الخريف وبداية الشتاء.

أسس هذا التنظيم لبناء طريقة معيارية لضبط الوقت على أساس فينولوجي. ومما يستحق الذكر أن الكلمات التي أشارت إلى هذه المناصب: فن، تسي، تشي، بي، تعني بالترتيب: التساوي، الذروة، البداية، الإغلاق؛ وهي في حقيقة الأمر تشير

إلى مفهوم فصول السنة الأربعة، والفصول الشمسية الثمانية. فصول السنة الأربعة هي بالطبع: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. أما الفصول الشمسية الثمانية فهي: بداية الربيع، وبداية الصيف، وبداية الخريف، وبداية الشتاء، والاعتدال الربيعي، والانقلاب الصيفي، والاعتدال الخريفي، والانقلاب الشتوي. (الصورة 1-5)

كان تقسيم السنة إلى أربعة فصول، وثمانية فصول شمسية هو التقسيم الذي سبق الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ويشير بوضوح إلى فصول السنة الأربعة والتقلبات التي تشهدها هذه الفصول. ومع أنه ليس دقيقاً بما فيه الكفاية إلا أنه يحمل في ثناياه بذور مفهوم الفصول الشمسية، كما يُثبت من دون أدنى شك أن الصينيين القدامى قد اخترعوا طريقة لضبط الوقت حتى في ذلك الزمن الغابر والسحيق الممتد بين سنتي 10,000 و5,000 قبل الميلاد، بخلاف الفلاحين في الأقاليم القارية الأخرى الذين لم يحظوا بالظروف الجغرافية المؤاتية والمناخ المعتدل التي



الصورة 1-5 اختراع «فو شي» للأشكال الثمانية، من كتاب «دروس للحكام»، وهو المجلد الأول من «زهور بارزة في عالم مناسب»

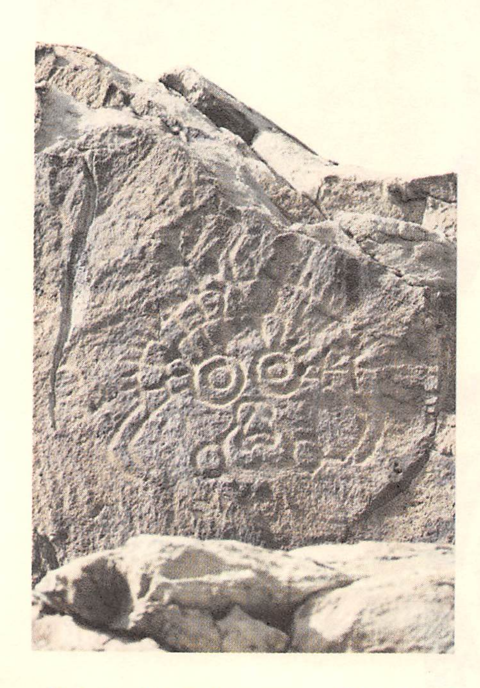
استخدم «فو شي» الرمز: «ـــ» للإشارة إلى اليانغ، والرمز: «ـ ـ» للإشارة إلى الين. يمكن لثلاثة من هذه الرموز أن تجتمع بطرائق مختلفة لتؤلف الأشكال الثمانية التي تسمى: «الرموز الإلهية» التي تُطلق عليها أسماء: تشيان، كون، شون، دوي، قن، تشن، لي، كان. يمثل كل رمز شيئاً مختلفاً، وتؤلف تجمعاتها المختلفة 64 رمزاً إلهياً آخر، وهي تستخدم لتمثيل مختلف الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

حظي بها فلاحو الصين؛ فحضارات اليونان ومصر وبابل القديمة لم تعرف إلا فصلين شمسيين؛ وهما الانقلاب الشتوي والانقلاب الصيفي. أما الفصول الأربعة والفصول الشمسية الثمانية فقد كانت أموراً تفردت بها الصين. وقد استمر الناس في استخدامها منذ تلك الأزمنة وحتى يومنا هذا؛ ولا شك في أنها من خوارق تقدّم التاريخ الإنساني.

حركة الشمس

يتطلب فهم تفكير الصينيين القدامى الذي قادهم إلى جوهر الفصول الشمسية الأربعة والعشرين فهماً بسيطاً للعلاقة بين الشمس والأرض التي كشف عنها علم الفلك الحديث:

تلعب الشمس دوراً أساسياً في الحفاظ على الحياة على سطح الأرض، وقد أدرك الصينيون القدامى ذلك منذ فجر تاريخهم حين رأوا أن كل شيء يحتاج إلى الشمس من أجل نموه؛ حيث يحدد بزوغ الشمس وغيابها التقلبات بين درجات الحرارة الساخنة والباردة، وتوالي فصول السنة الأربعة. لكن الصينيين القدامى لم يتصوروا الشمس ككرة تدور الأرض حولها، فكل ما كان يمكنهم رصده هو طلوع الشمس من الشرق وغيابها في الغرب، وأن سخونتها حارقة في الصيف، ولكنها تصبح دافئة فقط في الشتاء. وقد كشف لنا العلم الحديث أن حركة الشمس في السماء ليست إلا مظهراً بصرياً للحركات الفلكية كما تظهر لأعين الناس؛ وهو ما يُسمّى «حركة الشمس الظاهرية»، لأن الحقيقة هي أن الأرض تدور حول الشمس من جهة الغرب إلى جهة الشرق، فتبدو الشمس وكأنها تطلع من الشرق وتغيب في الغرب، لكن هذا كله لا يعدو عن كونه خدعة بصرية لا حقيقة لها في الواقع. (الصورة 1-6)

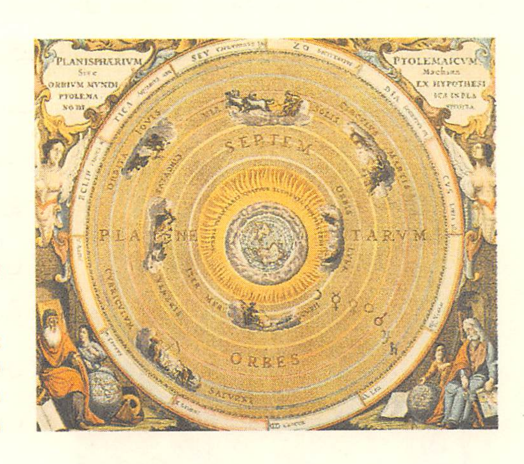


الصورة 1-6 إله الشمس، رسم منحوت في الصخر على جبل خه لان يعكس هذا الرسم عبادة الناس القدامى للشمس.

يعلم الناس اليوم أن العلاقة بين الشمس والأرض هي أن الأرض تدور حول الشمس؛ لكن البشرية لم تصل إلى هذه المعرفة إلا بعد حقب طويلة من التجربة والخطأ التي توصلت بعدها إلى تكذيب فرضيات خاطئة

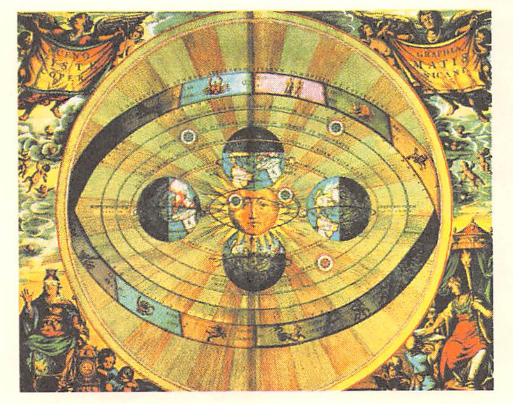


بنتها حول هذه العلاقة مرة تلو الأخرى. وفي اليونان القديمة التي اشتهر الكثير من أهلها بحسن تفكيرهم ومحبتهم للعلم والفلسفة والاستكشاف، تقدم عالم ورياضي يدعى أرسطرخس الساموسي بنموذج للكون يقوم على «مركزية الشمس»، أي أن الشمس في هذا النموذج كانت مركز الكون، وقد حاول العديد من اليونانيين إثبات صحة هذه النظرية من خلال تجربة بسيطة في حركة التزيح. لكن افتقادهم إلى التقنيات البصرية المناسبة وخاصّة التلسكوبات، وعدم كفاية ما وجدوه من أدلة رياضية لإثبات صحة نظرية مركزية الشمس جعلا الفلاسفة والعلماء اللاحقين يعتبرونها نظرية خاطئة. وقبل ذلك، كان الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو قد تقدم بنموذج كوني يقوم على وجود عدد من «الكرات السماوية» أحادية المركز؛ وهو



(اليمين) الصورة 1-7: نموذج لنظرية مركزية الأرض في اليونان القديمة

في القرن الثاني، تقدّم عالم الفلك اليوناني القديم بطليموس بنظرية مركزية الأرض، وكان أول نموذج لنظام الكواكب في العالم. ومع أن هذا النموذج أخطأ في تصوره الأرض كمركز للكون، إلا أن إسهامه كان مهماً جداً في تاريخ العلوم.



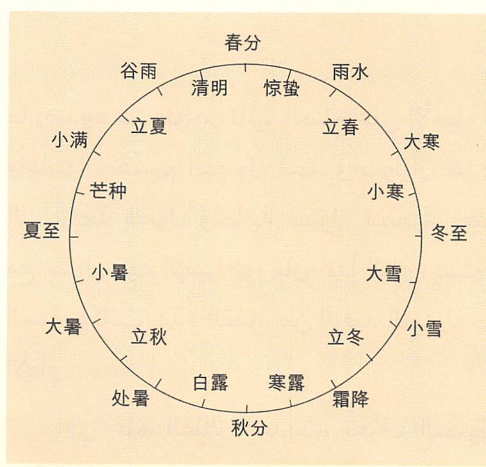
(اليسار) الصورة 1-8: رسم لنموذج نظرية مركزية الشمس التي تقدم بها كوبرنيكوس

فرضت نظرية مركزية الشمس التي تقدم بها كوبرنيكوس نفسها على نموذج مركزية الأرض التي تجاوزت هيمنتها مجال العلوم، لتتبناه المؤسسات الدينية المسيحية لفترة طويلة. وقد أدى اكتشافه هذا إلى تحولات هائلة في مجال علم الفلك.

النموذج الذي تمّمه بطليموس بأدلة معقدة تحولت إلى «نظرية مركزية الأرض»، وهي النظرية التي هيمنت على الفكر الإنساني لفترة طويلة للغاية قبل أن يقدّم كوبرنيكوس نموذجاً جديداً لمركزية الشمس سنة 1543. وكانت التقنيات البصرية قد تقدمت بعد ذلك، حيث أثبتت صحة هذا النموذج الذي عرف الناس من خلاله أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس.

بالطبع، لم تكن لدى الصينيين القدامى هذه العلوم، ولم يكن لديهم تصور لحقيقة أن الأرض كروية الشكل أصلاً، أو لوجود مركز موحد للكرات الفلكية كما تقدم به نموذج أرسطو. بل لقد كان تصورهم أبسط من ذلك بكثير، حيث قالوا إن «السماء مستديرة والأرض مربعة»، أو «السماء مثل قبعة الخيزران والأرض مثل الصحن المقلوب». وقبل حقبة سلالة هان، كان التصور السائد للكون هو أن السماء «فسطاط فوق الأرض». (الصورتان 1-7، 1-8)

لقد استخلص الصينيون القدامى من تجاربهم أن الشمس تدور حول الأرض في دائرة تبدأ من طلوعها في الشرق وتنتهي بغيابها في الغرب؛ وهو ما يسمى «بمسار الشمس». تنقسم الدائرة إلى أربع وعشرين قوساً متساوية الحجم. وكانت نقطة بداية كل واحد من هذه الأقواس على مسار الشمس تشير إلى كل فصل من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. فإذا كان لنا أن نتوخى الدقة في تعريف الفصول الشمسية فهي ليست تواريخ، وإنما لحظات تصل فيها الشمس إلى نقاط محددة فاصلة على مسارها. وحين نفهم هذه النظرية يمكننا أن نصل إلى فهم واضح لأصل مفهوم الفصول الشمسية الأربعة والعشرين وجوهره. (الصورة 1-9)



الصورة 1-9 رسم تخطيطي للفصول الشمسية الأربعة والعشرين وفلك الشمس

حقّق الصينيون القدامى هذا الفهم من خلال الرصد والتفكير والتحليل عبر حقب زمنية طويلة. فبعد أن استخدموا





الصورة 1-10 كرة الحلقة الفلكية المشيرة إلى مسار الشمس في مرصد بكين الفلكي القديم (تصوير تشا تشن وانغ)

أنشئت كرة الحلقة الفلكية المشيرة إلى مسار الشمس في مرصد بكين الفلكي القديم بين السنة الثامنة والسنة الثانية عشرة من حكم كانغ شي (*1673-1699*)، ويبلغ وزنها *2752* كليوغراماً وطولها *3.492* م. تستخدم هذه الكرة بالدرجة الأولى لقياس القراءات المتعلقة بالأفلاك السماوية على خطي طول وعرض مسار الشمس لتحديد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين.

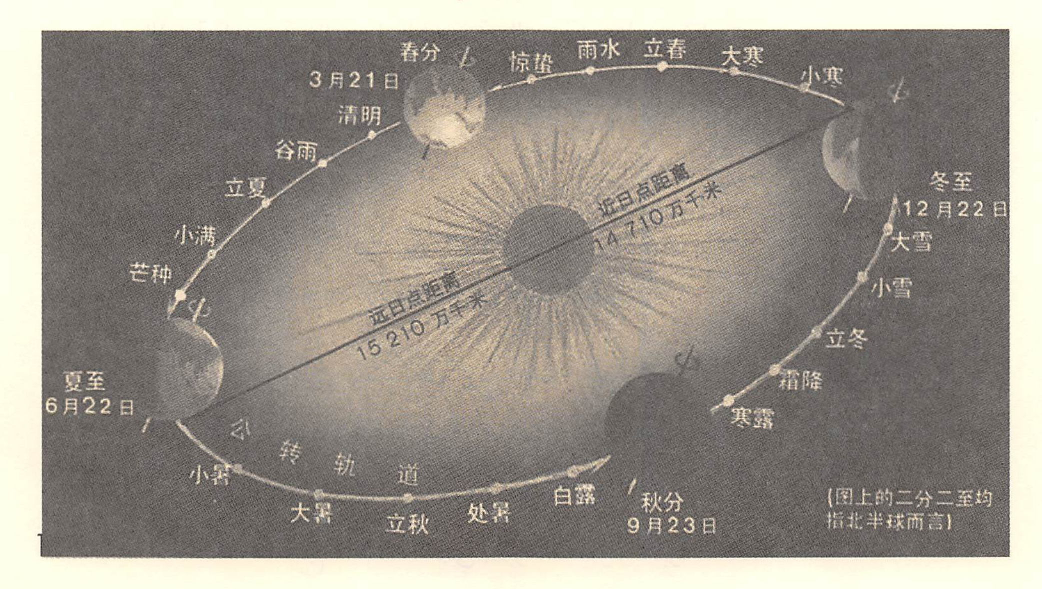
ما رصدوه من ظواهر تأثير المناخ على الأحياء النباتية والحيوانية لتحديد بداية السنة ونهايتها وتقسيم الفصول فيها، وجدوا أن هذه الطريقة غير دقيقة. فتقسيم السنة إلى أربعة فصول وثمانية فصول شمسية بعيد عن الدقة والتهذيب العلمي. لكن مع حلول عهد الإمبراطور يان، بدأ الناس يستخدمون الأرصاد الفلكية لتحديد فصول السنة، وكانت هذه القفزة من الرصد الفينولوجي إلى الرصد الفلكي خطوة كبيرة إلى الأمام. (الصورة 1-10)

في علم الفلك الحديث، تُعَرَّف الفصول الشمسية الأربعة والعشرون بأنها موقع الشمس على مسار الشمس. تبدأ «الشمس الظاهرية» التي يراها الناس بالعين

المجردة من على الأرض من نقطة الاعتدال الربيعي، أما بالنسبة إلى نقطة الصفر على خطوط الطول السماوية (التي تسمى أيضاً خطوط طول مسار الشمس) فهي على مستوى خط الاستواء نفسه، وتصل «الشمس الظاهرية» إلى فصل شمسي جديد عند كل 15 درجة تقطعها، وبعد دورة واحدة تعود إلى نقطة الاعتدال الربيعي حيث تكون سنة استوائية قد مرت، وحيث تكون الشمس قد ارتحلت لثلاثمئة وستين درجة.

إذاً، في السنة أربعة وعشرون فصلاً شمسياً. وإذا استخدمنا التقويم الغربي الشمسي الغريغوري الحديث، فإن تواريخ الفصول الشمسية تقع ضمن تواريخ محددة نسبياً. فتقع «بداية الربيع» على سبيل المثال بين الثالث والخامس من شباط في كل سنة. لكن تحديد تواريخ الفصول الشمسية باستخدام التقويم الصيني القمري أصعب بعض الشيء. فعلى سبيل المثال، إذا أردنا تحديد تاريخ «بداية الربيع» أيضاً، فقد يقع هذا الفصل الشمسي على أقرب تقدير في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني عشر من السنة الماضية في التقويم الصيني القمري، أما على أبعد تقدير فيقع في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول من السنة الحالية في التقويم الصيني القمري، أي أن هامش التغيير فيه ليس يوماً أو يومين بل أكثر من شهر كامل! (الصورة 1-11)

الصورة 1-11 رسم تخطيطي لدوران الأرض وتغير الفصول الشمسية





تدور الأرض حول الشمس في مدة معدلها 365 يوماً و5 ساعات و48 دقيقة و46 ثانية لكل دورة، وكذلك تدور حول نفسها مرة كل 24 ساعة. ولأن مستوى إبصارنا لدوران الأرض ليس المستوى الاستوائي نفسه نتيجة لوجود بعض الميل، فإن إشعاع الشمس العمودي من مركزها إلى الأرض يسقط على مواقع مختلفة في الفصول المختلفة. فإذا أخذنا نصف الكرة الأرضية الشمالي كمثال، حين تشع الشمس عمودياً على زاوية تبلغ 23.5 درجة عند خط العرض الشمالي، فهذا يسمى: «الانقلاب الصيفي» في علم الفلك. أما حين تشع على زاوية تبلغ 23.5 درجة عند خط العرض الجنوبي، فهذا يسمى: «الانقلاب الشتوي». وما يعنيه الانقلابان الصيفي والشتوي هو أن الفصل قد بلغ منتصفه. وكذلك تشع الشمس على زاوية قائمة تامة على خط الاستواء مرتين كل سنة، ويسمى هذان الوقتان: الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي، ويشيران إلى بلوغ فصلي الربيع والخريف منتصفيهما أيضاً، وتتساوى في هذين اليومين ساعات الليل والنهار. تشير الفصول الشمسية التالية إلى تغير فصول السنة: بداية الربيع، الاعتدال الربيعي، بداية الصيف، الانقلاب الصيفي، بداية الخريف، الاعتدال الخريفي، بداية الشتاء، الانقلاب الشتوي. كانت هذه الفصول الشمسية في علم الفلك الصيني القديم مؤسسة على نتائج أرصاد حقيقية تم التوصل إليها من خلال قياس طول ظل عمود التوقوي. يعكس طول الظل ظواهر فلكية حقيقية، وحتى في يومنا الحالي لا يزال الصينيون يعرفون نسخة أطول من هذه الفصول الشمسية ذكرتها الأغنية الشعبية «الفصول الشمسية» التي ذكرناها من قبل:

تدور الأرض حول الشمس
ومع انتهاء كل دورة تمر سنة
تنقسم كل سنة إلى اثني عشر شهراً
وبالتوالي، يوجد أربعة وعشرون فصلاً شمسياً

الربيع: المطر، الاستيقاظ، الربيع: سماء القمح الصافية
الصيف: سنابل القمح الممتلئة، الصيف: تتضاعف الحرارة
الخريف: الحرارة وندى الخريف، نزول الصقيع البارد
الشتاء: الثلج، الشتاء الثلجي: البرد الأصغر والأكبر

فصلان شمسيان لكل شهر، لم يتغير هذا قط
يختلف تاريخ كل واحد بيوم أو يومين
وغالباً ما يكون السادس أو الحادي والعشرين في النصف الأول من السنة
والثامن أو الثالث والعشرين في النصف الثاني من السنة

لا يكاد أي كتاب في اللغة الصينية على مستوى المرحلة الإعدادية يخلو من هذه الأغنية الشعبية، حيث كتبت بأسلوب إيقاعي سلس يسهل تذكره، وأصبحت جزءاً من ثقافة الشعب الصيني، وعاملاً دائم التأثير في حياته اليومية. (الصورة 1-12)

季节							
春季	节 气 名	立 春 (正月节)	雨 水 (正月中)	惊 蛰 (二月节)	春 分 (二月中)	清 明 (三月节)	谷 雨 (三月中)
	节气日期	2月 3－5日	2月 18－20日	3月 5－7日	3月 20－21日	4月 5－6日	4月 19－21日
	太阳到达黄经	315°	330°	345°	0°	15°	30°
夏季	节 气 名	立 夏 (四月节)	小 满 (四月中)	芒 种 (五月节)	夏 至 (五月中)	小 暑 (六月节)	大 暑 (六月中)
	节气日期	5月 5－7日	5月 20－22日	6月 5－7日	6月 21－22日	7月 6－8日	7月 22－24日
	太阳到达黄经	45°	60°	75°	90°	105°	120°
秋季	节 气 名	立 秋 (七月节)	处 暑 (七月中)	白 露 (八月节)	秋 分 (八月中)	寒 露 (九月节)	霜 降 (九月中)
	节气日期	8月 7－9日	8月 22－24日	9月 7－9日	9月 22－24日	10月 8－9日	10月 23－24日
	太阳到达黄经	135°	150°	165°	180°	195°	210°
冬季	节 气 名	立 冬 (十月节)	小 雪 (十月中)	大 雪 (十一月节)	冬 至 (十一月中)	小 寒 (十二月节)	大 寒 (十二月中)
	节气日期	11月 7－8日	11月 22－23日	12月 6－8日	12月 21－23日	1月 5－7日	1月 20－21日
	太阳到达黄经	225°	240°	255°	270°	285°	300°

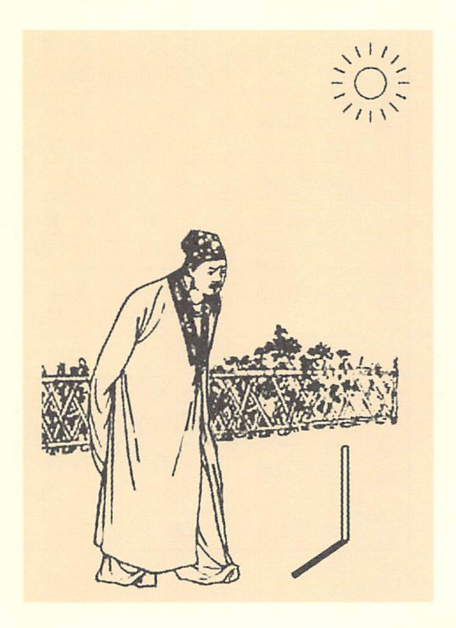
الصورة 1-12 جدول الفصول الشمسية



قياس طول الظلال باستخدام التوقوي

قبل أن يتم التوصل إلى الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، كان الصينيون القدامى يعون أن الشمس هي العامل الأساسي في تحديد المناخ، وقد كان هذا تقدماً كبيراً للحضارة. لعل الناس لاحظوا مع مرور الزمن أن وضع عمود تحت أشعة الشمس يلقي بظل على الأرض، وأن هذا الظل يطول ويقصر، ثم يطول مجدداً مع حركة الشمس في كبد السماء وتعاقب الأيام والأشهر والسنوات، ورأوا أن هذا التغير يتبع نمطاً محدداً اتضح لهم مع الرصد والمراقبة. لا يمكننا اليوم حتى أن نتصور مدى الدهشة التي أحس بها الناس وقتها مع اكتشافات كتلك؛ فقد وجدوا أن الظل يصل إلى أقصر امتداد له عند الانقلاب الصيفي، وإلى أطول امتداد له عند الانقلاب الشتوي، وما كان لهم أن يتوصلوا إلى هذه الأنماط من دون قياس مستمر دام لعشرات، إن لم نقل لمئات السنين.

لدى الصينيين مقولة مأثورة: «يمتد الظل فوراً بعد نصب العمود»، ولا شك بأنها نبعت مباشرة من استخدام التوقوي لقياس طول الظل. (الصورة 1-13)



الصورة 1-13: نصب عمود لرؤية ظله

لقد كان قياس طول الظل دائماً وسيلة القدامى في حساب الوقت، ولا تختلف اليونان عن الصين في تلك الأزمنة القديمة من ناحية استخدام عمود بسيط لحساب الوقت؛ حيث إن الساعات الشمسية الصينية تستخدم المبدأ ذاته الذي تستخدمه نظيرتها اليونانية.

وإذا عدنا إلى السجلات التاريخية القديمة، فسنجد أن أول حالة حفظتها لنا في ما يتعلق بنصب عمود لقياس طول ظله كانت في عهد

الإمبراطور تشوان شو، وهو حفيد الإمبراطور الأصفر. كان تشوان شو رجلاً عظيماً أمر «بفصل السماء والأرض عن عوام الناس». وكما سجّلت لنا كتب التاريخ الصينية: «قاو يانغ شي، أي الإمبراطور تشوان شي، هو من قسّم الوقت بحسب السموات». يدلنا هذا على أن الإمبراطور استخدم الأرصاد الفلكية كوسيلة لتحديد الفصول الشمسية، حيث كانت الفصول الشمسية قبله تحدد من خلال الظواهر الفينولوجية. عيَّن الإمبراطور رجلاً يدعى تشونغ في منصب نان تشنغ (والتي تعني حرفياً: مقوم الجنوب) وهو «مسؤول الدولة عن السماء»، وتتلخص مهماته في نصب عمود طوله ثمانية تشي (والتشي هنا وحدة قياس صينية تقليدية تعادل ثلث متر)، وقياس ظل العمود حين تكون الشمس في وسط السماء ساعة الظهر. يسمى الظل الذي يلقيه العمود تحت إشعاع الشمس: جينغ، وكانت عملية قياس طول الظل هذه أول عملية من نوعها في الصين، بل لعلها كانت أول مرة تدخل فيها عملية مراقبة الشمس مرحلة القياس في العالم كله، وقد تبعت ذلك سلسلة من الاكتشافات الجديدة. (الصورة 1-14)

إذاً، ما هو التوقوي؟ في الواقع، كان عموداً يبلغ طوله ثمانية تشي يلقي بظله على الأرض. وقد ورد في فصل «مستشار الحضارة القومية» من القسم المسمى «مسؤولو الأرض» في كتاب «طقوس تشو» ما يلي: «استخدمت طريقة التوقوي لقياس عمق الأرض وتعديل ظلال الشمس للتوصل إلى معرفة مكان مركز الأرض». قام العلماء في عهود السلالات اللاحقة بكتابة تعليقاتهم وملاحظاتهم على ما ورد في هذا الكتاب، ومنها ما يلي: «كان طول ظل التوقوي يبلغ حوالي التشي الواحد وخمسة تسون (التسون أيضاً وحدة تقليدية لقياس الطول تبلغ حوال عشرة تشي). في السنة الرابعة بعد تولي دوق تشو الوصاية على



الصورة 1-14 تشوان شي (2514-2437 قبل الميلاد) يقال إنه كان حفيد الإمبراطور الأصفر، ويعرف أيضاً باسم: قاو يانغ شي. كان يعيش في ديتشيو (حالياً محافظة بويانغ في خه نان)



العرش، أراد أن يعرف مكان مركز الأرض ويبني عاصمته فوقه، ولذلك أمر الناس باستخدام التوقوي وقياس الأطوال في مختلف الأراضي، وكان قياس عمق الأرض في الواقع قياساً لطول الظل الذي تلقي به الشمس». إذاً، كان قياس عمق الأرض إشارة إلى قياس طول الظل، وقد كان نصب عمود طوله ثمانية تشي في يوم الانقلاب الصيفي وقياس طول ظله حين تكون الشمس في وسط السماء ساعة الظهر من الممارسات الشائعة، وقد كان طول الظل تشي واحداً وخمسة تسون. (الصورة 1-15)

بحسب ما ذكره تشو كه تشن، عالم الأرصاد الجوية في الصين الحديثة، لم يبدأ الصينيون باستخدام التوقوي لقياس الظل الساقط من أشعة الشمس قبل القرن السابع قبل الميلاد، وأصبحت هذه الطريقة هي طريقة القياس الرئيسة أثناء عهد سلالة تشو، وكذلك أثناء عهد سلالة



الصورة 1-15 رسم لعمود قوي بياو الحجري الموجود في برج قياس الظلال الذي بناه دوق تشو مع رسم بياني للأبحاث فيه

كانت الأداة المستخدمة لقياس أطوال ظلال الشمس في الصين القديمة هي القوي بياو، وكان أول مرصد سجل لنا التاريخ أنه احتوى على هذه الأداة هو برج مراقبة أطوال الظلال الذي بناه دوق تشو في يانغتشنغ في أول عهد سلالة تشو. يأتي اسم الأداة من القصة القائلة إن دوق تشو بعد بنائه البرج قام بقياس طول ظل الشمس عند ذلك المكان واختار إثر ذلك الموقع الذي أراد أن يبني عليه عاصمته: لوه يي.



الصورة 1-16 برج مراقبة النجوم في دنغفنغ، وقد صممه قوه شو جينغ (وهو عالم فلك عاش أثناء عهد سلالة يوان) سنة 1279 في دنغفنغ، خه نان

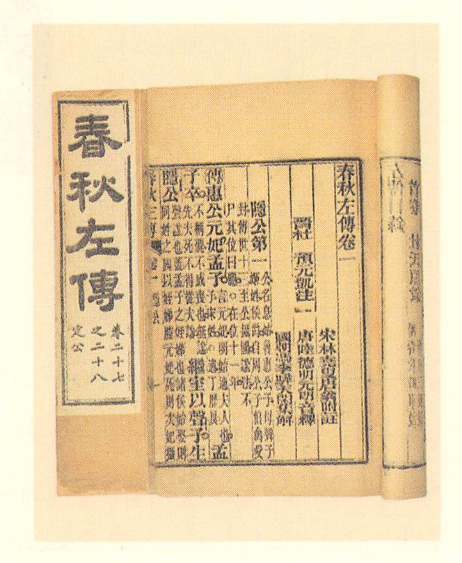
يشكل الحجر «قوي» في شمال برج مراقبة النجوم أداة «قوي بياو» مع البرج نفسه. لقد وضع الحجر «قوي» بمحاذاة خط الزوال. وتوجد علامات للقياس في وسط سطح حجر «القوي» وعلى جانبيه. يلقي العمود على البرج بالظل على «القوي» الحجري، ومن خلال قياس طول الظل يتمكن المراقبون من تحديد الفصول الشمسية؛ مثل الاعتدال الربيعي، والانقلاب الصيفي، والاعتدال الخريفي، والانقلاب الشتوي، كما يمكنهم تقسيم السنة إلى أربعة فصول.

هان من بعدها. بعد مرور قرون طويلة من المراقبة، اكتشف الناس أن الظل يكون في أقصر امتداد له أثناء الانقلاب الصيفي، وفي أطول امتداد له عند الانقلاب الشتوي في كل سنة. لقد تم التوصل إلى حساب هذين الفصلين الشمسيين من خلال المراقبة الدقيقة وبشكل دؤوب. أما بقية الفصول الشمسية فقد تم حسابها على أساس ما تم اكتشافه بالنسبة إلى هذين الفصلين. إن الظلين عند الاعتدالين الخريفي والربيعي متساويان، وهو ما يعادل نصف مجموع طولي الظلال التي تم حسابها عند الانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي؛ وهكذا تم التوصل إلى تحديد الانقلابين والاعتدالين. وبعد ذلك، يمكن حساب الفصول الشمسية التي تشير إلى بداية كل فصل من فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء؛ فكان الانقلابان والاعتدالان والبدايات الأربع هي ما سُمِّي وقتها «بالفصول الشمسية الثمانية». (الصورة 1-16)



تظهر في كتاب «حوليات الربيع والخريف للو» الذي كُتِبَ في أواخر حقبة الممالك المتحاربة سجلات محددة تذكر ثمانية فصول شمسية: بداية الربيع، والاعتدال الربيعي، وبداية الصيف، والانقلاب الصيفي، وبداية الخريف، والاعتدال الخريفي، وبداية الشتاء، والانقلاب الشتوي. في فصل تحت عنوان «السنة الخامسة من حكم الملك شي» في كتاب «شرح تسوه على حوليات الربيع والخريف» نجد ما يلي: «لقد تم تدوين ألوان السحب للرجوع إليها لاحقاً عند كل فصل شمسي في ما يتعلق بمماثلتها للسنوات التالية وقممها وبدايتها وانتهائها». ما يعنيه هذا هو أنه قد تم تسجيل مختلف الظواهر المناخية والفينولوجية عند الاعتدالين والانقلابين وعند بداية كل فصل من فصول السنة لتشكل أساساً لتحضير مختلف النشاطات الزراعية.

كان تدوين سجلات مفصلة بالظواهر الفينولوجية والمناخية من تقاليد الصينيين القدامى التي ضربت جذورها بينهم عبر فترة زمنية طويلة. وقد كانت من الوسائل المهمة المعينة للإنتاج الزراعي، لذا أولاها الناس أهمية كبرى بسبب الدور المركزي الذي كانت الزراعة تلعبه وقتها. وبالإضافة إلى هذه الفصول الشمسية الثمانية (التي أصبحت لاحقاً جزءاً من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين) حفظ لنا كتاب «حوليات الربيع والخريف للو» الكثير من السجلات حول تغير درجات الحرارة وتساقط الأمطار وغيرها من الظواهر الفينولوجية، وتعكس تلك السجلات مأثرة محمودة لقدامى الصينيين الذين حفظوا لنا تلك

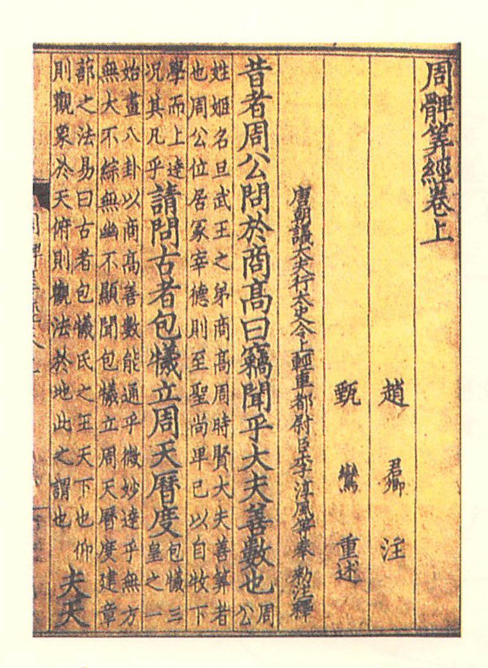


الصورة 1-17 شرح تسوه على كتاب حوليات الربيع والخريف، هذا تصوير لكتاب مجموعة الشروح التي كتبها فينغ لي يه في حقبة سلالة تشينغ، والتي حفرتها مكتبة تشونغون وطبعتها على كتل خشبية في السنة الثانية من حكم الإمبراطور تونغ تشي، أي في سنة 1863

شرح تسوه على كتاب حوليات الربيع والخريف (أو شرح تسوه باختصار) هو أول كتاب تاريخ كُتِب على شكل حوليات (تسجيل أحداث كل سنة من سنوات حكم كل إمبراطور) نجده اليوم في الصين. قيل إن كاتبه الأصلي كان تسوه تشيو مينغ عند نهاية حقبة الربيع والخريف، وأنه كتبه لتفسير كتاب «حوليات الربيع والخريف» الذي جمعه كونفوشيوس.

البيانات الفينولوجية والمناخية المهمة. تتفق هذه السجلات مع ما هو مذكور في فصل «السنة الخامسة من حكم الملك شي» في كتاب «شرح تسوه على حوليات الربيع والخريف»، إلا أن عدم ذكر الفصول الشمسية الأربعة والعشرين لا يعني أنها لم تكن قد وصلت إلى كامل نضجها في الزمن الذي تم فيه تأليف كتاب «حوليات الربيع والخريف للو».

وكما ذكرنا من قبل، إن التقاويم الفينولوجية الأولى كانت بدائية وغير دقيقة. ومع حلول زمن تأليف كتاب الحوليات، كان قد تم التوصل إلى وسائل أكثر دقة في تحديد الفصول الشمسية من خلال القياس. ونجد أدلة قاطعة على هذه الحقيقة في «كتاب تشو بي المرجعي في الحساب». بحسب الأبحاث التاريخية، اكتمل تأليف هذا الكتاب في عهد سلالة هان، ولكن السجلات الموجودة فيه كانت البيانات الفلكية التي تم الحصول عليها أثناء عهد سلالة تشو. والطريقة الأساسية التي يذكرها الكتاب هي قياس طول الظل من خلال نصب عمود. وعند الانقلاب الصيفي ألقى عمود يبلغ طوله ثمانية تشي بظل بلغ طوله تشي واحداً وستة تسون، أما عند الانقلاب الشتوي فقد وصل طوله إلى تشانغ واحد (وهي وحدة قياس صينية قديمة لقياس الطول، وتعادل عشرة تشي) وثلاثة تشي وخمسة تسون. بعد ذلك، وعلى أساس هذه البيانات ذكر «كتاب تشو بي المرجعي في الحساب» أطوال الظلال التي على العمود أن يلقيها خلال أيام الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. (الصورة 1-18)

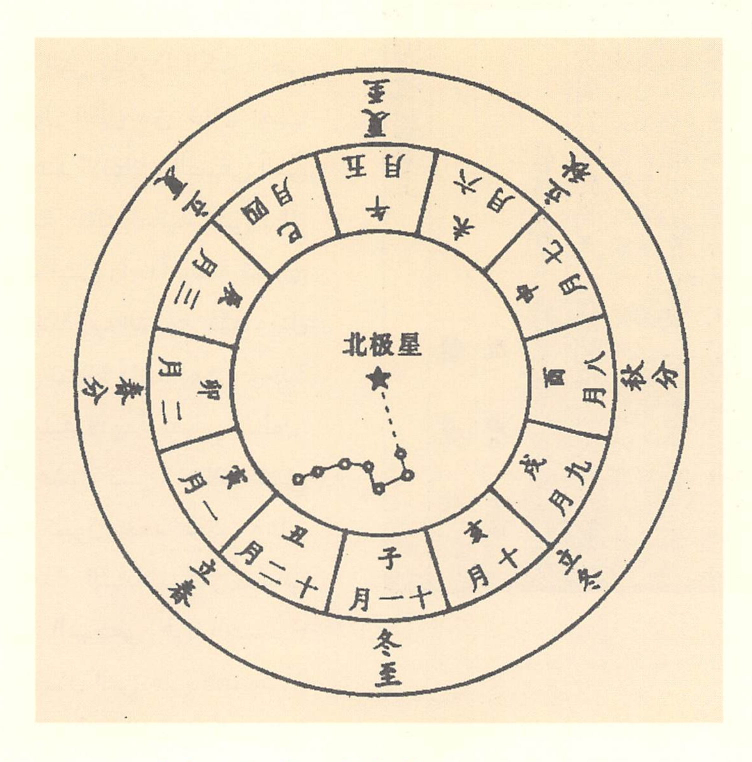

周髀算經卷上
趙爽注
甄鸞重述
唐朝議大夫行太史令上輕車都尉臣李淳風等奉勅注釋
昔者周公問於商高曰竊聞乎大夫善數也周公
姓姬名旦武王之弟商高周時賢大夫善筭者
也周公位居冢宰德則至聖尚卑己以自牧下
學而上達況其凡乎
請問古者包犧立周天曆度包犧三皇之一
始畫八卦以商高善數能通乎微妙達乎無方
無大不綜無幽不顯聞包犧立周天曆度建章
蔀之法易曰古者包犧氏之王天下也仰
則觀象於天俯則觀法於地此之謂也
夫天

الصورة 1-17 كتاب تشو بي المرجعي في الحساب الذي تم تأليفه في القرن الأول قبل الميلاد، هذه الصورة لنسخة محفورة على الخشب تعود إلى عهد سلالة سونغ الجنوبية

هذا واحد من عشرة كتب مرجعية كلاسيكية في الحساب في الصين. وهو في الأصل كتاب في علم الفلك تحت اسم: تشو بي، ولكن جزءاً منه يناقش الرياضيات.



ما يعنيه هذا هو أن الصينيين في عهد سلالة تشو كانوا قد بدأوا بالجمع بين طريقة قياس الظل باستخدام التوقوي وبين رصد الظواهر الفينولوجية، وكذلك أضافوا إليها طريقة رصد الظواهر الفلكية. على سبيل المثال، استخدم اتجاه رأس كوكبة الدب الأكبر لتحديد الفصول كما تقول إحدى السجلات: «حين يشير الرأس إلى الشرق، يأتي الربيع إلى كل الأمة، وحين يشير إلى الجنوب فهو الصيف لكل الأمة، وحين يشير إلى الغرب يأتي زمن الخريف، وحين يشير إلى الشمال فقد آن أوان الشتاء». وفي علم الفلك الصيني القديم، كان هذا يسمى: «دو جيان»، أو «تحديد الأشهر الاثني عشر من خلال الدب الأكبر»، وقد كان أيضاً وسيلة لتحديد الفصول الشمسية. (الصورة 1-19)



الصورة 1-19 رسم بياني للعلاقة بين كوكبة الدب الأكبر والفصول الأربعة

لكن النتائج التي تم التوصل إليها عبر رصد الظواهر الفينولوجية والفلكية ظلت أقل دقة من تلك التي تم التوصل إليها من خلال التوقوي. فقد ظل قياس طول الظل من خلال التوقوي أكثر الطرق رياضية ومنطقية بين الطرائق المستخدمة لتحديد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. ومع أنها طريقة بدائية للقياس الفلكي إلا أنها تجسد الأصول التي قام عليها اكتشاف الفصول الشمسية، ولا تخلو من المزايا العلمية. يدوِّن لنا الفصل الذي يحمل عنوان: «تجليات أحشائية في ستة أقسام من السنة» من كتاب «الأسئلة المباشرة» من «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» طريقة الملاحظة باستخدام نظام قوي بياو: «إن الانقلاب الشتوي هو بداية حركة الشمس، لذا يُستخدَم كبداية للسنة. ويستخدم نظام قوي بياو لتحديد وقت منتصف حركة الشمس؛ أي الانقلاب الصيفي. أما الوقت المتبقي فيتم حسابه عند نهاية السنة. وهكذا يكون بإمكاننا تحديد دورة السماء بالكامل بشكل تام». لقد كانت عملية القياس والحساب التي تجري على أساس طول الظل الذي تلقي به الشمس باستخدام نظام قوي بياو أبسط الطرائق وأكثرها موثوقية في تحديد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين.

يتم أولاً تحديد تاريخين دقيقين للانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي عبر استخدام توقوي لقياس طول الظل، ومن خلال تقسيم دائرة مسار الشمس الخيالية إلى أربعة أقسام متساوية يتم تحديد الفصول الأربعة. وكذلك من خلال تقسيم الدائرة إلى ثمانية أقسام متساوية يتم تحديد الفصول الشمسية الثمانية. وأخيراً، يتم تقسيم كل من الفصول الشمسية الثمانية إلى ثلاثة فصول شمسية، وبذلك يصبح لدينا أربعة وعشرون فصلاً شمسياً. كما قيل في «كتاب تشو بي المرجعي في الحساب»: «الانقلابان هنا أقصى درجتين في البرودة والسخونة، أما الاعتدالان فيمثلان توازن الين واليانغ، في حين أن البدايات الأربع تمثل بداية الولادة ثم النمو ثم الانحسار ثم الاختفاء. هذه هي الفصول الشمسية الثمانية، ولكل واحد منها ثلاث مراحل من [طاقة] التشي، وحاصل ضرب ثلاثة بثمانية يساوي أربعة وعشرين؛ هي الفصول الشمسية الأربعة والعشرون».

ما يعنيه الانقلابان هنا هو الانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي. ويمثّل الأول لحظة ذروة الحر في السنة، أما الثاني فيمثل لحظة ذروة البرد في السنة. وكذلك



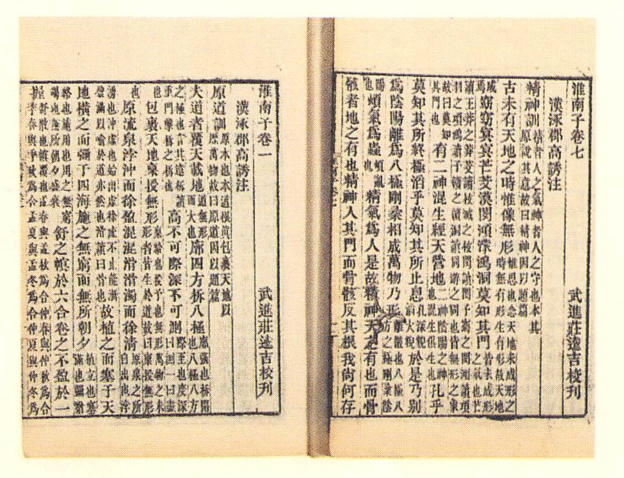
يشير الاعتدالان إلى الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي، وهما يمثلان اللحظات التي ينقسم فيها الين واليانغ، أو بكلمات أخرى: الليل والنهار، إلى نصفين متساويين. أما البدايات الأربع فتشير إلى بداية الربيع وبداية الصيف وبداية الخريف وبداية الشتاء، وتمثل أوقات التغير في حركة طاقة التشي بين السماء والأرض.

هذه هي فصول السنة الأربعة والفصول الشمسية الثمانية؛ لكن كل فصل شمسي ينقسم بعد ذلك إلى ثلاثة فصول شمسية، وهكذا يكتمل لدينا العدد: أربعة وعشرون فصلاً شمسياً. ما نستنتجه من هذه السجلات هو أنه من المؤكد أن تقسيم الفصول الشمسية الأربعة والعشرين قد تحقق على أساس الرصد الفلكي، وأن ذلك التقسيم كان بدون ريب على أساس علمي.

التوصل إلى الفصول الشمسية

ظهرت الفصول الشمسية الأربعة والعشرون في سلسلة كاملة في فصل يدعى: «محاضرة في علم الفلك» في كتاب «هواي نان تسي»، وهو بمثابة تحفة فنية في الكتابة العلمية. تم تأليفه أثناء عهد سلالة هان، وهو من أعمال الفلسفة الطاوية ذات الأصالة الفريدة في التاريخ الصيني، حتى إن العلماء في حقب السلالات التالية وصفوه بأنه: «محيط بالسماء والأرض، ويمتلك أعظم سعة في التاريخ بأسره». يتسم محتوى هذا الكتاب بالتفصيل الدقيق، والأصالة العميقة، والسمو الفكري، والإحاطة بمواضيعه، ويلخص جميع ما توصل إليه الشعب الصيني من علوم طبيعية في مجالات علم الفلك والجغرافيا قبل حقبة سلالة هان. (الصورة 1-20)

في «محاضرة في علم الفلك» في كتاب «هواي نان تسي» نقرأ ما يلي: «في الشهرين الثاني والثامن، يتوازن تشي الين مع تشي اليانغ ويعتدل الليل مع النهار، ويسمى هذا: «لقاء العطاء مع العقاب عند الباب». حين يكون العطاء في الجنوب فهذا وقت الحياة، وحين يكون العقاب في الجنوب فهذا وقت الذبح. وهكذا، تزدهر جميع صور الحياة في الشهر الثاني، بينما تموت الأعشاب والأشجار في الشهر الثامن. تفرق زاوية يبلغ مقدارها $91\frac{5}{16}$ درجة بين هذين الموسمين إذا اعتبرنا أن السنة تحتوي على $365\frac{1}{4}$ درجة. تقطع الشمس درجة واحدة في اليوم، ويوجد فصل


淮南子卷七
漢涿郡高誘注
武進莊逵吉校刊
精神訓
古未有天地之時惟像無形窈窈冥冥芒芠漠閔澒濛鴻洞莫知其門有二神混生經天營地孔乎莫知其所終極滔乎莫知其所止息於是乃別爲陰陽離爲八極剛柔相成萬物乃形煩氣爲蟲精氣爲人是故精神天之有也而骨骸者地之有也精神入其門而骨骸反其根我尚何存

淮南子卷一
漢涿郡高誘注
武進莊逵吉校刊
原道訓
夫道者覆天載地廓四方柝八極高不可際深不可測包裹天地稟授無形原流泉浡沖而徐盈混混滑滑濁而徐清故植之而塞于天地橫之而彌于四海施之無窮而無所朝夕舒之幎於六合卷之不盈於一握

الصورة 1-20 كتاب «هواي نان تسي»، والصورة مأخوذة عن نسخة محفورة على الخشب تعود إلى زمن حقبة تشينغ

يتألف الكتاب من مجموعة من المقالات التي تعود إلى حقبة سلالة هان الغربية. وتولى ليو آن مهمة- وهو أمير هواينان ومن أبناء العائلة الإمبراطورية- التوجيه لدى تأليف الكتاب. محتوى الكتاب كله معقد، ويمزج عناصر من الفلسفة الطاوية مثل الين واليانغ وإله الحرب مو مع النزعة القانونية، ومع أقسام من الفلسفة الكونفوشيوسية. ولكن ظل هدف الكتاب الرئيس إظهار تفوق الطاوية.



شمسي واحد كل خمسة عشر يوماً، ولهذا يوجد انزياح في الفصول الشمسية الأربعة والعشرين».

ما يعنيه هذا هو أن الانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي نقطتان حرجتان ينقلب فيهما كل من تشي الين وتشي اليانغ. عند الاعتدال الربيعي في الشهر الثاني والاعتدال الخريفي في الشهر الثامن يتوازن تشي الين مع تشي اليانغ، فيتساوى طول الليل والنهار. لكن الفرق هو أن الشهر الثاني هو الوقت الذي تبدأ فيه كل حياة بالنمو، أما الشهر الثامن فهو الوقت الذي تبدأ فيه الأعشاب والأشجار بالذبول. إذا قُسِّمت الكرة السماوية إلى $365\frac{1}{4}$ درجة، فسوف يبلغ مقدار كل فصل من فصول السنة الأربعة $91\frac{5}{16}$ درجة. وإذا كانت الشمس تجتاز درجة واحدة كل يوم، فسوف يكون لدينا فصل شمسي كل خمسة عشر يوماً. ويشير هذا الكتاب بوضوح إلى أنه قد تم التوصل إلى الفصول الشمسية من خلال تقسيم دائرة مسار الشمس إلى 24 قسماً متساوياً، وبعد ذلك يبدأ الكتاب بإعطاء وصف مفصل لكل فصل من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين:

حين يشير رأس كوكبة الدب الكبير إلى موقع تسي، فقد آن أوان الانقلاب الشتوي، والطبع الموسيقي الموافق له هو هوانغ تشونغ.

بعد خمسة عشر يوماً، يشير الرأس إلى موقع قُوي، ويحل فصل البرد الأصغر، والطبع الموسيقي الموافق له هو يينغ تشونغ.

بعد خمسة عشر يوماً، يشير الرأس إلى موقع تشو، ويحل فصل البرد الأكبر، والطبع الموسيقي الموافق له هو «وو يي».

بعد خمسة عشر يوماً، يشير الرأس إلى بُعد فضيلة الجزاء، أي باتجاه الشمال الشرقي؛ وهو الوقت الذي يذهب فيه تشي الين عميقاً في الأرض. يقال إن بداية الربيع تحل بعد ستة وأربعين يوماً من الانقلاب الشتوي، ويبدأ تشي اليانغ بإزالة التجمد عنه، الطبع الموسيقي الموافق له هو نان لو.

...

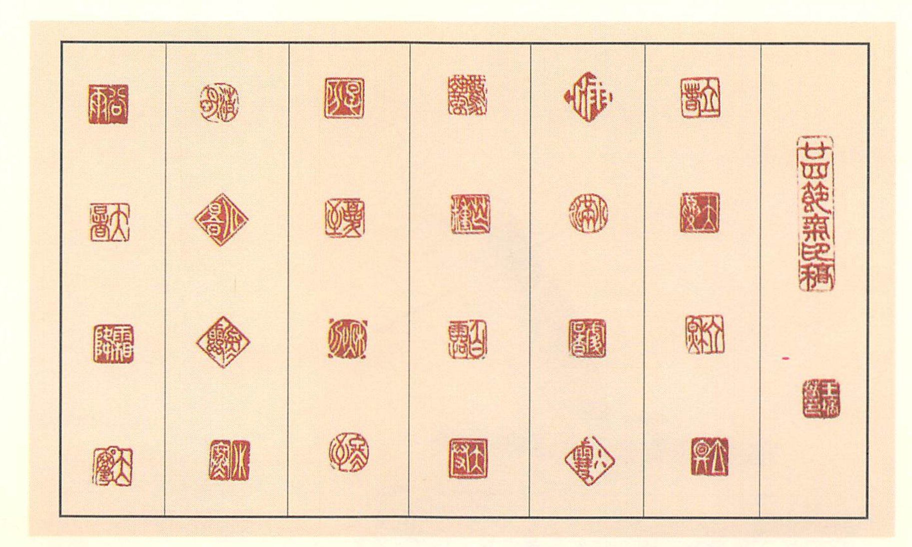
بعد خمسة عشر يوماً، يشير الرأس إلى موقع تسي، ويقال إن اليانغ يولد في

لحظة تسي والين يولد في لحظة وو. وهكذا، إن الانقلاب الشتوي يقع في الشهر الحادي عشر، فيبدأ طائر العقعق بتكثيف عشه، وترتكز طاقة التشي عند البشر في الرأس. يولد الين في لحظة وو، ولهذا يسمى الشهر الخامس «العقاب الأصغر»؛ فتذبل نباتات القمح وكيس الراعي والروريبا إنديكا، وتموت الأعشاب والأشجار التي تنمو في الشتاء.

تبدأ الفصول الشمسية الأربعة والعشرون في «هواي نان تسي» بالانقلاب الشتوي، وتتبعه بقية الفصول بالترتيب التالي: البرد الأصغر، البرد الأكبر، بداية الربيع، ماء المطر، استيقاظ الحشرات، الاعتدال الربيعي، السطوع المحض، مطر الحبوب، بداية الصيف، نضج الحبوب، الحبوب في السنابل، الانقلاب الصيفي، الحر الأصغر، الحر الأكبر، بداية الخريف، حد الحر، الندى الأبيض، الاعتدال الخريفي، الندى البارد، نزول الصقيع، بداية الشتاء، الثلج الأصغر، الثلج الأكبر.

لقد كان ما ورد في هذا الكتاب أول تسجيل كامل للفصول الشمسية الأربعة والعشرين في الأدب الصيني، وقد ظلت أسماء الفصول الشمسية تستخدم كما كانت في عهد سلالة هان حتى يومنا هذا. (الصورة 1-21)

يبدأ السجل المذكور في كتاب هواي نان تسي بالانقلاب الشتوي بدلاً من بداية الربيع كما هو الأمر اليوم، ويقول: «حين يشير رأس كوكبة الدب الكبير إلى موقع



الصورة 1-21 قصاصة أختام حول الفصول الشمسية الأربعة والعشرين

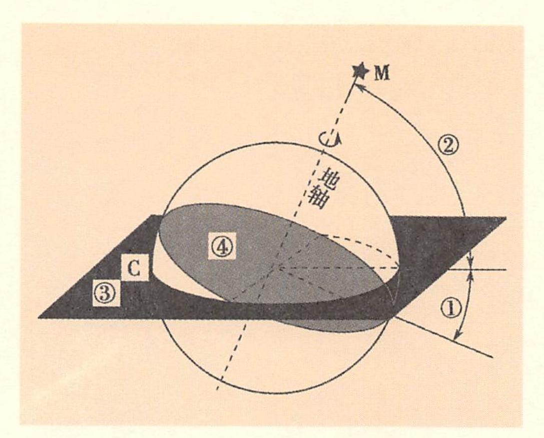


تسي، فقد آن أوان الانقلاب الشتوي». في ظاهر الأمر، يبدو الكتاب وكأنه يستخدم أسلوب «دوران الدب الأكبر وحركة الأبراج السماوية» لتحديد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ولكن النظام الذي يتبعه يبدأ في الواقع من الانقلاب الشتوي. يشير هذا إلى أن تحديد الفصول الشمسية النهائي كان على أساس ظل الشمس الذي يتم قياسه في الانقلاب الشتوي، ما يعني أن أساس التحديد كان قياس الطول ومن بعد ذلك حساب النتائج بالعلاقة مع الفينولوجيا وعلم الفلك. يقال إن الفصل المعنون: «شرح التعاليم حول الوقت والفصول» من كتاب «مقالات غير مجموعة من كتاب سلالة تشو» قد أُلِّف في زمن الممالك المتحاربة في الصين القديمة، ويحتوي على سجل بأسماء جميع الفصول الشمسية الأربعة والعشرين والكثير من السجلات الفينولوجية. لم يثبت زمن تأليف الكتاب حتى الآن، وما إذا كان يعود بالفعل إلى تلك الحقبة القديمة أم لا، ولكنه في حال إثبات ذلك سيشكل دليلاً قاطعاً على أن الصينيين كانوا قد توصلوا إلى الفصول الأربعة والعشرين حتى في تلك الحقبة الممتدة بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد. أما كتاب «هواي نان تسي» فمن شبه المؤكد أن تأليفه قد تم في حقبة سلالة هان في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، ويعكس النتائج العلمية التي تم التوصل إليها حتى قبل عهد هذه السلالة. (الصورة 1-22)



الصورة 1-22 مِزولة

تطور نظام قوي بياو تدريجياً إلى أن تحول إلى ساعة الشمس أو المِزولة التي يمكن استخدامها لقياس الظل الذي تلقي به الشمس عند الانقلاب الشتوي.



الصورة 1-23 رسم بياني لقياس الانقلاب الشتوي وتحديده في علم الفلك الحديث

بحسب قياسات علم الفلك الحديث، تشع الشمس عمودياً على مدار الجدي يوم الانقلاب الشتوي (ولذلك يسمى أيضاً: مدار الانقلاب الشتوي)، وتميل الشمس إلى أقصى درجة باتجاه النصف الشمالي من الكرة الأرضية، حيث يقصر النهار إلى أقصى درجة له ويطول الليل إلى أقصى حد له. وبعد الانقلاب الشتوي تبدأ الشمس بالانقلاب تدريجياً وببطء نحو مدار السرطان.

يسجل كتاب «هواي نان تسي» تفاصيل طريقة قياس طول الظل باستخدام التوقوي فيقول: «يبلغ طول ظل عمود طوله ثمانية تشي حوالي تشي واحد وخمسة تسون. حين يكون الظل طويلاً فإن طاقة تشي النابعة من الين تكون أقوى، وحين يكون قصيراً تكون طاقة تشي النابعة من اليانغ أقوى». يبيِّن هذا السجل أن عمود البياو الذي يبلغ طوله ثمانية تشي (أي حوالي 2.67 م) سيبلغ طول ظله تشي واحداً وخمسة تسون (أي حوالي نصف المتر) عند الانقلاب الصيفي. وقد تم الحصول على هذه البيانات في بداية عهد سلالة تشو (التي حكمت الصين في مراحل مختلفة بين القرنين الحادي عشر والثالث قبل الميلاد). وبعد الانقلاب الصيفي، يظل تشي اليانغ يتنامى، وهو ما يسمى: «يولد أول جزء من اليانغ عند الانقلاب الشتوي». يُظهِر لنا كل هذا أنه قد تم التوصل إلى علم اليقين في تمييز الفصول الشمسية من خلال الجمع بين الرصد الفلكي عبر فترة طويلة من الزمن وتجارب الناس المباشرة. (الصورة 1-23)

لم تتغير الفصول الشمسية الأربعة والعشرون المسجلة في كتاب «هواي نان تسي» خلال ألفي سنة. وتكشف هذه الأسماء أهمية الأوقات التي تشير إليها؛ المناخية منها والفينولوجية. وقد بُنِي هذا النظام على أساس تحديد دقيق للمواقع الفلكية، وهو لذلك إنجاز ضخم. يرى بعض الناس أننا إذا أخذنا اختراعات الصين العظيمة الأربعة (البوصلة، وصناعة الورق، ومسحوق البارود، والطباعة) بعين الاعتبار، فإن اكتشاف الفصول الشمسية هو خامسها.

潤物的歌咏

الفصول الشمسية الصينية

الفصل الثاني

معنى الفصول الشمسية الصينية: ذهاب الفصول وإيابها

| تدوين اندفاع الطبيعة

تُبيِّن الفصول الشمسية الأربعة والعشرون انتظام الحياة على الأرض. وكما هو الحال بالنسبة إلى أي كائن حي على هذا الكوكب، إن الإنسان محكوم بقوانين الطبيعة، وقد أدّت تجارب الإنسان مع الطبيعة واستكشافه لها إلى تعرفه التدريجي على الأنماط التي تسير الفصول وفقها، ومن ذلك اكتشافه سر الفصول الشمسية الأربعة والعشرين.

إن إيجاد اسم جيد لشيء ما ليس بالأمر السهل، وجميعنا نواجه المشكلة ذاتها حتى في عصرنا الحديث حين نفكر في تسمية أبنائنا بأسماء جميلة ويسهل لفظها ولكنها غير خالية من المعاني العميقة والمباركة. لقد كان كتاب «هواي نان تسي» أول تسجيل لأسماء الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ولا شك في أنها تسمية قد وصلت إلى شكلها الأخير بعد تطور ربما دام لعدة قرون. إن هذه الأسماء سهلة الحفظ وحسنة على الأسماع؛ والأهم أنها تشير بوضوح إلى التغيرات التي تحصل في السماء والأرض والين واليانغ والطبيعة ككل أثناء تبدل الفصول الشمسية. ولهذه الأسباب كلها، ظلت هذه الأسماء من دون تغيير حتى زمننا الحاضر. (الصورة 2-1)



الصورة 2-1 حجارة قد حفرت عليها الفصول الشمسية الأربعة والعشرون على المحور المركزي في بكين (تصوير يان شيانغ تشون)

كانت أسماء الفصول الشمسية الأربعة والعشرين قد أصبحت قيد الاستخدام في وقت تأليف كتاب «هواي نان تسي» في عهد سلالة هان، ولا يزال الشعب الصيني يستخدمها حتى اليوم، أي بعد مرور أكثر من ألفي سنة!



دعونا الآن نتفحص المعنى الدقيق الذي يشير إليه اسم كل فصل من هذه الفصول الشمسية:

بداية الربيع: الربيع هو الفصل الذي يكاد فيه كل شيء يتفجر بالحياة والحركة. وفي اللغة الصينية، يستخدم الحرف «春» للإشارة إلى الربيع، ويشكل رأس حرف آخر هو: « 蠢» والذي يعني «تلوي الزواحف». وكذلك، إن الحرف الصيني «立» يعني البداية. يرسم لنا اسم هذا الفصل مشهداً؛ حيث يعود كل شيء إلى الحياة مع مجيء الربيع إلى الأرض. وفي بعض التقاويم الصينية القديمة، اعتبر الناس أن السنة تبدأ مع بداية الربيع، وحوّلوا ذلك اليوم إلى يوم عطلة واحتفالات كما هو الحال في عيد الربيع الذي يحتفل به الصينيون حتى يومنا هذا.

ماء المطر: في مناخ الصين، لا ينهمر الكثير من المطر في الشتاء. ولكن بعد مرور خمسة عشر يوماً على بدء الربيع تعود الحياة إلى الأرض بالكامل، وتزداد قوة إشعاع الشمس يوماً بعد يوم فتذيب قوة تشي اليانغ المشعة الثلج والجليد، ويبدأ مطر الربيع بالانهمار بغزارة، فترطب مياه الأمطار الأرض والأعشاب، وتبدأ الأشجار بالتبرعم والازدهار. كفصل شمسي، المشهد الذي يظهر من «ماء المطر» هو تساقط أمطار الربيع من دون توقف لترطب كل شيء على الأرض.

استيقاظ الحشرات: بعد أن تنتعش الأرض بحلول الربيع وبعد أن تترطب بمياه أمطاره تستيقظ الكائنات الحية فيها بالكامل، يتصل تشي الين مع تشي اليانغ ويتصارعان، وتكون النتيجة صوت الرعد. وحين يتردد صوت رعد الربيع في عنان السماء، يوقظ الحشرات والحيوانات الأخرى من سباتها الشتوي في التراب، فتبدأ هذه المخلوقات بالزحف والتلوي خارج التربة والكهوف بحثاً عن الطعام. يرسم اسم: «استيقاظ الحشرات» صورة حية عن حركة الحياة على الأرض خلال هذا الفصل الشمسي.

الاعتدال الربيعي: مع حلول الاعتدال الربيعي يكون منتصف فصل الربيع قد مرّ. وفي هذا اليوم يتساوى طول الليل والنهار، ويتوازن تشي الين مع تشي اليانغ، وتتفجر الحياة بجميع أشكالها في السماء والأرض، ويمتلئ كل شيء بحيويتها ونشاطها.

السطوع المحض: بعد الاعتدال الربيعي بخمسة عشر يوماً تظهر الطبيعة مشاهد واضحة وساطعة للربيع؛ فالجبال خضراء، والأنهار صافية، ويعكس اسم هذا الفصل- «السطوع المحض»- أفضل وصف لذلك المشهد.

مطر الحبوب: يتساقط المزيد من أمطار الربيع، وتشرب المحاصيل مع حلول هذا الوقت الكثير من المياه. ولأن هذا المطر يساعد المحاصيل على النمو، فقد أُطلِق على الفصل الذي ينهمر فيه: «مطر الحبوب».

بداية الصيف: تصبح أشعة الشمس أقوى ويبدأ الصيف، ويشعر الإنسان وكأن وجهه يحترق بعض الشيء إذا نزلت عليه أشعة الشمس مباشرة.

نضج الحبوب: ما يعنيه «نضج» هنا هو أن بذور المحاصيل تصل إلى كامل نموها، وتبدأ محاصيل مثل القمح بالنضج وملء سنابلها.

الحبوب في السنابل: يُطلَق على هذا الفصل الشمسي: «مانغ تشونغ» باللغة الصينية. وتعني كلمة مانغ: سنبلة القمح، وحين تمتلئ السنبلة بالقمح بشكل كامل يحين وقت حصادها وزرع الأرز بأسرع وقت ممكن؛ ولهذا يقول بعض الناس إن فصل «الحبوب في السنابل» هو بداية الانهماك في موسم الزراعة لأنه يتطلب نشاطين: الحصد والزراعة.

الانقلاب الصيفي: هذا يوم في السنة، وتكون فيه الظلال عند أقصر امتداد لها، ويكاد الحر فيه لا يطاق. لقد بدأ حر الصيف!

الحر الأصغر: الحرارة مرتفعة للغاية، ولكنها لم تصل إلى أقصى ارتفاع لها بعد، ولهذا يُطلَق على هذا الفصل: الحر الأصغر.

الحر الأكبر: هذه الفترة هي الأشد حرارة في السنة كلها. تصبح أشعة الشمس فيها لافحة، والحر منهكاً، فيبحث الإنسان والحيوان عن أماكن أكثر برودة للاختباء فيها. وقد فرَّق من أطلق الأسماء على الفصول الشمسية بين الحر «الأكبر» و«الأصغر» كي يميز الناس درجة الحر التي سيعانون منها بحسب الاسم، وقد استُخدِم الأسلوب ذاته للتفريق بين فصول شمسية أخرى هي البرد الأصغر والبرد الأكبر، والثج الأصغر والثلج الأكبر.

بداية الخريف: يتسلل الخريف بهدوء، وربما ظل الحر موجوداً. يُسمّي الصينيون الحر بعد حلول فصل الخريف: «نمر الخريف»؛ وذلك لأن الحرارة لا تزال مؤذية مثل عضة النمر. ولكن بعد يوم من بداية الخريف تبدأ الحالة السائدة بين تشي الين وتشي اليانغ بالتبدل، وتبدأ درجات الحرارة بالهبوط.



حد الحر: يُسمّي الصينيون هذا الفصل: «تشو شو»، وما تعنيه كلمة «تشو» هو: الاختباء. إذ يبدأ الخريف بالظهور، ويبدأ معه الحر بالاختباء مع أنه لم يختفِ تماماً بعد. ولكن بعد هذا الفصل يبدأ الطقس بالتحول إلى البرودة، وعندها لن يقلق الناس من نمر الخريف المبلل بالعرق!

الندى الأبيض: هذا الاسم شاعري للغاية، ولقد ورد البيت التالي من قصيدة في «كتاب الأغاني»: «يتحول الندى الأبيض إلى صقيع!». خلال هذه الفترة، يعود تشي الين وتشي اليانغ إلى عدم التوازن؛ فالليالي باردة وثقيلة، والأبخرة المتصاعدة قرب سطح الأرض تتكثف لتتحول إلى قطرات ندى على الأعشاب والأشجار، وفي ذلك إشارة إلى أننا قد بدأنا بالدخول في برد الخريف.

الاعتدال الخريفي: كما هو الحال في الاعتدال الربيعي، إن هذا اليوم يشير إلى حلول منتصف فصل الخريف الذي يستمر لتسعين يوماً. يتساوى طول الليل والنهار في هذا اليوم، وبعده يصبح تشي اليانغ أضعف بينما يصبح تشي الين أقوى؛ ويصبح النهار أقصر من الليل.

الندى البارد: إن برد الخريف مثل الماء المثلج. يصبح تحمل البرد صعباً في الليل، ويصبح الفرق بين درجات الحرارة كبيراً، حتى إن قطرات الندى الباردة تتشكل على الأعشاب والأشجار. لقد أصبحنا في آخر فصل الخريف الآن!

نزول الصقيع: بعد حلول الندى البارد بخمسة عشر يوماً، ستجد طبقة رقيقة من الصقيع إذا استيقظت في الصباح الباكر؛ ما يعني درجات حرارة تقارب الصفر، فيتحول البخار إلى ثلج نتيجة البرد.

بداية الشتاء: تعني هذه البداية أن فترات إشعاع الشمس ستقل بشكل ملحوظ، وسيصبح تشي اليانغ ضعيفاً للغاية، وهذا يعني حلول فصل الشتاء.

الثلج الأصغر: تبدأ الثلوج بالتساقط في بعض مناطق شمال الصين، ولكن تساقط الثلج لا يكون كثيراً بعد.

الثلج الأكبر: يصبح الطقس أشد برودة، وتزداد حالات تساقط الثلج وكميات الثلوج المتساقطة.

الانقلاب الشتوي: في هذا اليوم يصل الظل الذي تمده الشمس إلى أطول امتداد

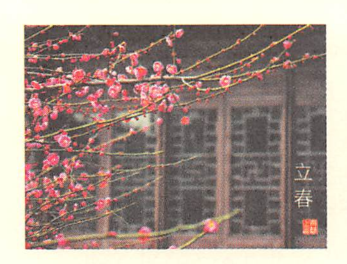
له. وهذا النهار هو الأقصر في السنة، والليلة التي تليه هي أطول الليالي. يصل تشي الين البارد إلى أقصى درجاته بين السماء والأرض. ولكن، بما أن الشيء إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده، فبعد الوصول إلى أقصى درجات البرودة في هذا اليوم يبدأ تشي اليانغ بالنمو مجدداً.

البرد الأصغر: السماء باردة والأرض متجمدة، ولكن أبرد أيام السنة لم تأتِ بعد.

البرد الأكبر: يصل البرد إلى أقصى درجاته. هذه هي أكثر أوقات السنة تجمداً وصقيعاً! (الصورة 2-2)

إذاً، إن أسماء هذه الفصول الشمسية الأربعة والعشرين دقيقة للغاية في وصف الظروف الفينولوجية التي تحصل أثناءها. وبالإضافة إلى طابع هذه الأسماء الوصفي الحيوي فهي بسيطة، حيث تمكّن الفلاحين الأميين البسطاء من حفظها وفهم معانيها. تُظهِر هذه الأسماء الأعاجيب اللغوية في اللغة الصينية وحكمة الشعب الصيني، وتعكس بعمق قوانين تبادل القوة والضعف بين تشي الين وتشي اليانغ. إذا أغمضت عينيك وبدأت بقراءة هذه الأسماء الأربعة والعشرين الدقيقة والبسيطة في ذهنك، فقد تتمكن من الشعور بنبض الطبيعة واندفاع تدفق الحياة فيها، وفهم المفهوم المذهل المشير إلى الوحدة بين السماء والإنسان!



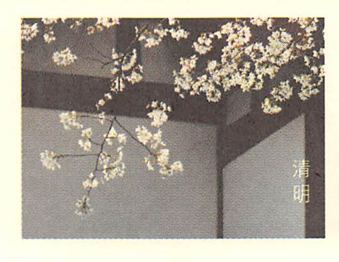




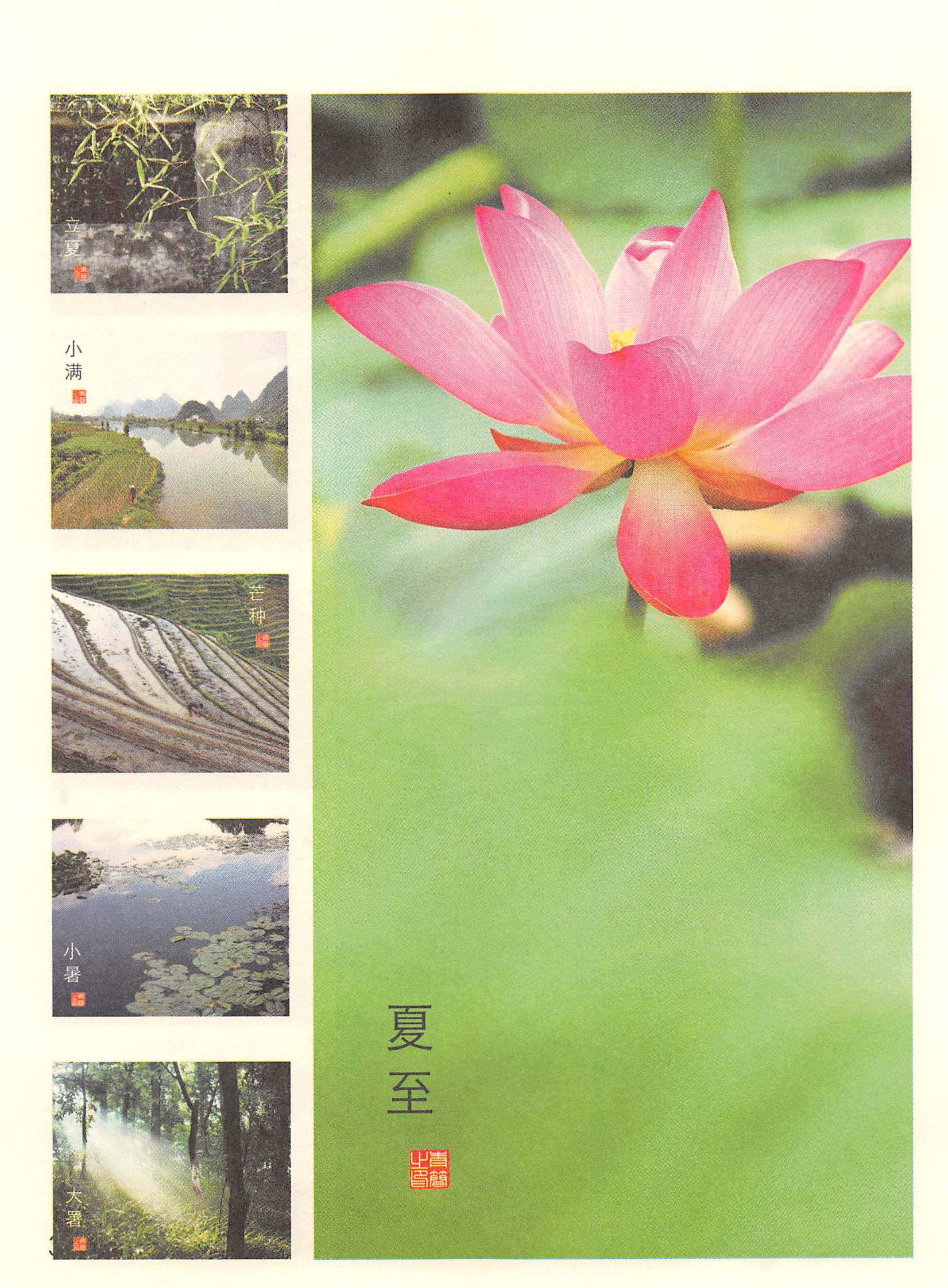


الصورة 2-2 أعمال فوتوغرافية تتعلق بالفصول الشمسية الأربعة والعشرين (تصوير تشينغ جيان)

تظهر الصور مناظر طبيعية في مختلف الفصول الشمسية. المصورة هي تشينغ جيان، واسمها الحقيقي هو تشو جيه، وتعمل كطبيبة ومصورة، حيث نُشرت مقالاتها وصورها الفوتوغرافية في عدد من وسائل الإعلام، كما نشرت صورتها الشخصية ومجموعة مقالاتها تحت عنوان: جنوب نهر يانغتسه.






立夏
小满
芒种
小暑
大暑
夏至



秋分

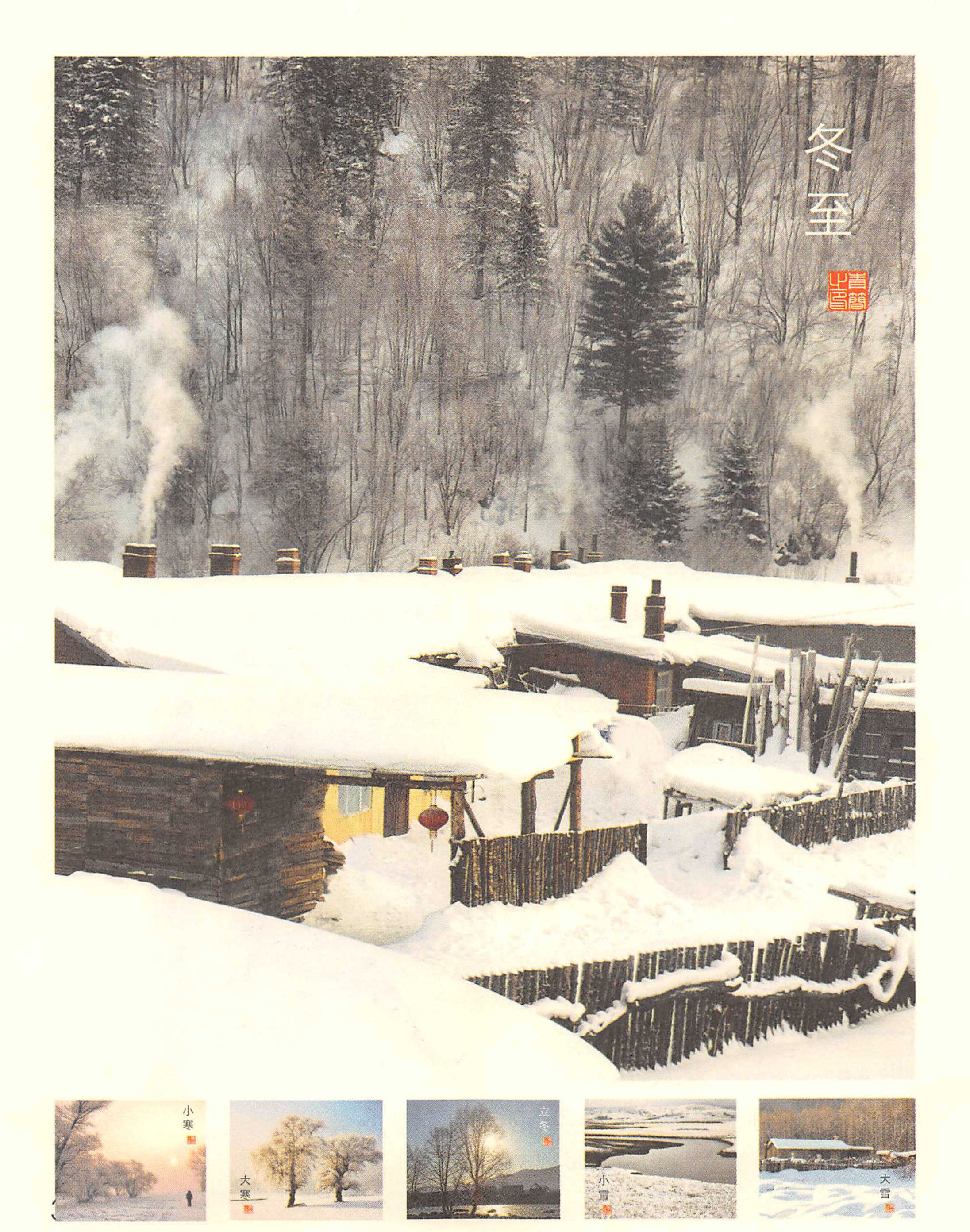
立秋

处暑

白露

寒露

霜降


冬至
小寒
大寒
立冬
小雪
大雪



التعبير عن دورة الحياة

تتقدم أعجوبة الحياة في دورة لا تنتهي، وقد اكتشف الصينيون القدامى المبدأ الأساسي للتغيرات في الحياة من خلال تجاربهم وقدرتهم على الحدس واستبطان المظاهر، بالإضافة إلى القياس الموضوعي للتحولات بين طاقتي الين واليانغ بين السماء والأرض. من دون الشمس، ليس هناك ين ولا يانغ، وكذلك لا يمكن فصل الين عن اليانغ أبداً كما قيل: «لا يمكن للين ولا لليانغ أن ينمو أحدهما بمعزل عن الآخر». لذلك، إن حركة الشمس هي العنصر الجوهري لهذه التحولات، وتؤدي حركة الين واليانغ هذه إلى تقلب الفصول. طاقة التشي هي الوسط الذي يتحرك فيه كل من الين واليانغ، وهي أيضاً صورة تجسدهما. وقد استخدم الصينيون القدامى الكلمات الحية التالية لوصف الحركة والتبدل بين تشي الين وتشي اليانغ: «التكافؤ، الذروة، البداية، الإغلاق».

ما تكشفه الفصول الشمسية في الحقيقة هو دورة الحياة في الطبيعة، ويشكل مجموعها وصفاً دقيقاً للمظاهر الطبيعية كما تجلت أمام الصينيين القدامى الذين توصلوا إلى الأنماط الكامنة فيها عبر عملية طويلة من المراقبة والتحليل. (الصورة 2-3)

إذا رتبنا الفصول الشمسية الأربعة والعشرين في جدول، فبإمكاننا بسهولة أن نجد انتظاماً عجيباً فيها. تبدأ هذه الفصول في كتاب «هواي نان تسي» من الانقلاب الشتوي، ولكن الناس اعتادوا اليوم أن يستخدموا بداية الربيع كأول الفصول الشمسية. يمكننا أن نقسم الفصول إلى أربع مجموعات، وبعد ذلك نقسم كل مجموعة إلى نصف أمامي ونصف خلفي:



الصورة 2-3: رسم حول الين واليانغ في دليل طاوي عن المناخ أُلف في القرن التاسع عشر

في الصورة، تمثل النار طاقة «اليانغ»، بينما تمثل السحابة طاقة «الين».

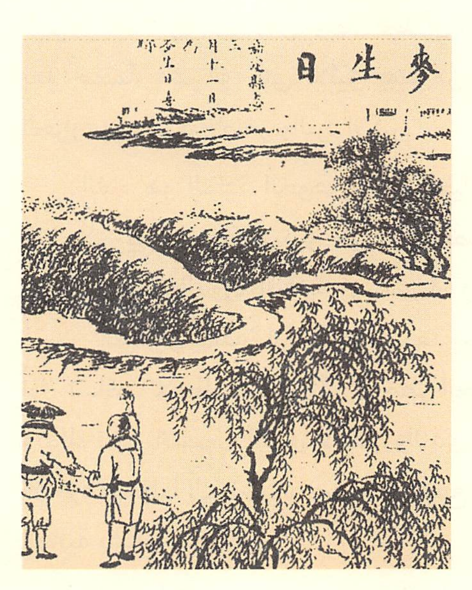
بداية الربيع، مياه المطر، استيقاظ الحشرات، الاعتدال الربيعي، السطوع المحض، مطر الحبوب.

بداية الصيف، امتلاء الحبوب، الحبوب في السنابل، الانقلاب الصيفي، الحر الأصغر، الحر الأكبر.

بداية الخريف، حد الحر، الندى الأبيض، الاعتدال الخريفي، الندى البارد، نزول الصقيع.

بداية الشتاء، الثلج الأصغر، الثلج الأكبر، الانقلاب الشتوي، البرد الأصغر، البرد الأكبر.

أول ما يتبين لنا في هذا الترتيب هو «البدايات» الأربع في الفصول الشمسية، والتي تشير إلى بداية فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء. نجد أيضاً في كل نصف خلفي من كل مجموعة فصلاً شمسياً يشير إلى الفصل السنوي الذي يقع فيه، أعني الاعتدالين الربيعي والخريفي، والانقلابين الصيفي والشتوي. هذه الفصول الشمسية الثمانية هي الفصول الشمسية الأصلية التي تم اكتشافها في البداية، وكانت تحدد عبر القياس الفلكي بدلاً من الظواهر الفينولوجية. تكشف لنا هذه الفصول انتظام الطبيعة التي تولّد الحياة في الربيع، وتساعدها على النمو في الصيف، وتقتلها في الخريف، وتخبئها في الشتاء؛ فتتسبب دورة الطبيعة بنمو الأعشاب والأشجار، كما تتسبب بذبولها وموتها. وتعبر الفصول الشمسية عن هذه الدورة التي لا تنتهي خير تعبير وأدق تعبير. **(الصورة 2-4)**



الصورة 2-4 عيد ميلاد القمح، من «تصوير حول الأشياء القديمة في كل يوم»

كان الاحتفال بعيد ميلاد القمح واسع الانتشار في إقليم تشه جيانغ. يصلي الناس لأجل حلول فصل حصاد طيب عند كل احتفال.

تجسد دورات إشعاع الشمس والمياه العلاقة القائمة بين الفصول الشمسية ودورة الحياة. فنمو الحياة يعتمد على إشعاع الشمس، ولهذا الإشعاع تأثير مباشر على درجات الحرارة على الأرض. تحتوي الفصول الشمسية الأربعة والعشرون على خمس حالات تعبر مباشرة عن تغيير درجات الحرارة: الحر الأكبر، والحر الأصغر، وحد الحر- وتشير جميعها إلى شدة درجات الحرارة في الصيف- أما البرد الأصغر والبرد الأكبر فيشيران إلى البرد في زمهرير الشتاء. ما يُحدّد هذه الفصول الشمسية هو فترة بقاء إشعاع الشمس في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. وإذا تفحصنا هذا الأمر من الناحية الفلكية، فإن الشمس- كما تبدو للعيان من على سطح الأرض- تصل إلى أعلى موقع لها عند الانقلاب الصيفي، وكذلك تصل إلى أدنى موقع لها عند الانقلاب الشتوي. لكن في الصين، ليس الانقلاب الصيفي أشد أوقات السنة حراً، ولا الانقلاب الشتوي أشد أوقات السنة برداً، فلِمَ يحصل هذا؟

يحصل هذا لأن الأرض تستغرق بعض الوقت قبل أن تمتص الإشعاع الحراري وتطلق الحرارة التي تمتصها، فتمتص القارات الشاسعة أشعة الشمس ببطء وتطلق الحرارة بعد فترة من الزمن، ولهذا نجد أن أكثر أيام السنة حراً في الصين عادة يكون بعد خمسة عشر أو حتى ثلاثين يوماً من الانقلاب الصيفي. وللأسباب ذاتها تتغير الحرارة بين البرد الأصغر والبرد الأكبر.

الماء هو المادة الجوهرية في الحياة؛ إذ يحتاج كل شيء في الطبيعة إلى الماء كي يعيش. ولذلك نرى من بين الفصول الشمسية الأربعة والعشرين خمسة فصول تتعلق بالدورة المائية في السنة، ومنها: مياه المطر ومطر الحبوب؛ وهما فصلان شمسيان يصفان انهمار المطر بعد بداية الربيع. حيث يصف فصل مياه المطر أول تساقط للأمطار في السنة، أما مطر الحبوب فيشير إلى الهطول الشديد للمطر. وكذلك تشير الفصول: الندى الأبيض، والندى البارد، ونزول الصقيع إلى حالة من تكثف الأبخرة وتحوّلها إلى ندى أو صقيع. وبالطبع يرتبط الثلج الأصغر والثلج الأكبر بالدورة المائية بشكل مباشر.

الفصل الشمسي الذي يصف نشاطات حياة الحيوانات مباشرة هو «استيقاظ الحشرات». ففي هذه الفترة، يتردد صوت الرعد في السماء، وتبدأ الحشرات والزواحف بالتلوي والزحف على الأرض. ويتجلى تجدد الحياة في الربيع في هذه



الصورة 2-5 القمح بعد مرور موسم «امتلاء الحبوب» ومع أول وصول فصل «الحبوب في السنابل»

تبدأ السنابل بالامتلاء خلال فصل «امتلاء الحبوب»، وتصبح جاهزة للحصاد في فصل «الحبوب في السنابل»

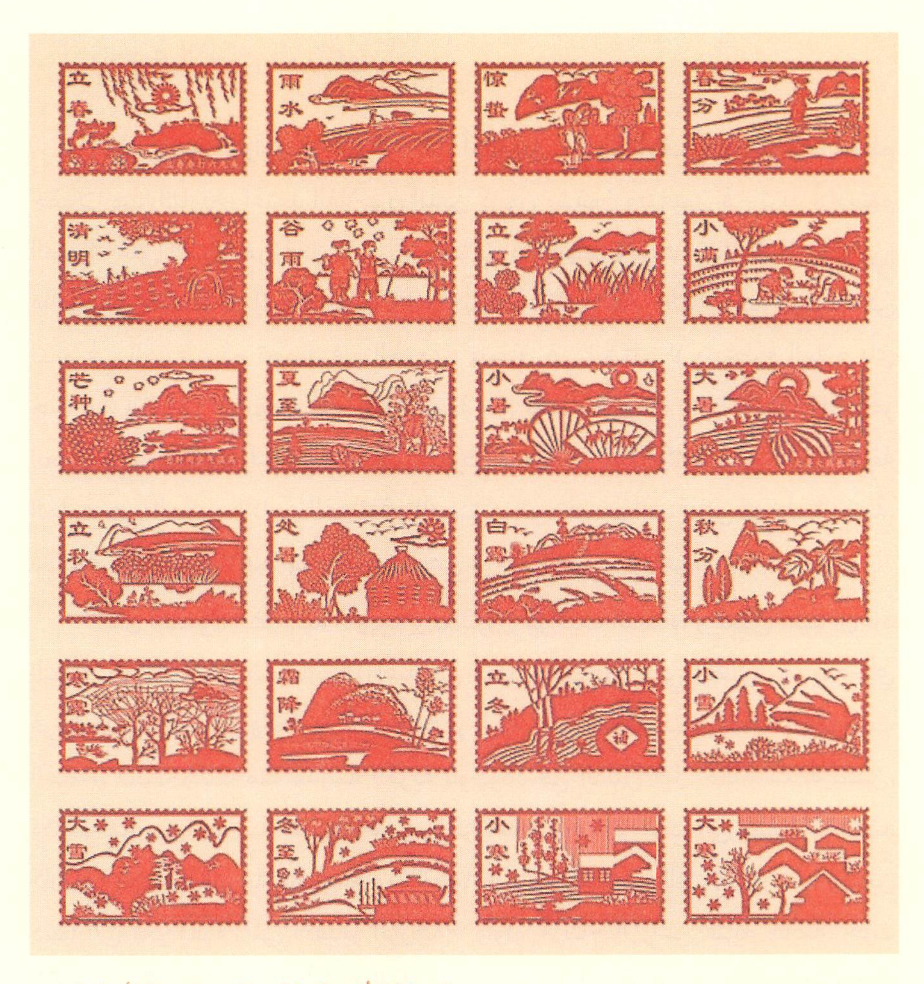
الحيوانات خلال هذه الفترة. هذه الوتيرة من تجدد الحياة والاستيقاظ والحركة تمتد لتشمل سائر أشكال الحياة، فتبدأ قوة الحياة بالتجلي أيضاً في النباتات، وخاصة في المحاصيل، ولاسيما خلال الفصلين الشمسيين: «امتلاء الحبوب» و«الحبوب في السنابل». فالأول يشير إلى الوقت في السنة الذي تبدأ فيه السنابل بالامتلاء بالحبوب، أما الثاني فيشير إلى الوقت الذي تصل فيه المحاصيل إلى كامل نموها وتصبح جاهزة للحصاد. وتتماثل هذه الأوقات في كل سنة، ولا تتغير أبداً. (الصورة 2-5)

تشمل تجارب الناس مع تغير الظواهر الطبيعية أكثر من مجرد الشعور بالحر والبرد والدفء ولطف المناخ، فهي تشمل ما حفظته ذاكراتهم من أنماط نمو الأزهار والأعشاب والأشجار في الطبيعة. وكما تشير أغنية شعبية تلقى انتشاراً كبيراً في الصين، إن الأعشاب والأشجار على الأرض تنمو خلال دورة سنوية تتولد منها الحياة في الربيع، وتساعد الكائنات الحية على النمو في الصيف، ثم تقتلها في الخريف، قبل أن تخفيها في الأرض في الشتاء أثناء تقلب الفصول الشمسية.



عند بداية الربيع يصبح جمال أزهار الخوخ استثنائياً
عند مياه المطر تخرج ثمار المشمش الحمراء طازجةً وجميلة
عند استيقاظ الحشرات يتدحرج الرعد عند غابات القصب
عند الاعتدال الربيعي تتراقص الفراشات بجانب الأزهار بسعادة
عند السطوع المحض كثيراً ما يخرج الناس ليطلقوا الطائرات الورقية في السماء
عند مطر الحبوب تنمو أشجار شاي جديدة نقية في صفوف خضراء مثل الجاديت
عند بداية الصيف تحمل أشجار التوت ثماراً ناضجة
عند امتلاء الحبوب يربي الناس من دودة القز ويلقون البذور في الحقول نهاراً وليلاً
عند الحبوب في السنابل تتفتح أزهار اليشم في الباحات
عند الانقلاب الصيفي تونع سنابل الأرز مثل الحرير الأبيض المنتشر في جميع الجهات
عند الحر الأصغر تهب الرياح وتساعد في إنضاج أول موسم فول
عند الحر الأكبر يستمتع الناس باللوتس الحمراء بجوار بركة كبيرة
عند بداية الخريف يغني الزيز كي يجعلك تنام بهناء
عند حد الحر يُزهر عباد الشمس في وجوه مبتسمة حوله
عند الندى الأبيض يطير السنونو والإوز البري إلى الجنوب
عند الاعتدال الخريفي يملأ عطر الأوسمانثوس الدنيا من جميع الجهات
عند الندى البارد تنمو براعم سلجم الشتاء خضراء في حقول الفلاحين
عند نزول الصقيع تطير عسيلات الصفصاف في كل أرجاء السماء
عند بداية الشتاء تأتي السعادة والبركات الثلاث
عند الثلج الأصغر تتساقط رقاقات الثلج الكبيرة وكأنها ريش إوز أبيض
عند الثلج الأكبر تنمو زهرة الفلفل وتتحدى الرياح القوية الباردة
عند الانقلاب الشتوي تتساقط الثلوج المباركة ممهدة الطريق أمام سنة طيبة
عند البرد الأصغر يحلم المسافرون بمنازلهم ويعودون إليها
عند البرد الأكبر يجتمع الناس في آخر السنة ويودون أن يعانقوا بعضهم بعضاً (الصورة 2-6)

في كل سنة تنمو الأعشاب والأشجار ثم تذبل، وتتبرعم الأزهار، وتكبر السنابل وتنضج الحبوب فيها، وتستمر الحياة في دورتها بدءاً من الولادة، ومروراً بالنضوج، ثم الشيخوخة والمرض والموت. تظل هذه الدورة تسير في طريقها ويمر الزمن، والشيء الوحيد الثابت في ذلك هو الدورة نفسها، حيث يطلع كل من الشمس والقمر من



الصورة 2-6: أقصوصة ورقية عن الفصول الشمسية الأربعة والعشرين

الشرق ويغيبان في الغرب، ويتبادل تشي الين السيطرة مع تشي اليانغ؛ فيسيطر كل منهما على الآخر لفترة بشكل متناوب، ويتبدل المناخ في دورته من الدفء إلى الحر ثم يلطف الجو ثم يبرد. وجميع أشكال الحياة تمرّ بدورة الولادة والنمو ثم التقلص قبل الاختفاء. يقول الصينيون القدامى: «السماء لا تتغير، وكذلك الطريق الكبرى». وتتجلى تلك الطريق الكبرى التي لا تتغير على الأرض بالدورة التي تتنقل فيها الفصول الشمسية وتتحول.



توجيه الإنتاج الزراعي

يعود تاريخ الزراعة في الصين إلى أكثر من خمسة آلاف سنة. وخلال معظم حقبات هذا التاريخ، اعتمد الفلاحون الذين كانون يشقون ويتعبون في تربة أراضيهم الصفراء على المناخ من أجل تأمين معيشتهم وأرزاقهم، ولذلك يقول المثل الصيني: «انظر إلى السماء ثم إلى الأرض، ثم ازرع نباتك». تلقى بذور النبات في الربيع حتى تنمو في الصيف، ثم تحصد في الخريف وتخزّن في الشتاء. لا يستطيع الفلاح بأي حال من الأحوال أن يهمل أي لحظة مهمة من لحظات موسم الزراعة؛ لأنه إذا أخّر العمل في حقله ولو لنهار واحد فقد يتعرض للمشاكل لسنة كاملة. إن هذه الحاجة الماسة هي السبب الكامن الذي دفع الصينيين إلى تقسيم السنة إلى فصول شمسية. فالغاية الأساسية والأهم لهذه الفصول هي توجيه الإنتاج الزراعي.

تمثل الفصول الشمسية الأربعة والعشرون مواقيت السماء، وينبغي علينا أن نرد التطور المستمر في الحضارة الزراعية في السهول الوسطى في الصين القديمة- أي في الجهتين الوسطى والعلوية للنهر الأصفر اليوم- إلى معرفة الناس الدقيقة بمواقيت السماء. كانت هناك مئة مدرسة فكرية موجودة في الصين قبل حقبة سلالة تشين، وكانت من بينها مدرسة تدعى: «مدرسة الزراعة»، وبعبارة أقرب إلى فهمنا الحديث: كان أتباع هذه المدرسة مجموعة من العلماء المتخصصين في الإنتاج الزراعي، والذين دعوا إلى فكر يقوم على «تقدير الزراعة»، وأولوا الإنتاج الزراعي عناية خاصة. جرت الكثير من المناقشات بين أولئك العلماء حول نوعية التربة وطرائق تخصيبها، وحول مواسم طرح البذور وإدارة الأراضي الزراعية. وقد تطوّرت هذه النظريات وتبلورت في رسالة في علم الزراعة تحت عنوان: «كتاب هو جي في الزراعة». ومع أن هذا الكتاب يعتبر في حكم المفقود، إلا أن فقرات منه لا تزال موجودة في كتب مثل: «قوان تسي» و«تشون تسي» و«حوليات الربيع والخريف للو».

على سبيل المثال، تقترح جملة حفظها لنا كتاب «شون تسي» أنه: «إذا أردت أن تراكم القوة في تربة الأراضي الزراعية، فعليك أن تضيف الروث إليها ثم تسقيها الماء»؛ أي أن الوسيلة المعتمدة في معالجة التربة كانت «إضافة المزيد من الروث لتخصيب الحقول». وإذا كان بإمكان الناس أيضاً أن يستفيدوا من الظروف المناخية بالكامل



الصورة 2-7 الحرث باستخدام الثور، قطعة طوب تحمل رسماً يعود إلى سلالة وي الشمالية

ليجروا عملية زراعة دقيقة في جميع تفاصيلها، فيمكنهم أن يحظوا «بحصادين في سنة واحدة»، أي أن الفلاح الماهر قادر على حصاد موسمَيْن من المحاصيل في السنة.

ظلت الأراضي الخصبة والتكيف مع الظروف المناخية «الأسلحةَ السحريةَ» التي توجِّه النشاطات الزراعية. وكما قيل في كتاب «هان في تسي»: «لأن الوقت السماوي ليس صحيحاً، فحتى عشرة رجال حكماء مثل الإمبراطور ياو لا يمكنهم أن يجعلوا سنبلة من القمح تنمو في فصل الشتاء». ما الذي يستطيع عشرة رجال وصلوا في الحكمة إلى مرتبة الإمبراطور أن يفعلوا؟ هل يمكنهم أن يجبروا الأرض على أن تنبت حتى سنبلة واحدة من القمح في الشتاء؟ بالطبع لا! يعكس هذا الفهم لأهمية تناغم الإنسان مع الطبيعة وفصولها الشمسية الفكرة القائلة «بجعل الزراعة الأساسَ الذي تقوم عليه الأمة». وقد وضّح كتاب «الفنون المهمة لرفاهية الناس» الذي ألّفه جيا سي شي في حقبة سلالة تشي الشمالية هذه الفكرة أكثر، إذ ورد فيه ما يلي: «إذا تتبعت مواقيت السماء وتكيّفت مع منافع الأرض، فعندها يمكنك أن تحصل على المزيد مقابل جهد أقل. أما إذا تبعت نواياك وأهواءك وتجاوزت حدود الطريق الكبرى فلن تحظى بأي شيء؛ رغم الجهد الكبير الذي تبذله».

لأجل كل ذلك، إن أهم مهمة في الإنتاج الزراعي هي الوصول إلى فهم كامل «لمواقيت السماء»، وهذا يأتي من خلال تعلّم ما يجب تعلّمه حول الفصول الشمسية.

(الصورة 2-7)



كان معظم الفلاحين الصينيين القدامى أميين، ولكنهم تناقلوا معارفهم بالفصول الشمسية من جيل إلى آخر شفوياً. وخلال تعاقب الأجيال، انطبع في ذاكرة الصينيين الجماعية ما سُمي «بأمثال الفلاحين». تعود هذه الأمثال إلى زمان بعيد، وهي واسعة الانتشار في الصين. قد لا يجد المثقفون أي جمال أدبي أو صنعة لغوية في صياغة تلك الأمثال، ولكنها بسيطة ويسهل التلفظ بها وفهمها وحفظها، والأهم من ذلك أنها تعكس نظريات واضحة وملخصة يمكن استخدامها مباشرة في توجيه الإنتاج الزراعي.

لقد استمرت الحضارة الزراعية في الصين لآلاف السنوات. وربما كان لأمثال الفلاحين إسهام لا غنى عنه في تشييد أركان هذه الحضارة وحفظها عبر الأجيال المتعاقبة؛ وخاصة أن جوهر هذه الأمثال إنما هو حول المعرفة بالفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ويقول أحد تلك الأمثال: «إذا لم يكن الإنسان يعرف أي شيء عن الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، فلا يمكنه أبداً أن يعتني بحديقة خضروات أو أن يزرع الحقول».

ويقول مثل صيني قديم آخر: «أفضل بداية لعمل السنة هي في الربيع»؛ فبعد الراحة في فصل الشتاء، يبدأ الفلاحون المجتهدون بالتحضير لعمل السنة بكاملها في بداية فصل الربيع، فيبدأون بتحضير المواشي المستخدمة في الزراعة. كما يقول أحد أمثال الفلاحين: «يبدأ الربيع عند بداية سادس تسعة باردة؛ فيقود الفلاحون الماشية التي يعتمدون عليها في الزراعة لحراثة الأرض في سابع وثامن التسعة الباردة».

وقبل نهاية فترة تاسع التسعة الباردة، يعتني الفلاحون بماشية الزراعة التي يمتلكونها ويجهزونها لعمل الزراعة. فبالنسبة إليهم، هذه الماشية هي القوة الإنتاجية الرئيسة، وإذا أرادوا أن يزرعوا حقولهم بعناية ودقة فعليهم أولاً وقبل كل شيء مع مجيء الربيع أن يطعموا مواشيهم التي تساعدهم في الزراعة حتى تصبح قوية وقادرة، وكذلك أن يشحذوا محاريثهم ويصلحوها. ومع أن أمطار الربيع لا تزال باردة، وفي بعض الأحيان قد تتساقط ثلوج في الربيع أو تلعب عوامل أخرى دورها، إلا أن أحداً لا يقدر في الحقيقة أن يضيع فرصة العمل في الوقت المناسب للزراعة. ولذلك ومنذ بداية الربيع تجد الرجال العاملين في الزراعة في الصين جاهزين للعمل في الأراضي الزراعية.

تشير بداية الربيع إلى أن الأرض قد استيقظت وأن كل شيء في الكون قد بدأ



الصورة 2-8 جزء من «حرث الربيع» من «صور للزراعة والنسيج»، يعود إلى عهد سلالة تشينغ

العمل الذي يحمل عنوان «صور للزراعة والنسيج» هو لفافة تعرض قصة عملية الإنتاج الزراعي التي تميزت بها الصين القديمة، مع إضافة أشعار إلى كل صورة لتوضيح ما فيها.

ينمو ويزهر، ويقول البعض إن جميع أنواع العشب تبرعم في يوم بداية الربيع، وخلال ستة أيام يتساقط مطر الربيع بهدوء ليرطب الحقول، فتظهر علامات الخصب والحياة على الحقول: «يتدحرج الرعد في السماء، ويبدأ كل شيء بالنمو على الأرض». فصل استيقاظ الحشرات هو اليوم الذي يبدأ فيه الحرث كما قيل في قصيدة نظمت في عهد سلالة تانغ: «جميع الزهور تبدو نقية تحت رذاذ المطر، وعند استيقاظ الحشرات يتدحرج الرعد، ولا يعود لدى الفلاحين الكثير من الوقت ليستسلموا للكسل. ومنذ هذا الوقت وصاعداً، يبدأون بالحرث والزراعة». يقول أحد أمثال الفلاحين: «بعد استيقاظ الحشرات، لا يستريح فلاح أثناء حرث الربيع أبداً»، ويقول مثل آخر: «تنتهي التسعة الباردة التاسعة حين تُزهر أشجار الحور، وعندها تنشغل يداك بجميع أعمال الزراعة».

يحتاج المزارعون إلى تقليب التربة في حقولهم في بادئ الأمر، فكل ما يستنبتونه سيخرج من التربة التي يقلبونها، وهم لا يملكون أي ثروة إلا هذه التربة، ووسائلهم السحرية هي الطرائق الدقيقة في كل تفاصيلها التي يستخدمونها في زراعتهم، والتي ورثوها من أسلافهم، «إذا لم تقلّب التربة في حقولك عند استيقاظ الحشرات، فسوف يكون الأمر وكأنك تركت البخار يهرب وأنت تخبز خبزاً على البخار». إن المقارنة المذكورة هنا جيدة بالفعل، لأن البخار إذا خرج فسوف يظل الخبز نصف نيء، وإذا لم تتم علمية تقليب التربة وحرث الأرض بشكل جيد ودقيق في الوقت المناسب فسوف تتبخر الرطوبة من التربة وستضيع المياه والسماد فيها، ولن تنمو المحاصيل جيداً، وسوف يكون الحصاد سيئاً. (الصورة 2-8)





الصورة 2-9 مشهد من مرحلة البذر، من «صور للزراعة والنسيج» من عهد سلالة تشينغ



الصورة 2-10 مشهد من مرحلة تشتيل الأرز، من «صور للزراعة والنسيج» من عهد سلالة تشينغ

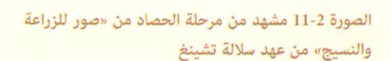
«تقريباً عند وقت السطوع المحض، ازرع القرع وابذر حبوب الفول». السطوع المحض هو فصل شمسي تبذر فيه الأرض. وفي جميع أرجاء الصين، من حوض نهر يانغتسه في الجنوب إلى السور العظيم في الشمال، ينشغل الناس بالعمل في الحقول. ينبغي استكمال تشتيل الأرز مبكراً في الموسم وفي الوقت المناسب، وكذلك ينبغي بذر القطن والذرة والسورغم في الوقت الصحيح. وبالإضافة إلى ذلك، إن «الحبوب في السنابل» فصل شمسي آخر ينشغل فيه الناس بالزراعة: «إذا لم تزرع في الحبوب في السنابل، فسوف تضيع وقتك في زراعة أي شيء آخر»، «الحبوب في السنابل، الحبوب في السنابل، أنت تزرع كل ما تستطيع زرعه».

العبارة الصينية التي تعني «الحبوب في السنابل» هي «مانغ تشونغ» وتكتب

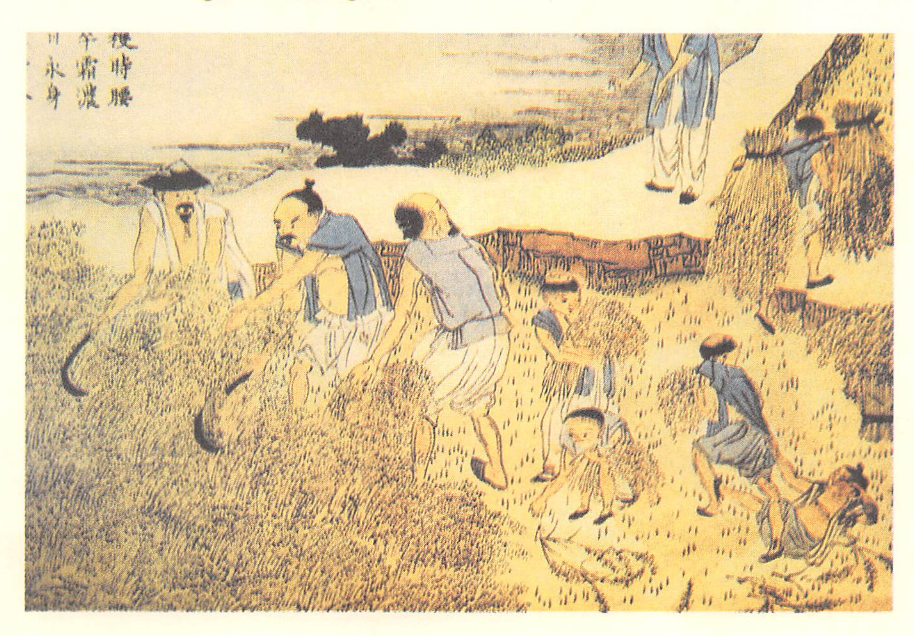
بالأحرف التالية: 芒种 والتي تعني «الزراعة بجد». حين يسمع الناس هذه العبارة يفهمون منها هذا المضمون فوراً. (الصورتان 2-9، 2-10)

عند الحر الأصغر والحر الأكبر ترتفع درجات الحرارة، وعندها يستطيع الفلاحون أن يحظوا ببعض الراحة تحت ظلال الأشجار الخضراء.

«تأتي رياح باردة عند بداية الخريف». لقد اقترب وقت الحصاد، ويشير فصل «حد الحر» إلى الفترة التي ينشغل فيها الناس بحصاد أرز منتصف الموسم. «يجلب الندى الأبيض جواً صافياً، وتبدو الحبوب المحصودة بيضاء كالفضة». بعد الاعتدال الخريفي يأتي وقت «أعمال الخريف الثلاثة»، أي الحصاد وتقليب التربة والزراعة مجدداً. مقابل كل حبة صغيرة بذرتها في الربيع، ستحصد عشرة آلاف حبة في الخريف، ومشقة العمل الجاد تترافق دائماً مع سعادة الحصاد؛ إذ إن العمل الشاق الذي يبذله الناس طوال السنة لم يكن هدفه إلا الحصول على موسم حصاد وفير. (الصور 2-11، 2-12، 2-13)



الصورة 2-11 مشهد من مرحلة الحصاد من «صور للزراعة والنسيج» من عهد سلالة تشينغ





الصورة 2-12 مشهد من مرحلة درس الحبوب من «صور للزراعة والنسيج» من عهد سلالة تشينغ



الصورة 2-13 مشهد من مرحلة حصاد الحبوب وجمعها في المخازن من «صور للزراعة والنسيج» من عهد سلالة تشينغ

تعود جذور الفصول الشمسية الأربعة والعشرين إلى المناطق المحيطة بوسط النهر الأصفر وأدناه، ومع مرور الحقبات التاريخية امتد مفهومها إلى مختلف أرجاء الصين. تصف أمثال الفلاحين المرتبطة مع الفصول الشمسية تباينات طفيفة في الظواهر المناخية والفينولوجية. فإذا ألقينا أولاً نظرة على أغنية شعبية تحتوي على عدد من الأمثال الرائجة في السهول الوسطى عند حوض النهر الأصفر نجد ما يلي:

عند بداية الربيع تعود طاقة تشي اليانغ

عند مياه المطر يذوب الثلج عند ضفتَي النهر

عند استيقاظ الحشرات تنعق الغربان بصوت عالٍ

عند الاعتدال الربيعي تجف تربة سطح الأرض

عند السطوع المحض يزرع الفلاحون المشغولون القمح

عند مطر الحبوب يحرث الفلاحون حقولهم الرئيسة ويبذرونها

عند بداية الصيف تصبح الرياح الشرقية القوية هامدة

عند امتلاء الحبوب تعود الطيور من هجرتها

عند الحبوب في السنابل يبدأ الفلاحون بجرف الحشائش

عند الانقلاب الصيفي لا يرتدي أي أحد القطن

عند الحر الأصغر ليس الجو حاراً حقاً

عند الحر الأكبر تأتي فترات الحرّ فو الثلاث

عند بداية الخريف يبدأ درس الأراضي

عند حد الحر يأخذ المزارعون المناجل للحصاد

عند الندى الأبيض يجفف التبغ على الرفوف

عند الاعتدال الخريفي لا شيء ينمو

عند الندى البارد لم يحل البرد الحقيقي بعد

عند نزول الصقيع يتغير الطقس حقاً

عند بداية الشتاء يحل الشهر العاشر



عند الثلج الأصغر تتجمد الأرض وتصبح قاسية

عند الثلج الأكبر تبدأ الأنهار بالتجمد

عند الانقلاب الشتوي لا يمكن للسفن أن تسير في الأنهار

عند البرد الأصغر يقترب الشهر الثاني عشر

عند البرد الأكبر تصل السنة إلى نهايتها

تصف هذه الأغنية الشعبية حول المناخ والعمل في المزارع خلال الفصول الشمسية الأربعة والعشرين بدقة حياة الفلاحين أثناء مواسم السنة، وتتضمن وصفاً للعمل الزراعي وسماته المناخية وتعليمات عامة حول كيفية القيام به.

وما يلي أغنية شعبية أخرى حول الموضوع ذاته، وتتضمن بدورها أمثالاً قالها الفلاحون من حوض نهر هوايخه، وتورِد السمات المناخية الإقليمية المميزة:

يوجد في كل شهر فصلان شمسيان

ويتبع كل فصل شمسي خمسة عشر يوماً

عند بداية الربيع يصبح الجو دافئاً

عند مياه المطر تصبح الأسمدة جاهزة

عند استيقاظ الحشرات عليك أن تقلّب التربة

عند الاعتدال الربيعي على المحراث أن يكون جاهزاً

عند السطوع المحض تزرع الأشجار

عند مطر الحبوب تبذر الحبوب في الحقول

عند بداية الصيف يبذر القرع والفول

عند امتلاء الحبوب يكون الوقت قد تأخر لزراعة القطن

عند الحبوب في السنابل يحصد القمح الجديد

عند الانقلاب الصيفي عليك أن تسرع بالحرث

عند الحر الأصغر ليس الجو حاراً حقاً

عند الحر الأكبر تأتي فترات الحرّ فو الحارقة

عند بداية الخريف يزرع الملفوف

عند حد الحر يقطف القطن

عند الندى الأبيض يقطف العناب

عند الاعتدال الخريفي يبذر القمح

عند الندى البارد تحصد جميع المحاصيل

عند نزول الصقيع تحرث الأرض مجدداً

عند بداية الشتاء يُجمَع الملفوف

عند الثلج الأصغر يوضع المحراث والفأس جانباً

عند الثلج الأكبر يصبح الجو بارداً حقاً

عند الانقلاب الشتوي يصبح النهار أطول

عند البرد الأصغر عليك أن تشتري الأشياء الجيدة بسرعة

عند البرد الأكبر تحتفل برأس السنة الجديدة

في الواقع، قد تكون الفروقات المناخية التي تعبِّر عنها أمثال الفلاحين من إقليم إلى آخر كبيرة بالفعل، فلكل إقليم ظروفه المناخية الخاصة به، وتُزرع فيه محاصيل تختلف عن تلك التي تُزرَع في الأقاليم الأخرى. تتضمن هذه الأشعار والأغاني والأمثال خلاصة تجارب الفلاحين التي خرجوا بها من سنين خبرة طويلة. فعبر جيل تلو الآخر، زرع الفلاحون الصينيون محاصيلهم وحصدوها بحسب إرشادات الأمثال التي تناقلوها شفوياً. ويقول أحد تلك الأمثال: «ليست للزراعة قوانين تتبعها إلا الفصول الشمسية»، ولا شك في أن هذه الفصول الشمسية كانت تحمل أهمية كبرى بالنسبة إلى مجتمع زراعي مثل الصين القديمة.

潤物的歌咏

الفصول الشمسية الصينية

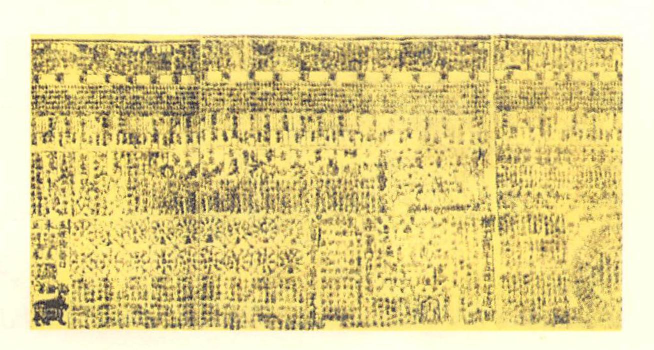
الفصل الثالث

الفصول الشمسية والتقويم: تحقيق التناغم بين الين واليانغ

التقاويم الزراعية الصينية

حين يتحدث الصينيون عن التقويم، فهم بطبيعة الحال يفكرون في تقويمهم القمري الصيني. ومع أن الصينيين اليوم يستخدمون التقويم الغريغوري الشمسي الذي أصبح التقويم المعتمد والمفضل عالمياً، إلا أن التقاويم المطبوعة في الصين كثيراً ما تحافظ على التقويم الصيني التقليدي القمري. وبالنسبة إلى الكثير من الصينيين، إن الفصول الشمسية الأربعة والعشرين هي نفسها التقويم القمري؛ لكن هذا في الواقع سوء فهم، لأن التقويم القمري سبق تقسيم السنة إلى فصول شمسية ووصول هذا التقسيم إلى كامل نضجه في عهد سلالة هان الغربية. لكن، بالرغم من ذلك، كانت التقاويم الصينية من أصلها مرتبطة بالفصول الشمسية. (الصورة 3-1)

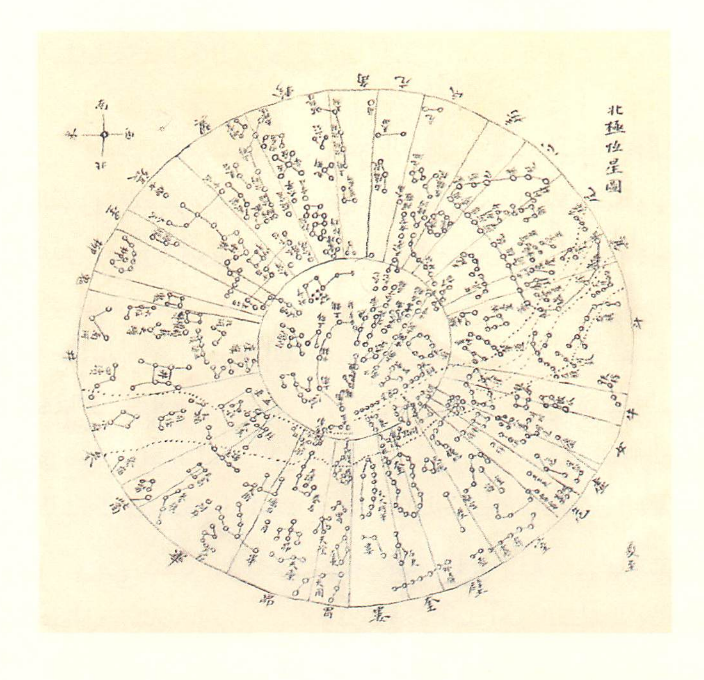
في كتاب «السجلات التاريخية» الذي ألفه سي ما تشيان، يوجد فصل تحت عنوان: «كتاب الأبراج السماوية»، وهو أحد أهم القطع الأدبية التاريخية التي تدرس علم الفلك في الصين قبل حقبة سلالة هان. وفي هذا الفصل يرد المقطع التالي: «يقابل إقليما وو وتشو نجمة يينغ هوه - أي كوكب المريخ - ويمكن رؤية طالعه في نياو هينغ أو برج شيو من ليو، وهو جزء من كوكبة الشجاع في علم الفلك الغربي». يقع إقليما وو وتشو في جنوب الصين، وكانا في الأزمنة القديمة جزءاً من مملكة الإمبراطور يان. أثناء حكم ذلك الإمبراطور، كان الناس في جنوب الصين قد حققوا بالفعل تطورات جديدة في صياغة التقاويم على أساس التقويم القديم البدائي القائم على رصد الظواهر الفينولوجية. وقد تعلم الناس في تلك المناطق كيفية رصد



الصورة 3-1 تقاويم من عهد سلالة تانغ صنعت في السنة الرابعة من حكم تشيانفو في زمن الإمبراطور شي تسونغ، أي حوالي سنة 877 ميلادية. جمعت هذه التقاويم في المتحف البريطاني في المملكة المتحدة

أول تقويم صيني مطبوع موجود حالياً.





الصورة 3-2 خريطة فلكية مرسومة باليد وتعود إلى زمن سلالة تشينغ

تظهر الخريطة نظام أبراج يوان الثلاثة، وكواكب شينغ الخمسة والعشرين، وأبراج شيو الثمانية والعشرين. تعني كلمة 夏至 في الزاوية اليمنى: الانقلاب الصيفي، وتشير إلى أن الخريطة تظهر صور النجوم أثناء وقت الانقلاب الصيفي.

النجوم ومراقبتها، واكتشفوا أن مواقع النجوم في السماء تختلف في كل فصل من فصول السنة. بعد ذلك، تم تطوير نظام فلكي، وهو أبراج يوان الثلاثة وكواكب شينغ الخمسة والعشرون وأبراج شيو الثمانية والعشرون. بعد ذلك، وقعت معركة عظيمة بين الإمبراطور يان - إمبراطور جنوب الصين - والإمبراطور الأصفر - إمبراطور شمال الصين - في برية «بان تشوان»، وقد خرج منها الإمبراطور الأصفر منتصراً. وقعت هذه الحرب أثناء بداية عهد الحضارة الزراعية في الصين، وقد غيرت نتائجها تاريخ الصين إلى الأبد. فمن بين الغنائم التي حاز عليها الإمبراطور الأصفر من غريمه الخاسر الإمبراطور يان كانت معرفة علم الفلك، والتقويم القائم عليه الذي طورته جنوب الصين. بعد ذلك، اكتمل تحديد التقويم الصيني القمري، واستمر استخدامه لآلاف السنوات. (الصورة 3-2)

الفصول الأربعة والعشرون في جوهرها أسلوب في التقويم. وكما ذكرنا من قبل، كان الشعب الصيني القديم أول من ميّز هذه التغيرات في الفصول، قبل أن يتعرف على أنماط فصول السنة الأربعة والفصول الشمسية الثمانية، ثم نضجت هذه

المفاهيم بعد ذلك وتحوّلت إلى فصول السنة الأربعة والعشرين. إذا اعتبرنا أن كل خمسة عشر يوماً دورة أحد هذه الفصول الشمسية، فلدينا فصل شمسي في أول كل شهر، ثم آخر في منتصفه، حيث يبلغ مجموع الفصلين معاً ثلاثين يوماً. وفي السنة اثنا عشر شهراً، ما يعني أن لدينا 360 يوماً فيها. لا يوجد إلا فرق خمسة أيام بين السنة كما يعرفها هذا التقويم والسنة المدارية، ولكن ما سبب عدم استخدام الصينيين القدامى «تقويماً شمسياً» كالذي نستخدمه اليوم؟

السبب بالدرجة الأولى هو أن الصينيين اعتبروا أطوار القمر في غاية الأهمية. فقد كانت تمثل انتقالاً مهماً للغاية؛ فقد كانوا يرون القمر في بداية ولادته وهو هلال يشبه القوس، وذلك قبل أن يكبر ويكبر شيئاً فشئياً ويصبح أكثر عرضاً ليتحول شكله لاحقاً إلى دائرة بيضاء مشعة ومعلقة في وسط السماء حين يصبح بدراً، ولا شك في أن هذا كان يثير مشاعرهم. بعد ذلك، يبدأ القمر بالتضاؤل إلى أن يختفي تماماً في آخر الأمر؛ وسميت هذه العملية برمتها: «الشهر».

يولد القمر الهلال ثم يتحول إلى نصف دائرة «فهو منحنٍ من ناحية ومستقيم من ناحية أخرى، فيبدو وكأنه قوس قد شد وتره إلى حده الأقصى»، ولذلك سمى الصينيون القدامى هذه المرحلة: «شيان»، وتعني حرفياً: «القمر المشدود كالقوس». حين ينمو القمر إلى مرحلة الدائرة الكاملة أو البدر فهو يسمى «وانغ»، ثم يتضاءل ليرجع إلى شكل نصف الدائرة ويسمى عندها: «شيان» مجدداً. لكن مرحلة «شيان» قبل اكتمال البدر تسمى: «شيان الأعلى»، أما تلك التي تأتي بعد اكتماله فتسمى: «شيان الأسفل». بعد ذلك، يتضاءل القمر أكثر فأكثر حتى يصبح هلالاً مجدداً قبل أن يختفي تماماً وتصبح الليالي مظلمة للغاية؛ وهو ما يسمّى: «هوي». وبعد بضعة أيام يظهر هلال جديد ويسمى: «شوه».

يسمّى الشهر الذي تعرفه الدورة التي وصفناها «بنظام شوه وانغ القمري»، وقد كتب الشاعر الصيني المشهور سو دونغ بو بيتاً في قصيدة مشهورة في الصين حول هذا النظام قال فيه: «لدى الناس لحظات للحزن والفرح والوداع. وللقمر مراحل حين يكتمل ويتضاءل ويخفت ويتضح». إن مراحل القمر المختلفة ظواهر فلكية تسهل ملاحظتها بالنسبة إلى الناس، ولذلك تصبح من الأنماط المهمة التي تدفع الناس للتفكير فيها وفي مغزاها. (الصورة 3-3)



الصورة 3-3 رسم بياني حول تغير مراحل القمر

في الواقع، إذا كان الإنتاج الزراعي هو الاعتبار الوحيد الذي يؤخذ في عين الحسبان في التقويم، فلا شك في أن تقويماً شمسياً يتألف من 365 يوماً ويتأسس فقط على حركة الشمس الظاهرة والفصول الشمسية الأربعة والعشرين كإطار له أفضل بكثير في عكس التغيرات المناخية وتقلب الفصول. لكن الناس في الغرب لم يطوروا الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، بل صاغوا تقاويمهم الشمسية على أساس حركة الشمس الظاهرة فقط؛ وهو ما تطور لاحقاً إلى التقويم الغريغوري الذي أصبح التقويم الرسمي في معظم بلدان العالم اليوم. (الصورة 3-4)



الصورة 3-4 البابا غريغوريوس الثالث عشر

في عام *1582*، أصلح البابا غريغوريوس الثالث عشر التقويم على أساس التقويم الجوليوسي، وكانت تلك بداية التقويم الغريغوري المستخدم عموماً اليوم.

تطورت التقاويم الصينية القديمة بطريقة متميزة؛ فقد جمعت عناصر من كلٍّ من التقويم القمري والتقويم الشمسي؛ أي أن كلاً من الفصول الشمسية التي يُشكّل مجموعها تقويماً شمسياً، ومراحل القمر التي تشكل دورتها التقويم القمري يدخل في التقويم الصيني، والتقويمان يمتزجان معاً في تقويم مختلط. يدعى هذا التقويم الذي يمزج بين التقويم الشمسي والتقويم القمري: نونغ لي، أي: التقويم الزراعي باللغة الصينية، ويبلغ مجموع أيام السنة في هذا التقويم عدد الأيام التي تستغرقها الأرض كي تدور دورة كاملة حول الشمس، أي 365 يوماً، وهو الوقت ذاته الذي تستغرقه السنة المدارية. وكان يطلق على هذه الفترة الزمنية: سوي شي، أي مقدار السنة في علم الفلك الصيني القديم. تطابق أيام الشهر دورة مراحل القمر، فتنقسم الأشهر إلى أشهر كبرى عدد أيامها ثلاثون يوماً، وأشهر صغرى عدد أيامها تسعة وعشرون يوماً، فتتناسق دورتان من الدورات القمرية حيث تجمع بين التقويمين: الشمسي والقمري.

لكن ثمة مشكلة لا يمكن حلها في هذا التقويم الجامع، إذ لا يمكن للدورة الشمسية والدورة القمرية أن تبدأا في الوقت ذاته أبداً. فكما نعلم اليوم، إن الفترة التي يحتاج إليها القمر ليكمل دورة حول الأرض هي 27.32166 يوماً، أما الفترة التي تحتاج إليها الأرض لتكمل دورة حول الشمس فهي 365.242216 يوماً؛ ولا يشكل هذان الرقمان أي علاقة رياضية قابلة للقسمة التامة على بعضهما بعضاً. ولذلك، إن

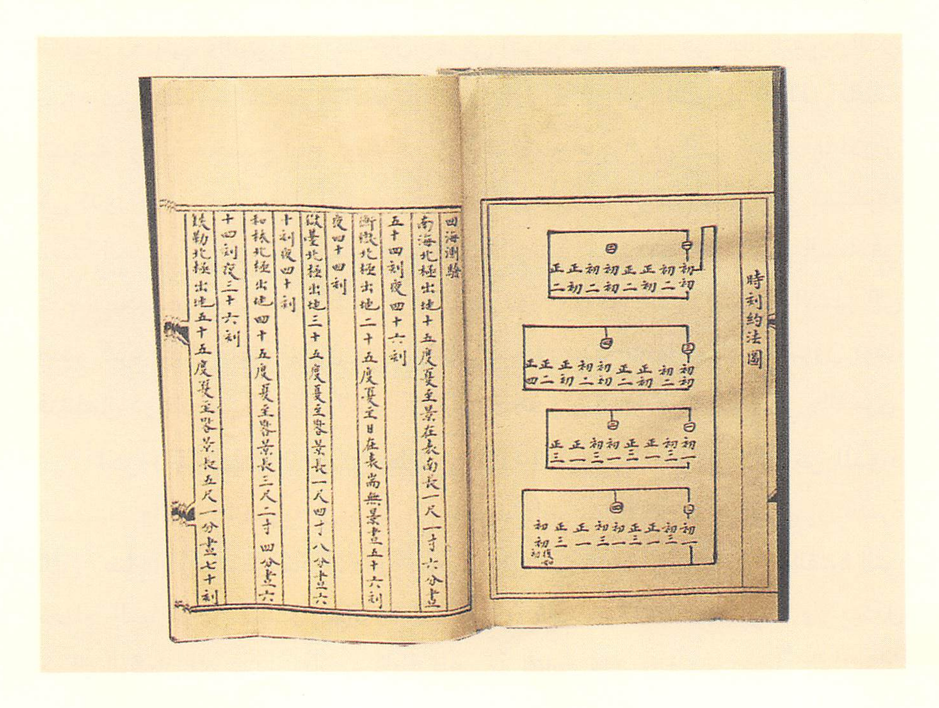


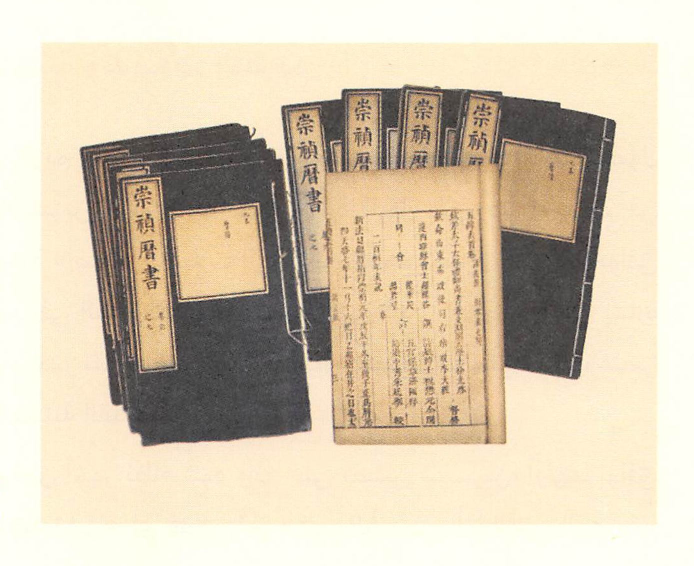
أي محاولة للمطابقة بين الأشهر الاثني عشر والفصول الشمسية الأربعة والعشرين في تقويم يجمع بين خصائص التقويم الشمسي وخصائص التقويم القمري ستتعثر نتيجة مشاكل عدم تمام القسمة.

لهذا السبب، اعتمد الصينيون القدامى نظام «الشهر الكبيس» لتصحيح قضية عدم تمام نتيجة القسمة تلك. لكن عملية تحديد الشهر الكبيس كانت معقدة للغاية، ورغم وجود «شهر كبيس» في «سنة كبيسة» لهذا التصحيح، إلا أن عدم المطابقة بين تواريخ التقويم والفصول الشمسية ظلت موجودة من وقت إلى آخر. وإذا استخدم التقويم لفترة طويلة جداً فسوف يبتعد الفصل الشمسي أكثر فأكثر من الميعاد الذي يفترض حلوله فيه. ولهذا السبب، نجد أن الفصول الشمسية تظهر في تواريخ مختلفة

الصورة 3-5 تقليد لتقويم شو شي لي من عهد سلالة يوان في متحف العاصمة (تصوير كونغ لان بينغ)

أشرف قوه شو جينغ (*1231-1316*) على مراجعة تقويم شو شي لي. وكانت طريقة الحساب المستخدمة فيه سهلة ودقيقة للغاية. هذا التقويم أقدم بثلاثمئة سنة من التقويم الرسمي المستخدم حالياً.





الصورة 3-6 صورة فوتوغرافية لتقويم تشونغتشن

وفي أشهر مختلفة في التقاويم الزراعية التي تم تطويرها في الصين القديمة؛ كما هو الحال في عيد الربيع الذي يظهر في تواريخ مختلفة في التقويم الغريغوري. ولهذا السبب أيضاً، كان من الضروري أن يراجع التقويم الرسمي باستمرار في الصين القديمة. على سبيل المثال، كان التقويم المستخدم في عهد سلالة هان الغربية يدعى: تقويم سي فن لي، وفي عهد سلالة تانغ صار يدعى: تقويم دا يان لي، ثم تمت صياغة تقويم شو شي لي في حقبة سلالة يوان. وفي آخر عهد سلالة مينغ، راجع شو قوانغ تشي مع الإرساليات الغربية تقويم تشونغتشن، حيث أدرج علم الفلك الغربي في نظام التأريخ الصيني ضمن هذا التقويم، ولذلك السبب صار من الضروري أن يراجع التقويم باستمرار، وصار من الضروري أن تحسب الأشهر والسنوات الكبيسة بشكل متكرر، وأصبحت عملية مراجعة التقويم معقدة أكثر. (الصورتان 3-5، 3-6)



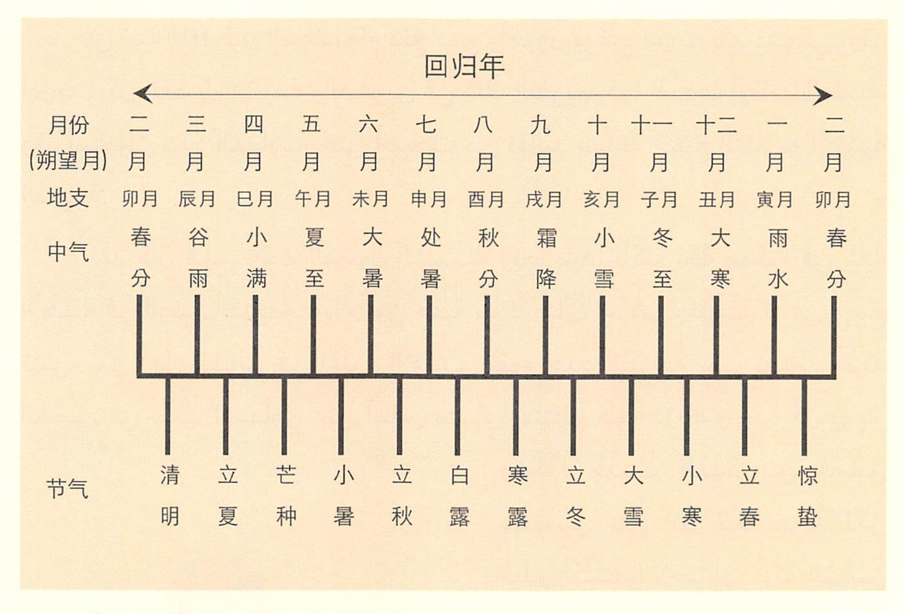
الفصول الشمسية وتذييلات التقويم

إذا فتحت أي تقويم صيني مكتوب بالصيغة التقليدية فسوف تجد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين فيه، حيث تتم الإشارة إليها على أنها تذييلات في التقويم. وما تعنيه عبارة «إضافة التذييلات إلى التقويم» هو تحديد التاريخ الموافق لفصل شمسي محدد. وفي الصين القديمة، كان التقويم الذي لا يحتوي على إشارة إلى الفصول الشمسية يعتبر تقويماً ناقصاً، ما يثبت أن الفصول الشمسية كانت عنصراً أساسياً في التقاويم الصينية القديمة.

يحتوي كل شهر من أشهر نظام شوه وانغ على فصلين شمسيين، أولهما يوافق أول الشهر ويدعى «جيه تشي»، أي فصل رأس الشهر الشمسي. أما الثاني الذي يقع في منتصف الشهر فيدعى: «تشونغ تشي»، أي فصل منتصف الشهر الشمسي. على سبيل المثال، يظهر فصل «بداية الصيف» في أول الشهر الرابع من التقويم القمري الصيني، ويدعى: «سي يويه جيه»، أي «الفصل الشمسي الواقع في رأس الشهر الرابع»، أما فصل «امتلاء الحبوب» فيقع في منتصف الشهر الرابع ويدعى: «سي يويه تشونغ». في وقت لاحق، ومع مرور الزمن، بسّط الناس تسمية هذه الفصول من «جيه تشي» و«تشونغ تشي» إلى مجرد جيه وتشي. إذاً، حين نجد مصطلح «جيه تشي» في اللغة الصينية- أي الفصول الشمسية- فإنه في الواقع جمع لمفهومَي جيه (فصول أول الشهر) وتشي (فصول منتصف الشهر)؛ حيث لدينا اثنا عشر فصل جيه شمسياً، واثنا عشر فصل تشي شمسياً، وكل شهر يحتوي على فصل جيه واحد وفصل تشي واحد. وكما أسلفنا، إن «بداية الصيف» هو فصل جيه الشمسي للشهر الرابع، أما «امتلاء الحبوب» فهو فصل تشي الشمسي للشهر الرابع. وكذلك إن «الحبوب في السنابل» هو فصل جيه الشمسي للشهر الخامس، و«الانقلاب الصيفي» هو فصل تشي الشمسي للشهر الخامس. و«الحر الأصغر» أيضاً هو فصل جيه الشمسي للشهر السادس، فيما «الحر الأكبر» هو فصل تشي الشمسي للشهر السادس، وهكذا دواليك.

(الصورة 3-7)

من بين كل أربعة وثلاثين شهراً تقريباً، تحتوي التقاويم التي صيغت في الصين القديمة على شهرين شاذين عن هذه القاعدة. فهما إما يحتويان على فصل جيه واحد



الصورة 3-7 رسم بياني عن الفصول الشمسية الموافقة لبداية الأشهر، والفصول الشمسية الموافقة لمنتصفها

ولكن بدون فصل تشي، وإما يحتويان على فصل تشي واحد بدون فصل جيه. وهذان الشهران هما الشهران الكبيسان في التقاويم القمرية الصينية. فعلى سبيل المثال، في سنة «يي تشو» في التقويم الصيني القمري لا يوجد إلا «الحر الأصغر» كفصل جيه الشمسي للشهر الخامس من السنة، بينما ليس لدينا «الحر الأكبر» كفصل شمسي في ذلك الشهر، ولذلك هو شهر كبيس. إن إضافة السنة الكبيسة هي عملية التعديل اللازمة كي يتفق التقويم مع دورات القمر. وفي وقت لاحق، اكتشف الناس أنه بإمكانهم وضع سبعة أشهر كبيسة خلال تسع عشرة سنة حيث تطابق أشهر التقويم، وكذلك حيث لا يختلف موعد الفصول الشمسية ضمن الأشهر القمرية كثيراً من عام إلى آخر.

كانت أهم البيانات اللازمة لصياغة التقويم الصيني القديم هي: تحديد وقت الانقلاب الشتوي أولاً، وتحديد «سوي شي» ثانياً، أو مقدار طول السنة المدارية، وبعد ذلك ينبغي وضع فصلين شمسيين في شهر واحد بحسب نظام «شوه وانغ» الذي أسلفنا ذكره، حيث يكون أول الفصلين على رأس الشهر وثانيهما في منتصفه.



في سنة 104 قبل الميلاد، قام دنغ بينغ وآخرون بوضع تقويم تاي تشو لي. وقد أدرجت كل الفصول الأربعة والعشرين في ذلك التقويم، كما حُدِّدت أوقاتها الفلكية، وقد استمرت هذه الممارسة حتى أصبحت من تقاليد صياغة جميع التقاويم الصينية القديمة.

لقد كان قياس وقت الفصول الشمسية وتحديدها بأكثر دقة ممكنة في غاية الأهمية في الصين القديمة. وبدءاً من حقبة سلالة هان، اعتُمِدَت طريقة تدعى «بينغ تشي» من أجل القياس في أغلب الأوقات. تقوم هذه الطريقة على تحديد حركة الشمس في فلكها السماوي على أساس متساوٍ ومنتظم هو «درجة واحدة كل يوم». وهكذا حُدِّدت المدة بين فصلين شمسيين على أنها 15.2 يوماً. لكن الناس اكتشفوا لاحقاً أن حركة الشمس الظاهرة ليست منتظمة حتى في السنة الواحدة، فحركتها أبطأ بعد الاعتدال الربيعي وأسرع بعد الاعتدال الخريفي. وقد حلت الحسابات الرياضية هذه المشكلة؛ حيث جعلت الأوقات التي تفصل بين الفصول الشمسية أقصر في الفترة القريبة من الانقلاب الشتوي، وأطول في الفترة القريبة من الانقلاب الصيفي. تُسمّى



الصورة 3-8 سنغ يي شينغ (683-727) وكان اسمه الحقيقي: تشانغ سوي؛ وهو عالم فلك من تشانغله في ويتشو (مقاطعة نانله في خهنان اليوم). تظهر هذه الصورة تمثالاً له في معبد هوايان في بايتشنغ، جيلين

كان سنغ يي شينغ عالم فلك بارزاً في حقبة سلالة تانغ، وكان أول شخص في العالم تمكن من قياس طول درجة واحدة بين خطوط الطول من خط صفري، وهو من وضع تقويم دا يان لي.

هذه الطريقة دينغ تشي، وبالطبع لا يمكننا رؤيتها في التقويم بشكله النهائي؛ لأنها تستخدم في الحساب فقط. وقد أدى تطور طريقة بينغ تشي إلى دينغ تشي إلى زيادة الدقة في حساب الفصول الشمسية. ولا شك في أنها كانت قفزة نوعية إلى الأمام في تاريخ وضع التقاويم الصينية. وكان تقويم دا يان لي الذي وضعه سنغ يي شينغ - عالم فلك من حقبة سلالة تانغ - أول تقويم يستخدم هذه الطريقة. (الصورة 3-8)

حُدِّدت الفصول الشمسية الأربعة والعشرون على أربعة وعشرين قوساً متساوية على دائرة مسار الشمس في السماء، وليس على أساس أربع وعشرين فترة زمنية متساوية ضمن السنة. ولهذا، إن الفترات التي تفصل بين الفصول الشمسية في السنة ليست متساوية تمام المساواة. فإذا قسنا هذه الفترات من حيث الأيام فبعضها يبلغ تقريباً خمسة عشر يوماً، وبعضها الآخر ستة عشر يوماً. ولهذا السبب، صار من المهم للغاية أثناء تصميم التقاويم في الصين القديمة أن تقسم الأشهر في السنة بدقة، حيث تحتوي على أربعة وعشرين فصلاً شمسياً، وأن تُنَظَّم ضمن أنماط بسيطة يسهل تذكرها.

وكما أن فصول السنة الأربعة والفصول الشمسية الثمانية كانت الإطار الأساسي للفصول الشمسية الأربعة والعشرين، فقد كانت أيضاً الإطار الأساسي للتقاويم الصينية. ولم تكن الفصول الستة عشر المتبقية إلا فروعاً لذلك الإطار الأساسي، فأصبح استخدام الفصول الشمسية جسراً يربط بين تعريف الفصول على أساس فلكي وتعريفها على أساس مناخي.

وإذا عدنا إلى زماننا الحاضر، وفتحنا اليوم أي تقويم تملكه عائلة صينية، فسنجد الفصول الشمسية الأربعة والعشرين مطبوعة تحت تواريخ حدوثها «كتذييلات» لهذه التواريخ. في التقاويم الصينية القمرية تتبع الأشهر نظام شوه وانغ، أما الفصول الشمسية الأربعة والعشرون فتمثل دورة شمسية كاملة، وهي بهذا تشكل أساساً لتقويم شمسي بسيط، فتحدد عدد الأيام وطول السنة على أساسها. بعد ذلك، تضاف الدورات القمرية كأشهر إلى التقويم، وتجتمع الأيام مع الأشهر القمرية والسنة الشمسية معاً لتكوِّن التقويم الصيني التقليدي. فحين نصل إلى فهم معاني الفصول الشمسية من الناحية الفلكية سوف نكتشف مدى أهميتها في تشكيل التقويم الصيني التقليدي.



ثورة في التقاويم

كان شن كوه من أكبر علماء الصين خلال حقبة سلالة سونغ الشمالية. وفي عام 1072، تقلد منصب «سي تيان جيان تي جو»؛ أي رئيس المرصد الفلكي الإمبراطوري. كان كوه يختلف كثيراً عن أصحاب مناصب الدولة في زمنه، فقد كان مهتماً بالعلوم الطبيعية لدرجة الهوس، ويعتبر كتابه «مقالات بِرك الأحلام» الذي كتبه بعد تقدمه بالسن من أفضل أعماله، وهو بحق موسوعة تصف ما توصلت إليه الصين القديمة في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية؛ فقد وصف هذا الكتاب البوصلة، وهي كما أسلفنا من «اختراعات الصين الأربعة الكبرى». يكفينا في مدح هذا العالم الصيني ما وصفه به مؤرخ العلوم البريطاني المشهور جوزيف نيدهام، إذ قال عنه إنه «واحد من أعظم العقول العلمية في التاريخ الصيني».

بعد أن تقلّد عالمنا منصبه كرئيس للمرصد الإمبراطوري، بدأ بإدخال إصلاحات جريئة على التقاويم، ووضع على أساسها تقاويم جديدة بناء على تفويض إمبراطور سلالة سونغ الذي عيّنه في منصبه. (الصورة 3-9)

وكعالم كبير متبحر في مختلف العلوم، كان شن كوه ضليعاً في ما يتعلق



الصورة 3-9 شن كوه (1031-1095) والملقب: تسون تشونغ. ولد في تشيانتانغ في هانغتشو (والتي تدعى اليوم: هانغتشو، تشه جيانغ)

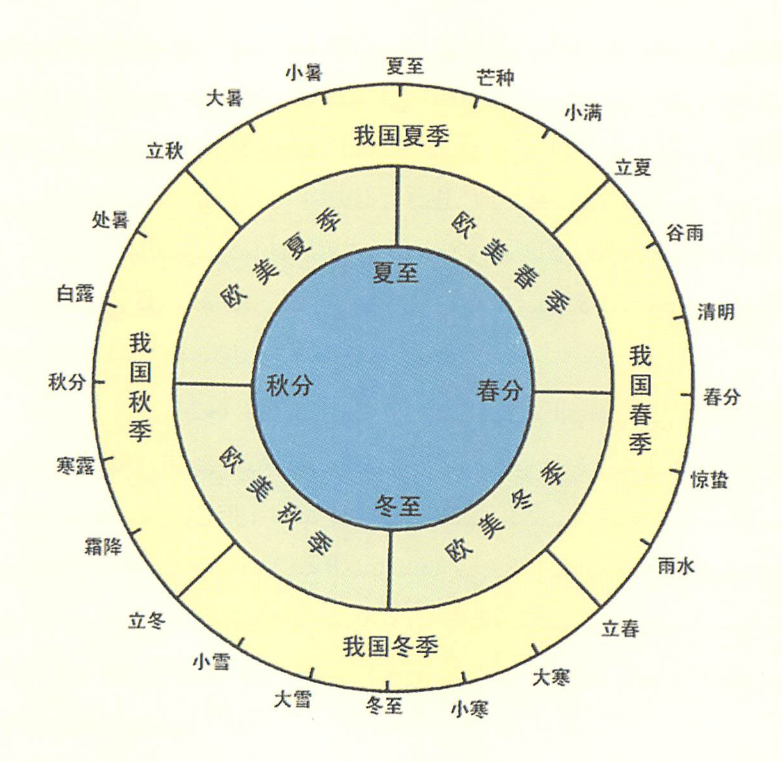
كان كوه أحد أكبر علماء حقبة سلالة سونغ، وقد حقق إنجازات كبيرة في مجالات علم الفلك والتأريخ المحلي والأمزجة والتقاويم والطب والتنجيم. أُرسل كوه إلى تشيدان كمبعوث، فحوّل المناظر الطبيعية التي مر عبرها إلى نماذج خشبية ثلاثية الأبعاد. وقد أعطى تفسيراته الخاصة للانحراف المغناطيسي، والمرايا المقعرة، ورنين الأصوات. وكان كتابه «مقالات برك الأحلام» أول كتاب يستخدم مصطلح 石油 الصيني، والذي يعني «النفط» في الكيمياء. وللملاحظة، إن كتابه المذكور يعتبر بمثابة تحفته الفنية، ولا يزال يستخدم حتى يومنا هذا.

بالفصول الشمسية، وبدأ بمراجعة التقويم ليضع تقويماً جديداً بناء على تفويضه الإمبراطوري، فأجرى دراسات متعمقة في التقاويم المستخدمة حتى توصّل إلى المشاكل الموجودة فيها؛ إذ يجمع التقويم الصيني بين التقويم الشمسي والتقويم القمري، وكونه كذلك يؤدي إلى اختلافات تتطلب تنسيق عدم التطابق الزمني بين دورات الشمس والقمر. وكما أسلفنا، إن حل هذه المشاكل كان يتطلب دائماً وضع أشهر كبيسة في كل سنة. لكن هذا الأمر كان يواجه مشكلة دائماً، وهي وضع الأشهر الكبيسة هذه بشكل معقول ومبسط قدر الإمكان.

كان شن كوه واضحاً جداً في قوله إن مشكلة عدم التوافق بين السنة والأشهر سببها عدم التطابق الزمني بين السنة المدارية (أو سوي شي) ومجموع دورات القمر فيها (أي يويه جيان)، وقال: «لقد أصبحت الأشهر الكبيسة ضرورة لا مناص منها، وصارت كالأوتاد الحجرية والخشبية المستخدمة في بناء المنزل. لكن الحقيقة هي أن الأشهر الكبيسة جعلت الفصول الشمسية غير مطابقة للأشهر، فأصبحت السنوات غير منتظمة، ولم تعد الفصول في مكانها الصحيح. كما أن التقاويم كثيراً ما تحتوي على حسابات معقدة ولكنها تافهة».

كان الحل الأفضل الواضح والبديهي الذي خرج به كوه هو استبدال الأشهر الشمسية بالأشهر القمرية، مع استخدام الفصول الشمسية الأربعة والعشرين كأساس لحساب الأشهر. لقد كان كوه ينوي أن يُحدث أكبر ثورة في تاريخ علم الفلك الصيني، حيث كان ينوي وضع تقويم تكون الفصول الشمسية أساسه. ولكنه للأسف واجه مقاومة شرسة من مسؤولي الدولة المحافظين؛ في المرصد الذي كان رئيساً عليه، وفي البلاط الإمبراطوري نفسه على حدّ سواء. وسبب هذه المقاومة هو أن الفلك والتقويم في الصين القديمة كانا مرتبطين أشد الارتباط مع التنجيم، وكانا يعتبران من شؤون الدولة التي تحمل أهمية كبرى. فمنذ عهد «الربيع والخريف» والممالك المتحاربة، ظلت «التعليمات الشهرية» تستخدم في حكم البلاد. وما عنته تلك التعليمات هو أن أشياء معينة يجب أن تُفعَل في أيام محددة من أشهر محددة، ويجب ألا تفعل في أي وقت آخر. وقد وجدت هذه المعتقدات طريقها إلى نظام الأسلاف القديم وتجذرت فيه، فلم يكن من السهل تغييرها من دون تفكير عميق وتداول دؤوب، فكان للتقاليد من القوة ما أجبر شن كوه على التخلي عن فكرته الثورية حول التقويم بعد العوائق





الصورة 3-10 رسم بياني للفصول الشمسية الأربعة والعشرين وفصول السنة الأربعة

والعقبات الكؤود التي منعت وضعها حيز التطبيق.

لكن كوه وبعد أن تقدم به العمر كتب «ملحق على مقالات حلم البرك»، وسجَّل فيه تقويم الاثني عشر تشي لي، وهو تقويم ثوري فريد من نوعه قام على فكرة عبقرية؛ فالاثنا عشر تشي في التقويم تشير إلى فصول جيه الشمسية الاثني عشر من بين مجموعة الأربعة والعشرين. (الصورة 3-10)

ليس من الصعب فهم فكرة كوه، ففصول جيه الشمسية الاثنا عشر تؤخذ كأوائل الأشهر الاثني عشر في السنة، بينما يظهر اثنا عشر فصل تشي بعد ذلك بخمسة عشر أو ستة عشر يوماً. وبهذه الطريقة، يمكن للفصول الشمسية الأربعة والعشرين أن تتوزع بشكل متساوٍ على بداية كل شهر ومنتصفه فتنتظم دورة السنة ببساطة في اثني عشر شهراً؛ يكون بعضها أشهراً «صغرى» يتألف الواحد منها من ثلاثين يوماً، وبعضها الآخر أشهراً «كبرى» يتألف الواحد منها من واحد وثلاثين يوماً، ويبلغ مجموع

أيامها معاً 365 يوماً؛ أي ما يعادل عدد أيام السنة المدارية التي تدور فيها الأرض حول الشمس مرة واحدة، وهو ما أسماه الصينيون القدامى: «سوي شي»، أي: طول السنة الحقيقي.

يتطابق هذا التقويم البسيط مع الظواهر الفلكية، ولا شك في أنه كان ثورة في وضع التقاويم؛ لأن الفصول الشمسية الأربعة والعشرين جميعها متماثلة فيه، كما يسهل على أي شخص فهمه، حتى لو كان فلاحاً أمياً. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذا التقويم، فسنجده إلى حد كبير شبيهاً بالتقويم الغريغوري الذي يستخدمه الناس اليوم. فكما قلنا من قبل، تتحدد الفصول الشمسية الأربعة والعشرون على أساس حركة الشمس الظاهرة، ولهذا فالتقويم الذي يرتكز على فصول جيه الشمسية الاثني عشر بشكل كامل هو من دون ريب تقويم شمسي محض.

لقد كانت فكرة شن كوه تقضي بوضع أسس تقويمية بسيطة وعملية يمكن استخدامها في إنشاء تقاويم تتبع أنماطاً منتظمة للغاية، وكذلك كانت تطبيقاً عملياً لمفهوم الفصول الشمسية الأربعة والعشرين؛ لأن هذه الفصول كما قلنا من قبل تشكّل في مجموعها تقويماً زراعياً بسيطاً.

يمكننا أن نرد فكرة شن كوه إلى وي بو، وهو عالم فلك شعبي ضرير أوصى شن كوه بتعيينه في المرصد الإمبراطوري. كان وي بو رجلاً عظيم الموهبة أيضاً، وكان قادراً على سرد تقويم شعبي يدعى: تقويم بانغ تونغ لي، وقد وصف شن كوه في «مقالات أحلام البرك» تقويم وي بو الخارق بالقول: «يمكنك أن تقرأ تقويم بانغ تونغ لي أفقياً وعمودياً. طلب وي بو من الآخرين أن يكتبوا التقويم وبعد ذلك أن يقرأوه له، فكان ثمة خطأ في التقويم. وحين قرأه له ذلك الشخص قال وي بو له: يوجد حرف لم يكتب جيداً هنا. لقد كان ذلك التقويم دقيقاً جداً».

في الواقع، كان تقويم بانغ تونغ لي تقويماً شعبياً انتشر بين المؤمنين بالديانتين البوذية والطاوية. وقد استخدمت فيه أبراج شيو الصينية الثمانية والعشرين لكتابة تذييلات التقويم. ولأن التقويم منتظم في ترتيبه، كان من الممكن وضعه في جدول بالتقويم، ويمكن حفظه أفقياً وعمودياً، ولهذا كان عالم الفلك الضرير وي بو قادراً على حساب تواريخ التقويم بدقة. (الصورة 3-11)



الصورة 3-11 «مقالات أحلام البرك» كتاب ألّفه شن كوه بين سنتي 1086-1093. هذه صورة لكتاب طُبع بألواح الخشب في برج جيقوقه خلال حقبة سلالة مينغ. وهذا الكتاب موجود اليوم في متحف الصين الوطني (تصوير كونغ لان بينغ)

يتألف كتاب «مقالات أحلام البرك» من ثلاثين مجلداً تنقسم إلى *17* فئة، و*609* مداخل تشتمل على أكثر من عشرة آلاف حرف صيني. تغطي مواضيع الكتاب جميع مجالات العلوم الطبيعية القديمة.

في نهاية المطاف، راجع كل من شن كوه ووي بو تقاويمهما وصاغا ما سمّي بتقويم فنغ يوان لي، وقد استخدم لفترة قصيرة جداً من الزمن. وقد ألّف شن كوه مقدمة لذلك التقويم، ولكن للأسف لم يحفظ لنا التاريخ ذلك التقويم، لذا لا يمكننا أن نعرف الإصلاحات التي أدخلها شن كوه عليه. ولكن بناء على الملاحظات التي كتبها كوه بعد تقدمه بالسن، يمكننا أن نعرف فقط مبادئ تقويم الاثني عشر تشي لي.

قدّم لنا شن كوه مثالاً يساعدنا على فهم مبادئ تقويم الاثني عشر تشي لي، فقد أخذ السنة الأولى من حكم يوان يو كمثال. ينقسم الربيع إلى ثلاثة أشهر هي

شهر الربيع الأول والثاني والثالث، وتنتظم الأشهر الكبرى التي تحتوي على واحد وثلاثين يوماً والصغرى التي تحتوي على ثلاثين يوماً بشكل تبادلي، ويحتوي كل شهر على فصلين شمسيين.

وهكذا، أصبح لدينا تقويم جديد يحتوي على اثني عشر شهراً وأربعة وعشرين فصلاً شمسياً و365 يوماً، أما مراحل القمر فتكتب في التقويم كتذييلات. إن تقويماً كهذا يطابق حقاً الظواهر الفلكية، كما يمكن استخدامه لتوجيه مواقيت الزراعة. باختصار، لقد كان هذا تقويماً شمسياً بحق؛ إذ كان يحتوي على أربعة وعشرين فصلاً شمسياً تشكل أساس وضعه وبنيته، ومن المؤسف حقاً أنه لم يتم استخدامه عملياً في الصين. قال شن كوه في آخر كتابه: «في الوقت الحاضر، يهاجم الناس هذا التقويم، ويجادلون ضده بل ويسبونه نتيجة غرابته. ولكن المستقبل سيأتي بناس سيقدرون نظريتي هذه ويستخدمونها».

وقد تحققت تكهناته بالفعل، فقد استخدمت مملكة تايبينغ السماوية المعارضة التي قامت في أواخر عهد سلالة تشينغ «التقويم السماوي»، والذي تقوم مبادئه على المبادئ ذاتها التي قام عليها تقويم الاثني عشر تشي لي. وكذلك في ثلاثينيات القرن الماضي، نشر مكتب الأرصاد الجوية البريطانية تقويم نابيير شو الذي استُخدم للإحصائيات المناخية الزراعية، وقد كان هذا التقويم شمسياً محضاً، ثبتت فيه الفصول الشمسية نسبياً، ويماثل في جوهره تقويم الاثني عشر تشي لي. من الواضح أن تقويم الاثني عشر تشي لي كان سابقاً لزمنه للغاية، كما أن ترتيب الأشهر فيه منطقي أكثر من التقويم الغريغوري السائد حالياً. ولا شك في أنه كان قفزة ثورية في تاريخ التقاويم سواء أكان ذلك على مستوى الصين أم على مستوى العالم ككل.

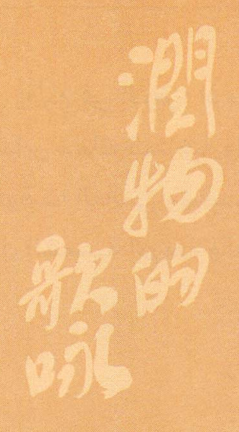
ومع أن تقويم الاثني عشر تشي لي الذي وضعه شن كوه لم ينتشر، إلا أن فكرة وضع التقاويم على أساس الفصول الشمسية- وهي من دون ريب فكرة ثورية للغاية- عكست الدور المهم الذي تلعبه هذه الفصول في التقاويم. (الصورة 3-12)

لقد وجدت الفصول الشمسية الأربعة والعشرون من خلال إدراج ستة عشر فصلاً بين الفصول الشمسية الأساسية الثمانية. وكان الهدف الأساسي من هذه الفصول هو وصف المناخ والأحوال الفينولوجية في حوض النهر الأصفر في الصين، ولكن يمكننا



الصورة 3-12 ساعة تقيس الزمن والفصول الشمسية مع جدول النجم القطبي، وقد صنعت من خشب الصندل في سوتشو خلال حكم قوانغ شو (من سلالة تشينغ) الذي امتد ضمن فترة 1875-1908. هذه الساعة النفيسة موجودة في متحف القصر في بكين (تصوير كونغ لان بينغ)

في الواقع أن نطبق فكرتها على أي إقليم في الأرض؛ إذ يمكن لأي إقليم أن يؤسس فصوله الشمسية الستة عشر على أساس سماته المناخية والفينولوجية المميزة. تشبه هذه العلاقة تلك الموجودة بين التوقيت العالمي وتوقيت المناطق المختلفة. فمن منظور عالمي، يمكن تطبيق الفصول الشمسية الأربعة والعشرين على العالم بأسره.



الفصول الشمسية الصينية

الفصل الرابع

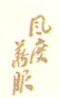
الفصول الشمسية والفينولوجيا: التفاعل بين كل شيء في الكون

التفاعل بين كل شيء في الكون

كان الناس في ما مضى يؤمنون أن طاقة التشي تملأ ما بين السماء والأرض، وأن هذه الطاقة تتجلى في صورتين: الين واليانغ اللذين كانا يتحركان في نمط من القوة والضعف يؤدي إلى خلق كل شيء في الكون، ويتجلى ذلك في دورة تعاقب فصول السنة على الأرض. كما اعتقد أولئك الناس أنه ثمة علاقة بين السماء والأرض وكل شيء في العالم الإنساني الخفي والمعجز والغيبي، حيث يجتمع كل شيء في تأثير متبادل ومتشابك في كل شيء. تدعى هذه الفكرة «التفاعل»، حيث يبدو أنه ثمة يد خفية تسيطر على جميع أشكال الحياة على الأرض، وهذه القوة الكامنة خلف كل شيء ترتبط أوثق ارتباط بالنمط الظاهر في الفصول الشمسية.

لقد درس الناس القدامى في زمنهم القديم الغابر قوانين تغيّرات الطبيعة، حيث كانت أبسط التغيرات وأوضحها للعيان هي التغيرات الفينولوجية. وكما قلنا من قبل، نشأت فكرة الفصول الشمسية من خلال رصد الأنماط التي تقوم عليها الظواهر الفينولوجية، وتطورت حتى انتهى بها الأمر بأن أصبحت وليدة القياسات الفلكية.

تظهر جميع هذه المنجزات فكرة التفاعل بين جميع الأشياء في الكون؛ وكانت هذه الفكرة سائدة في العصور القديمة. فكما تتسبّب الطاقة المغناطيسية في جعل المغناطيس يجذب الحديد، وكما تجعل الكهرباء الساكنة صدفة السلحفاة الصقرية تلتقط حبوب الخردل، توجد دائماً قوى تفاعلية بين كل شيء في الكون. وبالإضافة إلى الظواهر الطبيعية، إن اكتمال أي من طاقتي الين واليانغ أو زواله أو ضعفه أو قوته يظهر أتم الظهور في التغييرات الفينولوجية. ولذلك، إن الفينولوجيا هي لغة القوانين الطبيعية التي تكشف طلاسمها. لذا نجد العبارة التالية في «كتاب الأغاني»: «توجد جميع الأشياء فقط لأن أوانها قد آن». وهي عبارة تحمل الكثير من المعاني، وأحدها انتظام التغييرات الفينولوجية. (الصورة 4-1)



修真圖

北京白雲觀藏板

夏小正傳箋
漢信都大傅戴德延君傳　歸安沈秉成箋
夏小正
(傳)何以謂之小正以小著名也陰陽生物之候王事之次則夏之月令也
(箋)夏者代號小正授時之書謂之正者陰陽代興不忒其次乃宇宙之大綱不易之正道禹奉麻數之命作瑞麻夏時頒之邦國其言天象政令者謂之大正以告有位其言人統物候者謂之小正以告庶民
正月

(اليمين) الصورة 4-1 «جدول تمرين الطاقة الجوهرية» الذي يجسد فكرة الوحدة بين السماء والإنسان

يظهر «جدول تمرين الطاقة الجوهرية» مجموعة متكاملة من النظريات حول تدريب طاقة الإنسان الجوهرية التي تلخص ممارسات كان الصينيون القدامى يقومون بها لسنوات طويلة. ويحلل الجدول الأسس التي يقوم عليها تمرين الطاقة الجوهرية من خلال نظام فريد من نوعه يكشف عن سر الوحدة بين السماء والإنسان. توجد في الصورة إشارة إلى أسماء الفصول الأربعة والعشرين على عمود الإنسان الفقري لتحديد نظام التمرين المطابق للحظات السماوية المهمة.

(اليسار) الصورة 4-2 صورة فوتوغرافية لكتاب «تعليقات وملاحظات على كتاب شيا شياو تشنغ»

كتاب «شيا شياو تشنغ» هو من الكتب الصينية الكلاسيكية المرجعية، ويحتوي على سجلات مفصلة بالظواهر الفينولوجية والمناخية في الصين القديمة.

نجد أول سجل مفصل بالفينولوجيا ومواقيت السماء في الصين القديمة في كتاب «شيا شياو تشنغ». يمكننا أن نبدأ عبر إلقاء نظرة على «تشنغ يويه»، أول شهر في السنة، لنجد ما يلي مكتوباً في كتاب «شيا شياو تشنغ»: «في الشهر الأول، تبدأ الحيوانات بالتلوي، ويعود الإوز البري إلى موطنه في الشمال، وتبدأ طيور التدرج بالصياح وهز أجنحتها، وتسبح الأسماك إلى الأعلى وتحمل الجليد، ويتجمع الفلاحون كي يمسكوا بمحاريثهم. في بداية السنة، ليو، ينبغي استخدام حصان أحمر الجسم وأسود العرف والذيل كأضحية للمحراث، وتهب بعض الرياح القوية في بعض الأحيان، وتوجد أيام باردة تتجمد فيها الطرقات. كما تخرج فئران الحقول، ويبدأ الفلاحون بتشذيب حدود حقولهم. يضحي ثعلب الماء بالأسماك، وتصبح النسورُ قماري، وتكون الحقول قد شربت ما يكفي من الماء، ويبدأ الفلاحون بزراعة الحقول الرسمية. تقطف ثمرات السلجم، وتصبح رؤية نجم جو ممكنة، وتغرب الشمس حين يصبح برج شن شيو في منتصف السماء، ويشير رأس كوكبة الدب الأكبر إلى الأسفل، وتبرعم أشجار الصفصاف. تخرج زهور الخوخ والمشمش والدراق البري، وتخرج نبتة السُّعد الطويل ثمارها، وتضع الدجاجات بيضها». (الصورة 4-2)



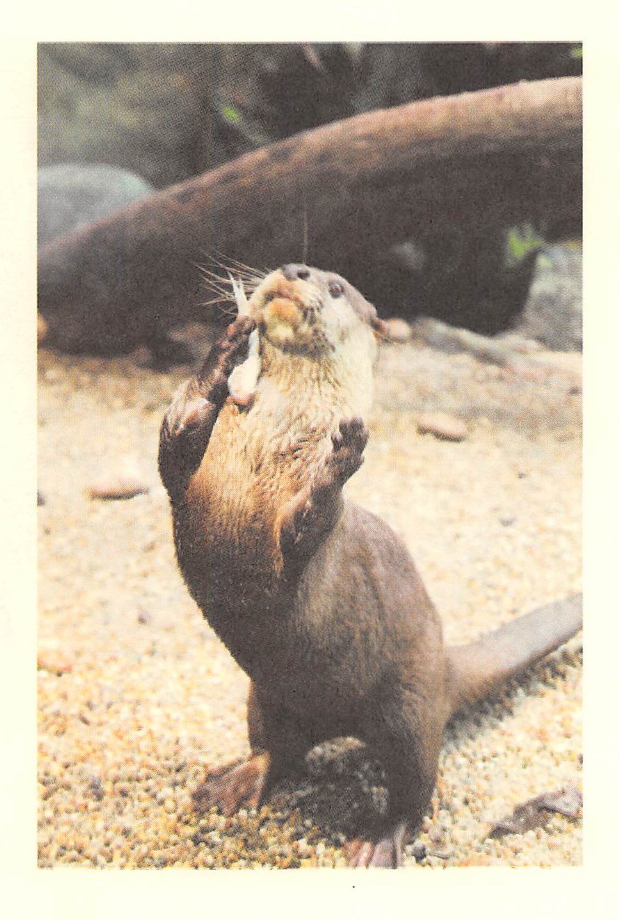
تحتوي الفقرة على وصف لظواهر فلكية وأخرى مناخية، كما تحتوي على وصف للنشاطات الزراعية. ولكن، لعل أكثر بياناتها قيمة هي تلك المتعلقة بالملاحظات حول الفينولوجيا.

في البداية، دعونا نلقي نظرة على الوصف الفينولوجي الذي تتضمنه هذه الفقرة: في الشهر الأول، تستيقظ الحيوانات الصغيرة مثل الحيات والزواحف من سباتها الشتوي، وتطير الإوزات البرية عائدة في مجموعاتها إلى الشمال، وتبدأ طيور التدرج بالصياح وهز أجنحتها. كما أن قدوم الربيع يعني بداية ارتفاع درجة حرارة الماء، وتشعر الأسماك بهذا التغير، لذا بعد استقرارها الطويل في أسفل المياه تبدأ بالسباحة إلى أعلاها، ولكن سطح المياه يكون مغطى ببعض الجليد، وحين تصعد الأسماك تبدو وكأنها تحمل قطع الجليد تلك على ظهورها؛ كما تبدأ فئران الحقول بالخروج من جحورها في الحقول. أما «تضحية ثعلب الماء بالأسماك» فهي عبارة تشير إلى ظاهرة طبيعية متميزة. فعند بداية الربيع، تبدأ ثعالب الماء باصطياد الأسماك، وتضع صيدها على ضفاف الأنهار وكأنها تقدم قرباناً لشيء ما. في حين أن عبارة تحول «النسور إلى قماري» لا يقصد بها معناها الحرفي، لأننا سنسيء فهمها تماماً إذا

الصورة 4-3 هجرة الطيور

تعكس هجرة الطيور شعورها المودع طبيعياً فيها بالفصول الشمسية وتغير البيئة التي يعيشون فيها، وهي من الظواهر الفينولوجية النموذجية.



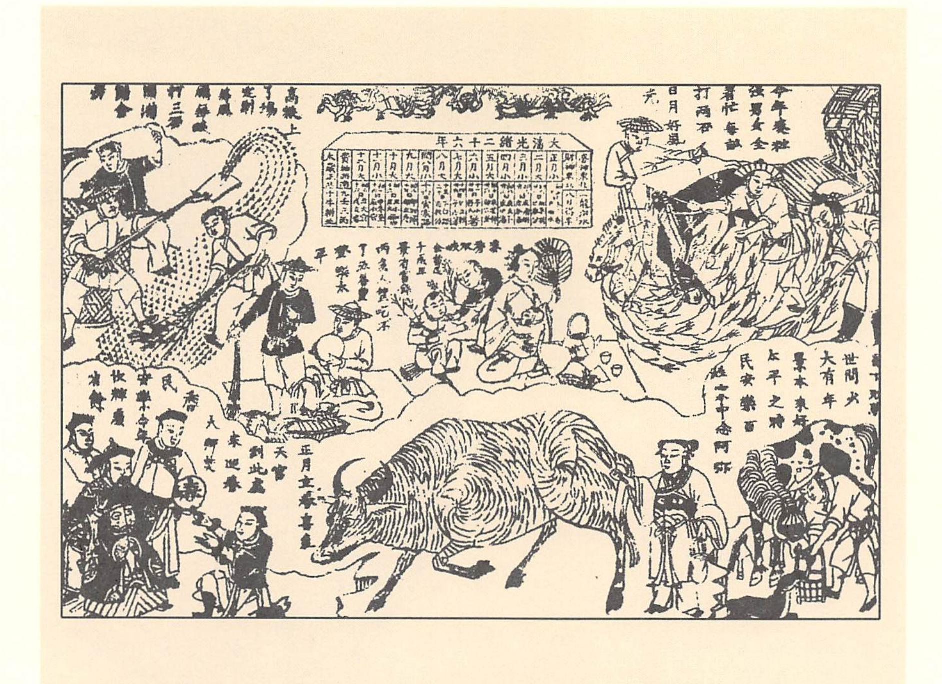


الصورة 4-4 ثعلب الماء (تصوير ليانغ جيه مينغ)

تعتبر «تضحية ثعالب الماء بالأسماك» من الظواهر الموسمية التي تصف أحد الفصول الشمسية. وهي أول علامة فينولوجية تدل على فصل استيقاظ الحشرات، وقد دُوِّنت هذه الظاهرة في كتاب شيا شياو تشنغ.

فهمناها كذلك، ولكن فهمها يصبح أقرب إلى الأذهان إذا تذكرنا أن النسور والقماري طيور مهاجرة ولكن في مواسم مختلفة، إذاً هذا التعبير مجازي، ويعني في الحقيقة: «تذهب النسور حين تأتي القماري». وكذلك تبدأ أشجار الصفصاف بإخراج براعمها وتخرج أشجار الخوخ والمشمش والدراق البري أزهارها في بداية الربيع. تسمى نبتة السُّعد الطويل «قاو» باللغة الصينية، ولا ينبغي في الواقع أن تخرج ثمارها في ذلك الوقت من السنة، ولعل مرد ذلك إلى خطأ في الملاحظة لأن الأزهار العنقودية لهذه النبتة تبدو وكأنها ثمار فيصعب التمييز بينها، وإلا فالصحيح هو أن يقال إن «الأزهار العنقودية لنبتة السُّعد الطويل تخرج». وكذلك تبدأ الدجاجات بوضع بيضها. **(الصورتان 4-3، 4-4)**.





الصورة 4-5 «رسم ثور الربيع»، تقويم السنة السادسة والعشرين من حكم قوانغ شو من سلالة تشينغ، أي سنة 1900 ميلادية

دعونا الآن نلقي نظرة على الظواهر المناخية في ذلك الشهر: في بعض الأحيان تهب رياح قوية، ومع أن الطقس لا يزال بارداً إلا أن الثلج يبدأ بالذوبان عن الحقول المتجمدة؛ وهو ما توحي به عبارة «توجد أيام باردة تتجمد فيها الطرقات».

تسجل هذه الفقرة من كتاب «شيا شياو تشنغ» أيضاً بعض الظواهر الفلكية، مثل ظهور نجم جو في السماء ثانية، وكيفية ظهور برج شن شيو؛ وهو أحد بروج شيو الثمانية والعشرين، ساعة غروب الشمس في السماء الشمالية. وكذلك يشير رأس كوكبة الدب الأصغر إلى الأسفل. هذه جميعها ظواهر سماوية سجلت في ذلك الزمن.

أما السجلات التالية فتتعلق بالنشاطات الزراعية: يصلح الفلاحون محاريثهم وفؤوسهم ومعداتهم استعداداً للفلاحة مجدداً، ويبدأون في تشذيب حدود حقولهم التي رسمت بحسب نظام مساواة الأراضي الذي تم وضعه في الأزمنة القديمة. لكن

الثلج في ذلك الوقت لا يذوب تماماً بعد، وفي عمل الزراعة على الفلاحين أن يتوجهوا إلى الحقول الرسمية أولاً.

كذلك ثمة وصف لنشاطات دينية مثل الأضاحي. ففي بداية السنة، يُضحّى بحصان من للأدوات المستخدمة في حراثة الحقول، أما ثمرات السلجم الملتقطة في ذلك الوقت فتستخدم في الأضاحي في معابد الأسلاف. (الصورة 4-5)

لا تشكل الفقرة التي اخترناها كمثال على ما في الكتاب إلا قسماً صغيراً منه؛ فالكتاب يسجل أكثر من ستين ظاهرة فينولوجية تشمل 37 ظاهرة تتعلق بالحيوانات، و18 تتعلق بالنباتات، و15 ظاهرة غير بيولوجية أصلاً كالرياح والمطر والجفاف والتجمد. ويُظهِر لنا هذا أن الشعب الصيني حتى في ذلك الزمان الغابر كان قد تمكن من تمييز مقدار هائل من المعارف الفينولوجية والفلكية والزراعية نتيجة الدراسات الدقيقة التي أجراها على عدد كبير من أشكال الحياة؛ كالأعشاب والأشجار والحشرات والأسماك والطيور والحيوانات البرية والمدجنة. كما ارتبطت الفينولوجيا مع النشاطات الزراعية مثلما يظهر من فكرة «تثمين الزراعة» التي كانت سائدة في ذلك الوقت، والنية الواضحة لتوجيه مواقيت الزراعة المذكورة في ذلك الكتاب.

يمكننا القول إن كتاب «شيا شياو تشن» في الواقع تقويم فينولوجي للأزمنة القديمة، لم يتبق من ذلك الكتاب إلا 400 حرف فقط، ويصف النص فيها الأشياء على أنها نظام قائم على الأشهر المختلفة، ويربط بين علم الفلك والفينولوجيا في نظام معرفي يعكس التناغم بين السماء والإنسان، كما تتجلى فيه محبة الإنسان لاستكشاف القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية والنظر فيها.

لا شك في أن الظواهر الطبيعية التي يصفها كتاب «شيا شياو تشن» حقيقية، لكن العلماء لا يزالون يتجادلون حول ما إذا كان نظام الأشهر المستخدم في التقويم فيها شمسياً أم قمرياً. نحن نعلم اليوم أن لا علاقة بين دورة القمر والتغييرات الفينولوجية، ولكن الأرجح أنه ثمة علاقة قريبة بين هذه الظواهر ودورة الشمس. أي أن الفصول الشمسية هي ما يحدد الفينولوجيا.

لكل شيء وقته المناسب، والفصول الشمسية هي النقاط الزمنية التي تحصل عندها التغييرات الفينولوجية. ومع أن أسماء هذه الفصول الشمسية غير مذكور في

كتاب «شيا شياو تشنغ» إلا أن ما يسجله الكتاب هو الرابط الجوهري بين الفصول الشمسية والفينولوجيا. (الصورة 4-6)

الصورة 4-6 طراز تشو في الخط ضمن كتاب «شيا شياو تشنغ»

كانت إحدى نتائج ضياع نص كتاب «شيا شياو تشنغ» الأصلي هي حصول جدل كبير حول زمن إتمامه كتابته، لكن الرأي الراجح هو أن الكتاب اكتمل في حقبة الربيع والخريف على أبعد تقدير، وتذكره بعض مقاطع كتاب «السجلات التاريخية».

العلامات الفينولوجية الاثنتان والسبعون

كُتِب فصل «التعليمات الشهرية» من «كتاب الطقوس» خلال حقبة الربيع والخريف. وهذه التعليمات الشهرية عبارة عن ترتيب للظواهر الفينولوجية والفلكية مع نشاطات الإنسان. وكذلك إن فصل «شرح التعاليم حول الزمن والفصول» في «مقالات غير مجموعة من كتاب سلالة تشو»- وهو كتاب أُلِّف في الحقبة نفسها التي أُلِّف فيها الكتاب الأول ولكنه متأخر عنه بعض الشيء- يذكر اثنتين وسبعين ظاهرة فينولوجية تقابل الفصول الشمسية الأربعة والعشرين المسجلة، مما يشكل مجموعة كاملة من السجلات حول العلامات الفينولوجية التي تمثل هذه الظواهر. كما أن كتاب «حوليات الربيع والخريف للو» يعرض سجلات أكثر تفصيلاً حولها.

اكتملت صياغة نظرية العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين خلال حقبة الربيع والخريف، أي تقريباً في الوقت ذاته الذي اكتملت فيه صياغة نظرية الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. وقد ظل هذا الترتيب المتين يعتبر قانوناً طبيعياً يعبّر عن التناغم بين الإنسان والسماء لفترة طويلة جداً في الصين القديمة، بل وتوسع الناس في حقب السلالات الإمبراطورية اللاحقة فطابقوا بين الأمزجة الموسيقية وتجليات الرموز التنجيمية والعلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين مكونين على أساس هذه المطابقة نظرية فينولوجية في غاية التعقيد.

بدءاً من حقبة سلالة هان، استخدمت الكثير من الأعمال حول الزراعة الفصول الشمسية الأربعة والعشرين والعلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين لوضع التقاويم الشعبية، وقد اشتملت هذه التقاويم على أنواع مختلفة من جداول تواريخ النشاطات الزراعية وتعاليم الزراعة الشهرية وغير ذلك. كانت هذه الأعمال عملية للغاية، وقد وصفت كلاً من الظواهر الفينولوجية والمناخية. وفي وقت لاحق، أُدرِجت الظواهر الفينولوجية الاثنتان والسبعون أيضاً في التقاويم التي تضعها الدولة، ولطالما اعتبرت نظرية حول الطبيعة صحيحة بشكل مطلق، وتمتعت بمصداقية عالية بين الناس.

(الصورة 4-7)



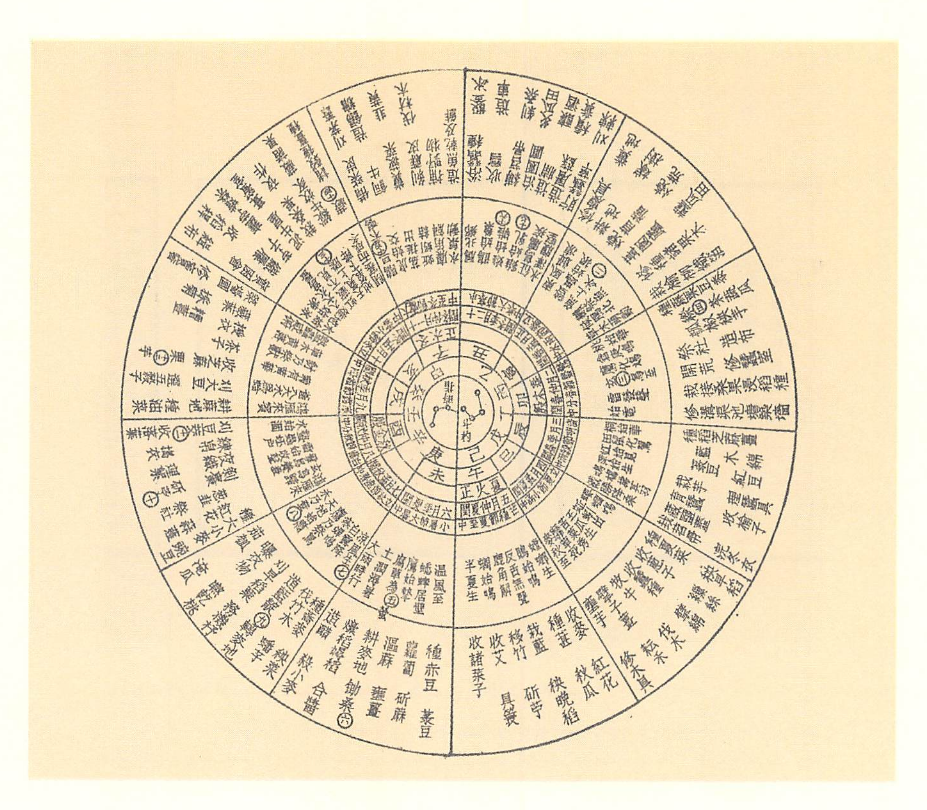


الصورة 4-7 رسم للعلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين- زوال صقيع الرياح الشرقية، نسخة مطبوعة من خلال الحك بالحجر (تنقش الحجارة وتحك، ثم توضع ورقة عليها وتحك النقوش بقلم رصاص) موجودة في جمهورية الصين

إن زوال صقيع الرياح الشرقية هو أول علامة فينولوجية تدل على بداية الربيع، فيتجلى تناغم طاقة اليانغ، ويبدأ الثلج القاسي والكثيف بالذوبان.

إن أوضح هذه التقاويم تمثيلاً لهذه الأفكار هو «جدول الطريقة المرنة للتمكن من الزمن» الذي وضعه وانغ تشن في عهد سلالة يوان. يحتوي هذا الجدول على ما مجموعه ثماني دوائر، تظهر أولاها من الداخل اتجاه رأس كوكبة الدب الأكبر، وكلما توجهنا إلى الدوائر الخارجية نجد أنها تظهر بالتسلسل: سلسلة الجذوع السماوية، ثم سلسلة الفروع الأرضية، ثم فصول السنة الأربعة، ثم الأشهر الاثني عشر، ثم الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ثم العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين، ومن بعد ذلك إشارة إلى مختلف النشاطات الزراعية التي ينبغي القيام بها أثناء الظواهر الفينولوجية المختلفة المشار إليها. (الصورة 4-8)

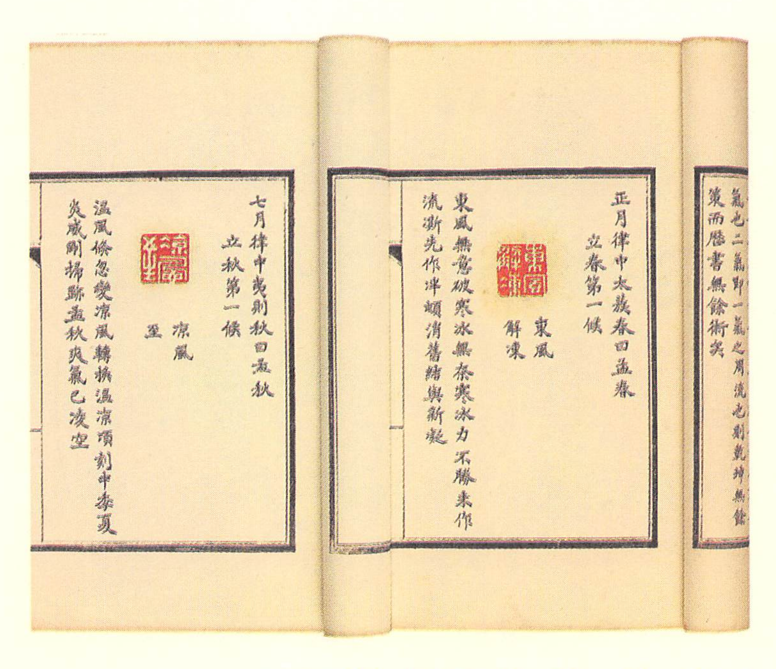
ليست العلامات الفينولوجية الاثنتان والسبعون في الحقيقة إلا امتداداً للفصول الشمسية الأربعة والعشرين. وقد قال وانغ يينغ لين (من عهد سلالة سونغ) في كتابه «بحر اليشب»: «خلال خمسة أيام، ثمة علامة فينولوجية واحدة. وخلال ثلاث علامات فينولوجية ثمة فصل شمسي. لذا، ثمة أربعة وعشرون فصلاً شمسياً في السنة الواحدة». أو بعبارة أخرى: ثمة فصلان شمسيان في كل شهر، وخلال المدة التي يحكم فيها كل فصل شمسي ثمة ثلاث علامات فينولوجية. تحكم كل علامة فينولوجية لمدة خمسة أيام، لذا ثمة اثنتان وسبعون علامة فينولوجية في السنة الواحدة.



الصورة 4-8 رسم «لجدول الطريقة المرنة للتمكن من الزمن» الذي وضعه وانغ تشن

غالباً ما تكون الظواهر الفينولوجية التي تضاهي العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين ظواهر بيولوجية. على سبيل المثال، تبدأ المخلوقات التي كانت مستغرقة في سباتها الشتوي بالتلوي والحركة أثناء فصل «استيقاظ الحشرات»، ويشير مجيء الإوزات البرية إلى حلول موسم هجرة الطيور المعتاد، وعند الاعتدال الربيعي «تأتي الطيور السوداء»، أي طيور السنونو التي تعود من هجرتها إلى جنوب الصين. دعونا الآن نلقي نظرة على ثلاث علامات فينولوجية تقع في فصل «بداية الربيع»:

الظاهرة الفينولوجية الأولى هي أن الرياح الشرقية تذيب الثلج، أما الثانية فهي أن الحيوانات المسبتة تستيقظ وتبدأ بالتلوي، أما الثالثة فهي أن الأسماك تسبح إلى الأعلى لتحمل الثلج. ما يعنيه هذا هو أن الرياح الشرقية تجلب الدفء إلى الأرض بعد



氣也二氣即一氣之周流也則乾坤無餘
策而曆書無餘術矣

正月律中太簇春曰孟春
立春第一候
東風
解凍
東風無意破寒冰無奈寒冰力不勝來作
流澌先作泮頓消舊結與新凝

七月律中夷則秋曰孟秋
立秋第一候
涼風
至
溫風倏忽變涼風轉換溫涼頃刻中恭夏
炎威剛掃跡孟秋爽氣已凌空

الصورة 4-9 صورة لقسم من كتاب حول العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين

كان الكتاب الأصلي مطبوعاً باستخدام ألواح الخشب، حيث طبعه خه تشن؛ أحد أشهر الطابعين في عهدي سلالتي مينغ وتشينغ. وصلت نظرية العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين إلى كامل نضجها خلال حقبة الربيع والخريف، وقد اعتبر هذه الترتيب المنتظم والمتين من تجليات قوانين الطبيعة حول علاقة التوافق بين السماء والإنسان، والتي استمر الإيمان بها لمدة طويلة في الصين القديمة، ولقيت الكثير من التقدير والقبول.

حلول فصل «بداية الربيع»، فتبدأ الثلوج على الأراضي بالذوبان. وبعد بداية الربيع بخمسة أيام، تستيقظ الحيوانات من سباتها الشتوي في جحورها تدريجياً؛ وبعد ذلك بخمسة أيام تسبح الأسماك من أعماق المياه إلى سطحها الذي لا يزال يحتوي على قطع من الثلج، فتبدو الأسماك للناظرين وكأنها تحمل على ظهرها الثلج حين يطفو على سطح الماء. يتوافق هذا القسم من العلامات الفينولوجية مع ما رأيناه من قبل في سجلات كتاب «شيا شياو تشنغ»، ويمكننا أن نرى آثار ذلك الإرث فيه. (الصورة 4-9)

توجد سجلات بالطيور المهاجرة في العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين مثل طيور السنونو التي أشير إليها «بالطيور السوداء»، وهو الاسم الذي كان الصينيون القدامى يطلقونه عليها. وكذلك ثمة إشارة إلى توجّه الإوزات البرية إلى وجهات مختلفة في الفصول المختلفة. إن هذه السجلات دقيقة للغاية، وتظهر فيها نشاطات

حيوانات مثل زيز الحصاد وديدان الأرض والضفادع والفراشات، والتي تنتظم مع تبدلات الفصول الشمسية إلى حد أنه بإمكاننا اعتبار هذه الحيوانات حيوانات موسمية.

بالإضافة إلى ما سبق، تظهر هذه السجلات معلومات حول نمو النباتات وتورقها وازدهارها وإثمارها ومن ثم ذبول أوراقها وتساقطها، وكذلك حول سبات الحيوانات الشتوي وصحوها وبداية صدور أصواتها وتكاثرها وهجرتها وارتباط كل هذه الظواهر مع الفصول الشمسية. لا تتفق جميع هذه البيانات مع الحقائق كما نعلمها اليوم- مثل اعتقاد الصينيين القدامى أن الأعشاب تتحول إلى حشرات سراج الليل بعد أن تتعفن!- وذلك لأن الملاحظات التي كان الناس قادرين على القيام بها في ذلك الوقت كانت محدودة، ولم يكن بمقدورهم أن يتوصلوا إلى فهم واضح وصحيح لجميع الظواهر الطبيعية.

كما أسلفنا من قبل، تنقسم مدة كل فصل شمسي إلى ثلاث علامات فينولوجية تحكم لمدة خمسة أيام، وطريقة التقسيم هذه واضحة ويسهل تذكرها، ولكنها في نهاية المطاف تظل اعتباطية، وفي بعض مناطق الصين لم تكن تتفق حتى مع الأحوال المناخية والفينولوجية السائدة فيها. علينا أن نتذكر أن معرفة الناس في تلك الأزمنة الغابرة كانت محدودة، ولكنّ هذا لا يتنافى مع كون هذه التقسيمات قد نتجت عن رصد أنماط الطبيعة كما كانت تظهر لهم في ذلك الوقت، ولذلك فهي لا تخلو من القيمة العلمية.

حين ربط الناس بين هذه الظواهر الفينولوجية الاثنتين والسبعين والرموز التنجيمية الموجودة في «كتاب التغيرات» ومع الجذور السماوية والفروع الأرضية والفصول الشمسية، كان هذا نتيجة وصول فلسفة التفاعل بين السماء والإنسان إلى مرحلة الرسوخ والنضج كنظام نظري وروحي. قد يبدو هذا النسق غير متفق مع حقائق الأمور بالنسبة إلى العقول المعاصرة الحديثة، ولكننا إذا درسناه ضمن إطاره التاريخي فهو يثبت أن الصينيين القدامى قد بدأوا ببناء إطار نظري لتفسير علوم الأحياء والفينولوجيا. تدرج العلامات الفينولوجية الاثنتان والسبعون في بنيتها النظرية كلاً من الظواهر الفينولوجية التي تظهر على الكائنات الحية، ونشاطات الناس، والظواهر الفلكية، وفصول السنة الأربعة، والعناصر الخمسة، والأهم من ذلك كله: الفصول الشمسية الأربعة والعشرين.

الصورة 4-10 الرموز الإلهية المشيرة إلى الأشهر الاثني عشر، وجدول العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين

لقد طبعت الرموز الإلهية المشيرة إلى الأشهر الاثني عشر، وجدول العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين على أساس «جدول دائرة تشي للرموز الإلهية» في «القاموس الكبير في دراسة كتاب التغيرات». يظهر الجدول الرموز الإلهية لكل شهر، ولكل رمز إلهي ستة خطوط ياو تمثل تغيرات الفينولوجيا، ما يعجل مجموع خطوط ياو اثنين وسبعين خطاً في هذه الرموز الإلهية الاثني عشر. يمثل كل خط ياو علامة فينولوجية، فيمثل مجموعها العلامات الفينولوجية الاثنتين والسبعين في كل سنة. أي أن خطوط ياو تستخدم كرمز للنمط الدوري غير المتناهي من التغير الطبيعي في المناخ في كل سنة.

نظر الصينيون القدامى إلى هذه العلامات على أنها مفاتيح، وحين تدور في أقفالها فإن السماء والأرض، والين واليانغ، وفصول السنة الأربعة، والعناصر الخمسة ستجري جميعها بحسب أنماط دقيقة ومحددة، وقد رسموا بناء على هذه النظريات جداول متعددة لهذه العلامات، وربما كانوا يسعون في الحقيقة إلى الوصول إلى المفتاح الحقيقي الأكبر الذي سيفتح باب فهم أسرار السماء والأرض والإنسان. وبغض النظر عن اتفاقنا مع القدامى أو خلافنا معهم، إن علينا أن نحترم روح الاستكشاف ومحبة العلم هذه فيهم. (الصورة 4-10)

الفصول الشمسية غير المنتظمة وعلامات الرياح المزهرة

يتداول الصينيون مثلاً يصفون فيه ذروة بذل المجهود الذي على الإنسان القيام به لصقل مهارته: «تدرب في التسعات الأبرد الثلاث في الشتاء، وفي حرور فو الثلاثة في الصيف». تشير «التسعات الأبرد الثلاث» إلى أبرد فترة من «التسعات الباردة التسع»، وهي ثالث ورابع وخامس فترة تتألف من تسعة أيام من موسم البرد. أما «حرور فو الثلاثة» فتشير إلى حر بداية فو، ثم حر فو الثاني، ثم حر فو الثالث. الإشارة في هذه العبارة إنما هي إلى أشد أيام السنة برداً وحراً كما يقول الصينيون: «أبرد أيام السنة هي ثالث التسعات الباردة، وأحر أيام السنة هي أيام حر فو الأوسط». ورغم أن هذا كله لا يشير إلى أي من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، إلا أنه على علاقة وطيدة معها، فالناس يسمون هذا التقسيم: الفصول الشمسية غير المنتظمة، ويستخدمونها كمتمم للفصول الشمسية الأربعة والعشرين.

حرور فو الثلاثة هي أشد أيام السنة حراً، وكلمة «فو» تعني «الاختباء» في اللغة الصينية، ويوحي الاسم أن تشي اليانغ تَكْبت تشي الين، حيث يختبئ هذا الأخير في الأرض. ومن المضامين الأخرى في هذه التسمية أنه على الناس أن يختبئوا من الحر الشديد حيث يصبح الطقس حاراً إلى درجة لا تطاق في الصيف. تبدأ حرور فو الثلاثة في ثالث يوم قنغ بعد الانقلاب الصيفي في التقويم الصيني القمري، وتدعى الأيام العشرة الأولى: «حر بداية فو» أو «حر فو الأول». وتدعى الأيام العشرة الثانية «حر فو الأوسط» أو «حر فو الثاني». فيما تدعى الأيام الأولى التي تتلو يوم «قنغ» الأول بعد بداية الخريف «حر فو الأخير» أو «حر فو الثالث».

ما نعنيه «بيوم قنغ» هنا هو اليوم الذي يحتوي على حرف «قنغ» في التقويم الذي يعتمد على «الجذوع السماوية والفروع الأرضية» في الإشارة إلى أيامه. توجد عشرة جذوع سماوية: جيا، يي، بينغ، دينغ، وو، جي، قنغ، شين، رن، قوي. أما الفروع الأرضية فهي: تسي، تشو، يين، ماو، تشن، سي، وو، وي، شن، يو، شو، هاي. وحين تتم مطابقة الجذوع السماوية على الفروع الأرضية يمكن عندها استخدام النظام الناتج للإشارة إلى السنوات أو الأشهر أو الأيام؛ وتشكل معاً دورة «جيا تسي» التي تحتوي على ستين زوجاً من الجذوع السماوية والفروع الأرضية المجتمعة معاً. فإذا استخدم



هذا النظام للإشارة إلى الأيام، فهذا يعني أن كل دورة من ستين يوماً ستحتوي على ستة أيام تحتوي على حرف «قنغ»، وتفصل بين كل اثنين منهما عشرة أيام.

وبالعودة إلى حرور فو، إن هذه الفترات الثلاث قد لا تستمر لثلاثين يوماً بالضبط. ففي بعض السنوات، قد يكون لدينا «حر فو أوسط» الذي يستمر لعشرين يوماً، ما يعني أن مجموع أيام حرور فو سيكون أربعين يوماً حينئذ. وبالنسبة إلى العلماء القدامى الذين كانت دراساتهم ترتكز على نظريات الين واليانغ والعناصر الخمسة، فقد كانوا يسمون حرور فو الثلاثة: الصيف الطويل، وكانوا يقسمون السنة إلى خمسة أقسام: الربيع والصيف والصيف الطويل والخريف والشتاء لتطابق العناصر الخمسة: الخشب والنار والتراب والذهب والماء.

لا تحدث أيام حرور فو الثلاثة في تواريخ محددة في كل سنة، وهي تقع على العموم ما بين منتصف شهر تموز ومنتصف شهر آب في التقويم الغريغوري الحديث. أما في التقويم الصيني القمري، فيتم عد ثلاثة أيام على أساس التقويم الذي يجمع بين الجذوع السماوية والفروع الأرضية. ولما كانت هذه هي أشد أيام السنة حراً كانت التقاويم الصينية القديمة تذكر الناس بضرورة تجنب الحر الشديد.

أما بالنسبة إلى التسعات الباردة التسع، فتبدأ مع الانقلاب الشتوي وتستمر لمدة واحد وثمانين يوماً، أي حاصل ضرب تسع مرات بتسعة أيام. أثناء هذه الفترة، يتحول الطقس من البرودة إلى التجمد ثم يعود إلى الدفء، وتبدأ في حوالي 22 أو 23 كانون الأول أي عند الانقلاب الشتوي، وتنتهي قبل يومين أو ثلاثة من فصل «استيقاظ الحشرت». تصف الأغاني الشعبية الشائعة بين الصينيين تغيرات درجات الحرارة في تلك الفترة وصفاً حيوياً. فعلى سبيل المثال، تصف أغنية شعبية التسعات الباردة التسع حول حوض النهر الأصفر بالشكل التالي:

في التسعتين الباردتين الأولى والثانية لا تتجرأ على إخراج يديك
في التسعتين الباردتين الثالثة والرابعة يمكنك السير على الثلج
في التسعتين الباردتين الخامسة والسادسة يمكنك أن ترى الصفصاف الأخضر بمحاذاة النهر
في التسعة الباردة السابعة يذوب الثلج على الأنهار

في التسعة الباردة الثامنة تعود الإوزات البرية إلى الشمال

في التسعة الباردة التاسعة تسير مواشي المزارع في جميع الحقول

تشمل هذه الفترة خمسة فصول شمسية، وهي: الانقلاب الشتوي، والبرد الأصغر، والبرد الأكبر، وبداية الربيع، ومياه المطر. وتصف الأغنية الشعبية ظواهر مناخية وفينولوجية، وأوقات مهمة للزراعة.

في حوضَي نهري يانغتسه وهوايخه ومعظم المناطق جنوب نهر يانغتسه، توجد فترة في الصيف تدعى: «مي يون تيان»، أي أيام الشتاء العفنة؛ ويسمى أول هذه الفترة: «دخول العفن» بينما يسمى آخرها: «خروج العفن». ففي هذه الفترة، يظل الطقس غائماً وماطراً، ومع ارتفاع درجات الحرارة والرطوبة في الوقت ذاته تتعفن الأشياء بسهولة، ولهذا نالت هذه الفترة هذا الاسم الغريب. وكذلك توافق هذه الفترة الوقت الذي تنضج فيه ثمرات الخوخ في مناطق جنوب نهر يانغتسه، ولذلك يسميها الناس أيضاً: «هوانغ مي تيان» أو «مي يو»، أي أيام الخوخ الأصفر أو مطر الخوخ؛ وهذان الاسمان بكل تأكيد أكثر شاعرية من «المطر العفن»! عرّف فنغ يينغ جينغ بداية هذه الفترة ونهايتها في كتابه «شروحات حول التعليمات الشهرية» الذي ألّفه أثناء عهد سلالة مينغ: «يوافق دخول العفن أول يوم بينغ بعد فصل القمح في السنابل، أما خروج العفن فيوافق يوم وي بعد الحر الأصغر». عموماً، تبدأ أيام الخوخ الأصفر تقريباً ما بين السادس والخامس عشر من شهر حزيران. فكما رأينا من قبل، إن بينغ جذع سماوي، ولا يمكن مرور أكثر من عشرة أيام متتالية لا تتكرر فيها الجذوع السماوية. وتنتهي هذه الأيام بين الثامن من شهر تموز والتاسع عشر منه؛ لأن «وي» فرع أرضي، ولا يمكن مرور أكثر من اثني عشر يوماً متتالياً لا تتكرر فيها الفروع الأرضية. في التقويم الصيني القمري التقليدي، يتم حساب هذه الأيام وتحديدها على أساس كتب تقويم جاهزة سلفاً.

لا يمكن فصل هذه الفصول غير المنتظمة عن الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ولكنها تؤلف دوراتها المتميزة الخاصة بها، وتعكس ظواهر مناخية محددة. وقد انتشرت واستخدمت بشكل كبير بين الصينيين لسهولة تذكرها وفهمها، فأصبحت من العلامات الهادية في حياة الناس.



كتب الشاعر شو فو الذي عاش في عهد سلالة سونغ قصيدة تحت عنوان «أيام الربيع». وقد حظيت جملة من هذه القصيدة بانتشار واسع: «بعد مئة وخمسين يوماً، أتت أمطار مهرجان الطعام البارد، وكانت هناك أربع وعشرون علامة على الرياح المزهرة». وما تعنيه هذه العبارة هو أنه وبعد مرور 150 يوماً على الانقلاب الشتوي، ثمة مهرجان الطعام البارد؛ في اليوم السابق على السطوع المحض. وبعد تساقط أمطار الربيع الخفيفة، يصبح الطقس صافياً ومشرقاً. يعتبر «مهرجان الطعام البارد» هذا من الفصول غير المنتظمة أيضاً. وفي ذلك اليوم، لا يستخدم الناس النار لطبخ الطعام ولا يأكلون إلا الأطعمة الباردة.

علامات الرياح المزهرة هي مطابقة فترات العلامات الفينولوجية مع ظواهر فينولوجية محددة، وإن قدوم رياح معينة يتزامن مع تفتح أزهار معينة. تعمل هذه الرياح وكأنها مراسيل، فهي تأتي في وقت ثابت من كل سنة لتشير إلى ظواهر



الصورة 4-11 أعمدة الفصول الشمسية الأربعة والعشرين في بكين

تحتوي أعمدة الفصول الشمسية على أنماط رائعة حول علامات الرياح المزهرة الأربعة والعشرين محفورة عليها. وتدل كرات الزهور في أعلى الأعمدة على الزهور الفينولوجية لكل فصل من الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. لقد حُفرت على كل عمود المقدمة والأغنية الشعبية المخصصتان للفصل الشمسي الذي يمثله، وتوجد أيضاً أنماط تمثل سمات الفصل الشمسي المميزة.

فينولوجية محددة توشك أن تحدث، وتستخدم تفتح الأزهار كظواهر تشير إلى العلامات الفينولوجية. (الصورة 4-11)

في الواقع، إن علامات الرياح المزهرة هي نوع من الفصول الشمسية غير المنتظمة. ومن حيث المضامين الأدبية، تمثل حرور فو الثلاثة والتسعة الباردة التسع قسوة الطبيعة وشدتها، بينما تمثل علامات الرياح المزهرة رقتها وعناصرها الشعرية الجمالية.

بحسب ما هو مذكور في كتاب «مناقشات حول السنة والأوقات التقويمية الأخرى في مناطق جينغ وتشو» الذي ألفه تسونغ لين في عهد السلالات الجنوبية: «تبدأ علامات الرياح المزهرة مع الخوخ وتنتهي مع التوت الصيني. ويوجد ما مجموعه أربع وعشرون علامة رياح مزهرة». يوجد خلال الفترة الممتدة بين البرد الأصغر ومطر الحبوب ما مجموعه ثمانية فصول شمسية تتوزع على 120 يوماً. وبما أن علامة فينولوجية واحدة تحدث كل خمسة أيام، فهذا يعني أن أربعاً وعشرين ظاهرة فينولوجية ستحدث خلال هذه الفترة، تقابل كل واحدة منها رياحاً تجلب التفتح لزهرة معينة. إذ إن كل رياح مزهرة تحدث في فترة تتفتح فيها إحدى الأزهار. ومع حلول فصل «مطر الحبوب» تكون معظم الأزهار قد تفتحت بالكامل، فتزدان الأرض في فصل الربيع بالألوان وتعبق الأجواء بالعطور. وقد أدرج الكتاب التوت الصيني في النهاية؛ لأن زهور هذه الثمار حين تتساقط تكون جميع الأزهار قد اختفت قبل ذلك. بعد حدوث علامات الرياح المزهرة الأربع والعشرين هذه يأتي الصيف ويبدأ فصل «بداية الصيف» الشمسي.

نتيجة اختلاف الزهور التي يفضلها الناس وتباين الظروف المناخية في مختلف أقاليم الصين، استخدم الناس نسخاً مختلفة من علامات الرياح المزهرة، وأكثرها شعبية ما يلي:

البرد الأصغر: خوخ الشتاء للعلامة الفينولوجية الأولى، الكاميليا للعلامة الفينولوجية الثانية، النرجس للعلامة الفينولوجية الثالثة.

البرد الأكبر: الغار للعلامة الفينولوجية الأولى، السحلبية للعلامة الفينولوجية الثانية، سيمبلوكوس كوداتا للعلامة الفينولوجية الثالثة.

بداية الربيع: ياسمين الربيع للعلامة الفينولوجية الأولى، الكرز للعلامة الفينولوجية الثانية، الماغنوليا العارية للعلامة الفينولوجية الثالثة.



مياه المطر: زهور السلجم للعلامة الفينولوجية الأولى، زهور المشمش للعلامة الفينولوجية الثانية، زهور ثمرة الخوخ للعلامة الفينولوجية الثالثة.

استيقاظ الحشرات: زهور الدراق للعلامة الفينولوجية الأولى، الكريا اليابانية للعلامة الفينولوجية الثانية، الورد للعلامة الفينولوجية الثالثة.

الاعتدال الربيعي: زهر التفاح الصيني البري للعلامة الفينولوجية الأولى، زهور الإجاص للعلامة الفينولوجية الثانية، ماغنوليا الزنبق للعلامة الفينولوجية الثالثة.

السطوع المحض: زهور تونغ للعلامة الفينولوجية الأولى، زهور القمح للعلامة الفينولوجية الثانية، زهور الصفصاف للعلامة الفينولوجية الثالثة.

مطر الحبوب: عود الصليب للعلامة الفينولجية الأولى، توت أوراق الورد للعلامة الفينولوجية الثانية، التوت الصيني للعلامة الفينولوجية الثالثة. (الصورة 4-12)

حين يأتي موسم علامات الرياح المزهرة الأربع والعشرين تتفجر جميع الأزهار في لوحة فنية من الألوان المتفتحة، ولكن هل تتوقف عن التفتح بعد فصل «مطر الحبوب»؟ بالطبع لا، إذ تتفتح زهور في الصيف مثل زهور القرفة العبقة التي ينتشر عطرها في آب، وأخرى أنيقة ولطيفة في الخريف، والأقحوان الذي يتفتح في أيلول. ولما كان الأمر كذلك، فلا غرابة بأن نجد الناس ينظمون أغنية شعبية أخرى تحت اسم «الزهور الأخوات الاثنتا عشرة»:

في الشهر الأول تتفتح زهور الخوخ، محاربة البرد بشجاعة
في الشهر الثاني تجد زهور المشمش فوق جميع الأغصان
في الشهر الثالث تنعكس صور زهور الدراق على النهر الأخضر
في الشهر الرابع تنمو الورود فوق أسوار المقصورات
في الشهر الخامس تصبح زهور الرمان حمراء كالنار
في الشهر السادس تتصاعد عطور زهور اللوتس حول المقصورات والبرك
في الشهر السابع تمد زهرة البلظامينا أوراقها رائعة الجمال
في الشهر الثامن يمكنك أن تشم عطر القرفة في كل مكان
في الشهر التاسع تقف زهور الأقحوان وقد اكتمل تفتحها
في الشهر العاشر يعيد الخطمي شيئاً من الربيع

في الشهر الحادي عشر تعكس زهور النرجس الشتاء وكأنها مرآة
في الشهر الثاني عشر تخبرنا زهور التشيمومانتس أن الربيع قادم

إن هذه الأغنية الشعبية تجعل زهرة تستضيف كل شهر. وبالطريقة ذاتها، توجد أغنية شهيرة في المسرحيات الصينية الشعبية (بينغ جيوي) تعرف باسم «تعداد أسماء الأزهار»:

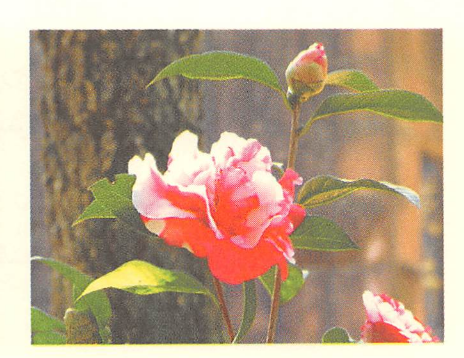
تتفتح جميع الأزهار في الوقت المناسب من الفصول الأربعة
جميعها مخلوقات جميلة من السماء والأرض
في نسمات الربيع يأتي كل شيء وينمو
وتجلب لك الزهور الحمراء والأوراق الخضراء لحظات من السعادة
أزهار الدراق براقة، أزهار الخوخ غنية، أزهار المشمش منعشة
تطاير أزهار عناقيد الصفصاف حول المدينة وتلامس وجهك

توجد في المسرحيات الأخرى الكثير من القصص المتعلقة بالأزهار، مثل «أحلام الحديقة السعيدة» لدو لي نيانغ، و«إحراق المخطوطات ودفن الزهور» للين داي يوي.

«كانت هناك زهور بنفسجية وحمراء في جميع أرجاء الحديقة؛ وكل ما تبقى الآن هو آبار جافة وجدران محطمة». تذوي الزهور بسرعة، وكذلك سرعان ما ينتهي عمر الإنسان. لطالما ألهبت هذه التشابيه مخيلات الناس، فوجدوا أوجه شبه بين حياة الإنسان ودورة حياة الزهور، ولطالما شعروا برابط بين أفئدتهم والطبيعة.

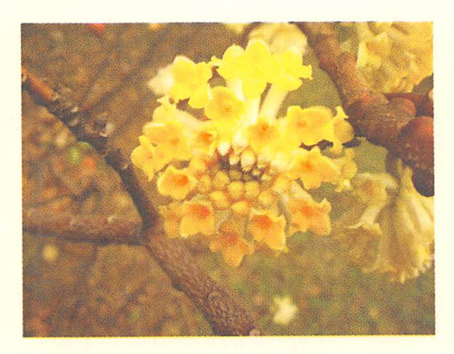
ثمة ارتباط جوهري بين الإنسان والطبيعة نقرأ جملة عنه في مسرحية «مقصورة عود الصليب» لدو لي نيانغ: «فقط لو كان بإمكانك أن تحب إنساناً كما تحب زهرة! فقط لو كان بإمكانك أن تحيا وتموت وتبعث كما تتمنى...»

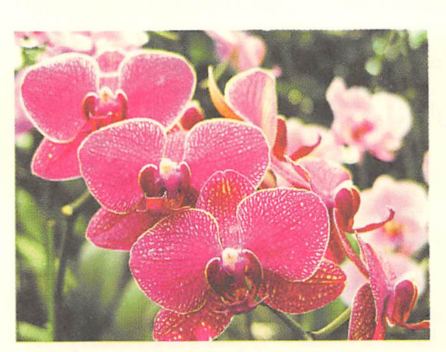
الأسماك والطيور والأعشاب والأشجار والتوت ودود القز؛ كل شيء يعيش ويزدهر ثم يذوي ويموت متقلباً بحسب التوازن السرمدي بين السماء والأرض المتجلي في الين واليانغ، وفي فصول السنة، وفي الفصول الشمسية. تجري الحياة بحسب الدائرة التي ترسمها هذه العلامات الفينولوجية.



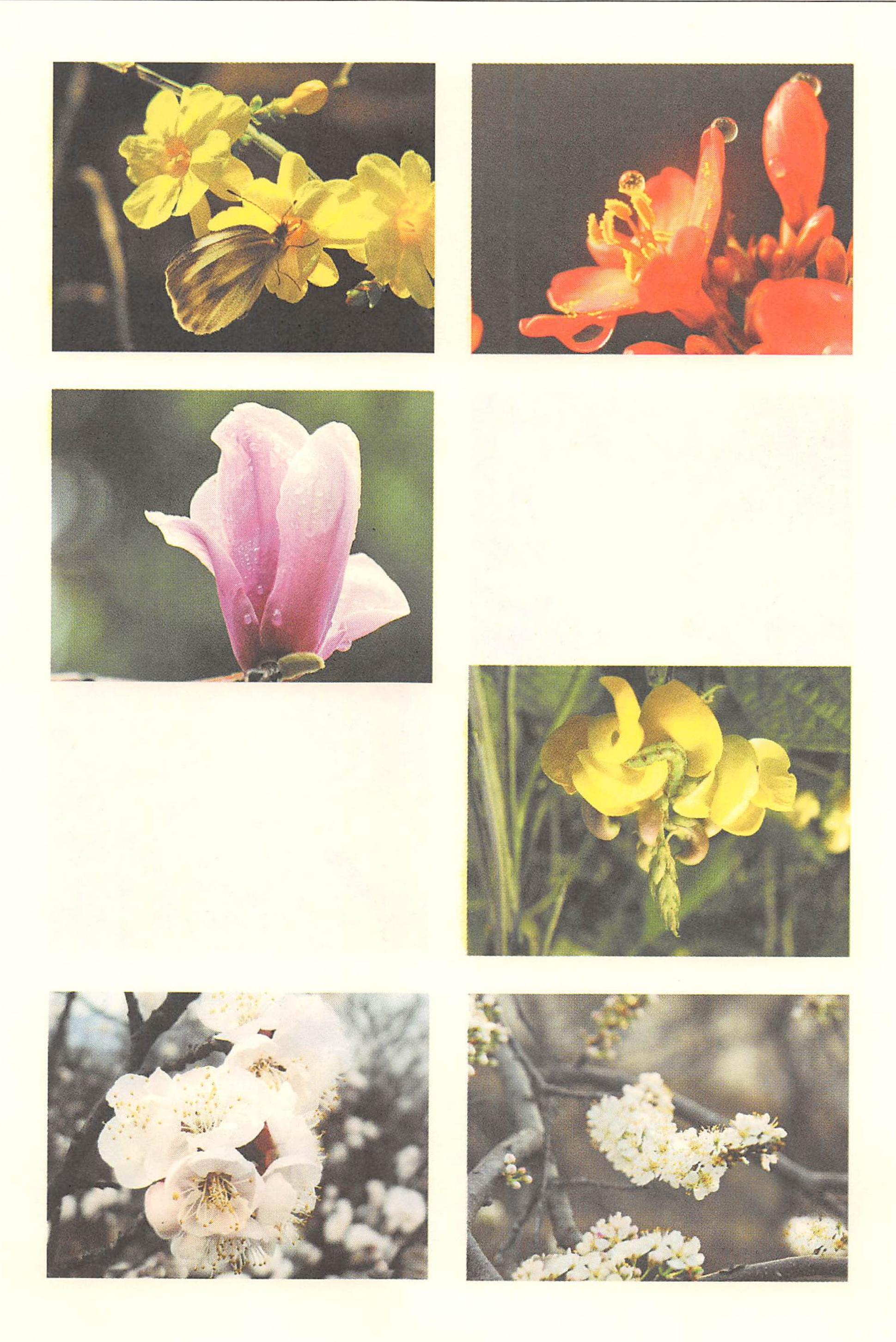
الصورة 4-12 علامات الرياح المزهرة الأربع والعشرون




















潤物的歌咏

الفصول الشمسية الصينية

الفصل الخامس

الفصول الشمسية ونظام الحياة:
الوحدة بين السماء والإنسان

مبادئ نظام الحياة

قال أستاذ الدراسات الصينية التقليدية جي شيان لين إن الوحدة بين السماء والإنسان تمثل أسمى مفاهيم الثقافة الصينية. إذ تنقسم حركة السماء إلى أربعة فصول، وبعد ذلك إلى ثمانية فصول شمسية، وبعد ذلك إلى الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. يمكننا القول إن الفصول الشمسية تمثل «طريق حركة السماء العظمى».

لحركة السماء مواقيتها الخاصة بها، وتسير طريق السماء العظمى في دوائر. تحكم السماء كل شيء في الكون، والإنسان أوسع المخلوقات الحية حكمة، ولكن الفصول الشمسية تمارس دون شك أثراً في غاية الأهمية على حياته. يعكس تسلسل الأفكار هذا وحدة السماء والإنسان، وقد كانت لدى الفلاسفة الصينيين القدامى حكمة متميزة وباعاً طويلاً في مجال هذه الفكرة؛ فلا نجد أي حضارة أخرى نشأ فيها علم الطب على أساس فكرة كهذه، ولكن الطب الصيني التقليدي يقوم بالفعل على فكرة المضاهاة والتماهي بين السماء والإنسان، ويدعو إلى نظام حياة يرتكز على فلسفة وحدة السماء والإنسان. (الصورة 5-1)



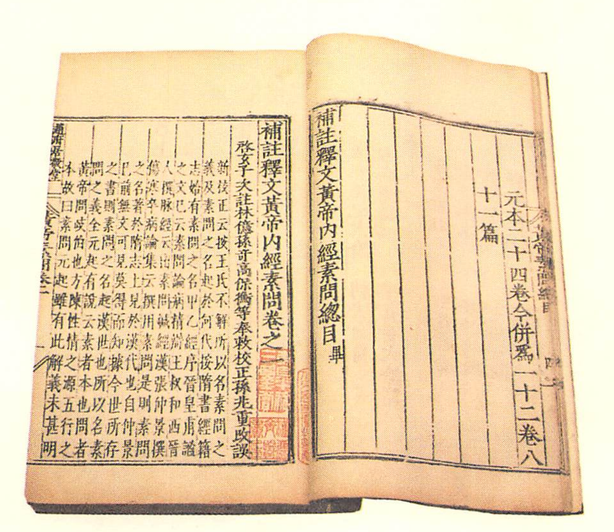
الصورة 5-1 «رسم تطهير القلب والتحول إلى ناسك»، رسم صيني طاوي قديم

لقد كان هناك الكثير من التقاليد المرتبطة بهذه الفكرة في الصين القديمة، ولا تزال تحتفظ باثنين من بينها تطبقهما بشكل واسع حتى في زمننا الحديث؛ أولهما هو الفصول الشمسية الأربعة والعشرون، وثانيهما هو الطب الصيني التقليدي؛ وكلا هذين التقليدين بمثابة «الأحافير الحية» التي تدل على الحضارة الصينية التقليدية، وكثيراً ما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحياة الصينيين؛ فالفصول الشمسية



تعكس «طريق السماء العظمى»، أما الطب الصيني التقليدي فيجسد «طريق الإنسان العظمى». وبحسب المبدأ الذي تقوم عليه فلسفة «وحدة السماء والإنسان»، إن الطريقين العظميين تتفاعلان مع بعضهما وتكملان بعضهما بعضاً. وكما قيل في «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني»: يولد الإنسان من طاقة تشي السماء والأرض، وينمو بحسب قوانين الفصول الأربعة، ومن هذه الحيثية تشبه حياة الإنسان حياة كل شيء آخر على سطح الأرض يتبع قوانين الفصول الشمسية. (الصورة 5-2)

قد تبدو مصطلحات «الفصول الشمسية» و«تشي اليانغ» و«طاقة الكلية» وكأنها مصطلحات روحانية لا تمت إلى الواقع بصلة، بل إنها قد تبدو لأول وهلة وكأنها تحتوي «قوى غامضة» تبعث على التفكير والتأمل. عند الانقلاب الشتوي، يطبخ الناس في مختلف مناطق الصين أنواعاً مختلفة من اللحوم بهدف رفع مستوى طاقة اليانغ في أجسامهم. ففي ذلك الوقت من السنة، يصل تشي الين وتشي اليانغ بين السماء والأرض إلى نقطة محورية في حركتهما؛ فيصل تشي الين إلى ذروته، ثم يبدأ بعد ذلك بالتضاؤل. أما تشي اليانغ فيصل إلى الحضيض، ويبدأ بعد ذلك بالازدياد. ويوافق هذا التعاقب معنى العبارة التي كثيراً ما تتردد في كتب الطب الصيني التقليدي المرجعية والتي تقول: «يولد أول قسم من اليانغ عند تسي شيه، أي عند بداية النهار



الصورة 5-2 «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني- الأسئلة المباشرة»، نسخة طبعت في عهد سلالة مينغ، وهي موجودة اليوم في «معرض الصين القديمة» في متحف الصين الوطني (تصوير كونغ لان بينغ)

يعتبر «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» أول مرجع طبي منهجي في تاريخ الصين. ويلخص الكتاب كامل ما توصلت إليه الخبرة الطبية الصينية قبل عهدي سلالتي تشن وهان. يعرض الكتاب نظريات حول الأعضاء الداخلية وخطوط تدفق طاقة التشي الحيوية والقنوات الفرعية، وكذلك نظريات حول مسببات الأمراض؛ وقد أرسى هذا العمل المرجعي أسس دراسة الطب الصيني التقليدي.



الصورة 5-3 رسم بياني يظهر مواضع الوخز بالإبر الطبية، ويعود إلى القرن الثامن عشر

الوخز بالإبر الطبية من وسائل العلاج التي اشتهر بها الطب الصيني التقليدي. ويُظهر هذا الرسم البياني عدداً من نقاط الوخز للسيطرة على أمراض القلب والأمراض الجنسية.

أو أول ساعتين منه». ولما كان الانقلاب الشتوي هو «تسي شي» السنة، فهو البداية التي يولد عندها تشي اليانغ. ولذلك، إن الانقلاب الشتوي وقت في غاية الأهمية بالنسبة للأشياء التي تحكمها طاقة اليانغ وخاصة في الرجال، فتشي اليانغ هو الطاقة النارية داخل الكليتين في جسم الرجل. لذلك، يجب على الرجال في ذلك اليوم أن يتناولوا طعاماً يقوي قوة اليانغ الجنسية. إن هذه النظرية سهلة للغاية ويسهل فهمها.

توجد طاقتا الين واليانغ بين السماء والأرض، كما توجد طاقة جينغ والدم في جسم الإنسان. وتوجد خمسة عناصر في الكون، كما توجد خمسة أعضاء حيوية في جسم الإنسان، وغير ذلك من أوجه التوافق التي تشير إلى الارتباط الطبيعي بين السماء والإنسان، وهو التوافق الرائع والعجيب الذي تعرِّفه نظرية الطب الصيني التقليدي وتقوم عليه. (الصورة 5-3)

يقوم الطب الصيني التقليدي على وسائل طبيعية للعلاج بالدرجة الأولى، وتتبع وسائل العلاج فيه ونظام الحمية أسلوبَ الحياة التي يشير إليها المبدأ ذاته: التناسب والتوافق بين السماء والإنسان.

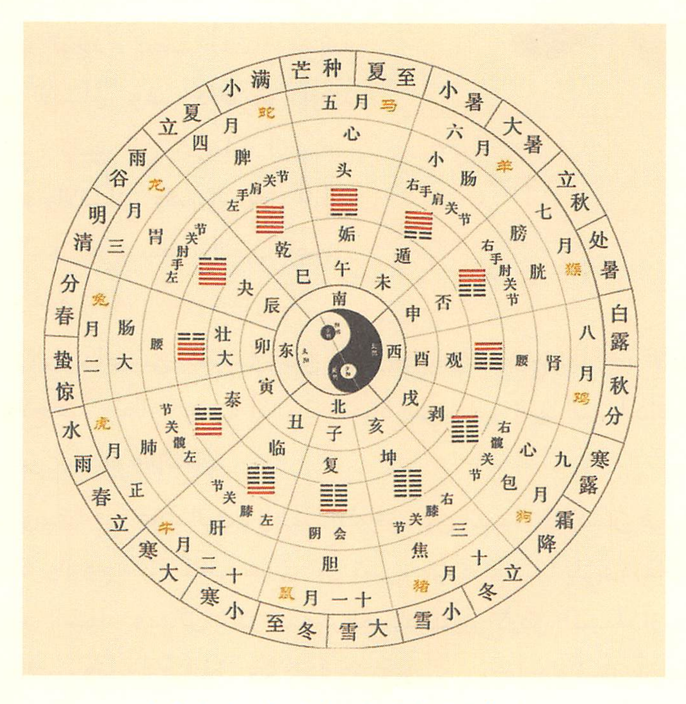
ثمة وصف في غاية الوضوح لهذا التوافق بين السماء والإنسان في «محاضرة حول الطاقة والروح» في كتاب هواي نان تسي، حيث نجد ما يلي: «تماثل استدارة رأس الإنسان السماء، ويماثل شكل قدميه المستطيلتين الأرض. للسماء أربعة فصول، وخمسة عناصر، وتسعة مناطق، وثلاثمئة وستة وستون يوماً. وللإنسان أربعة أطراف، وخمسة أعضاء حيوية، وتسع فتحات، وثلاثمئة وستة وستون مفصلاً. للسماء الرياح



والمطر والبرد والحر، وللإنسان القدرة على العطاء والأخذ والفرح والغضب. وكذلك تماثل المرارة السحب، وتماثل الرئتان البخار، ويماثل الكبد الرياح، وتماثل الكليتان المطر، ويماثل الطحال الرعد. جميع هذه الأعضاء تماثل أشياء موجودة بين السماء والأرض، والقلب هو العضو الحاكم عليها. ولذلك تماثل العينان والأذنان الشمس والقمر، أما الدم والتشي فيماثلان الرياح والمطر». (الصورة 5-4)

إذا تفحصنا نظرية الوحدة بين السماء والإنسان من زاوية العلم الحديث، فربما كانت تحتوي على تشبيهات لا تخلو من التكلف، ولكنها تظل الفكرة الأساسية والمقاربة المرشدة التي يقوم عليها الطب الصيني التقليدي، ولا غنى عنها؛ ليس فقط في تفسير علم وظائف الأعضاء وعلم أسباب الأمراض، بل أيضاً في تطبيق الطب الصيني التقليدي عملياً.

اكتمل تأليف «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» في عهد



الصورة 5-4 رسم بياني لمبدأ نظام الحياة الذي يقوم على الوحدة بين السماء والإنسان

سلالة هان الشرقية، ومن يقرأ هذا العمل المرجعي في الطب الصيني التقليدي لا بد أن يلاحظ أنه قد توارث أفكار تراسل الإنسان والسماء من كتاب «هواي نان تسي» وطبّقها على الطب. لقد تأسست كامل فلسفة الطب الصيني التقليدي على أساس ما في هذا الكتاب، وهنا نجد أن الكتاب يكثر من النقاش حول نظام الحياة عموماً ونظام الحمية خصوصاً بدلاً من معالجة الأمراض، وذلك لأن الطب الصيني التقليدي ينظر إلى العلاج ونظام الحمية على أنهما مترادفان؛ فجوهرهما واحد إلى درجة أنه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

عنوان الفصل الأول من «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» هو ««في طريقة حفظ الطاقة السماوية الحقيقية في الأزمنة القديمة»، ويذكر في أوله أن «الناس الذين كانوا يعرفون الطريق العظيمة في الأزمنة القديمة كانوا يتبعون قوانين الين واليانغ، ويناغمون بين الطرائق والأنماط المختلفة؛ فكانوا معتدلين في طعامهم وشرابهم، وكانت لديهم طرائق عيش منتظمة، حيث لا يفرطون في العمل ولا يكثرون من اتباع أهوائهم، ولذلك كانوا يحفظون أجسادهم وعقولهم جيداً ويصلون إلى العمر الذي متعتهم به السماء، ولم يموتوا إلا بعد وصولهم إلى سن المئة».

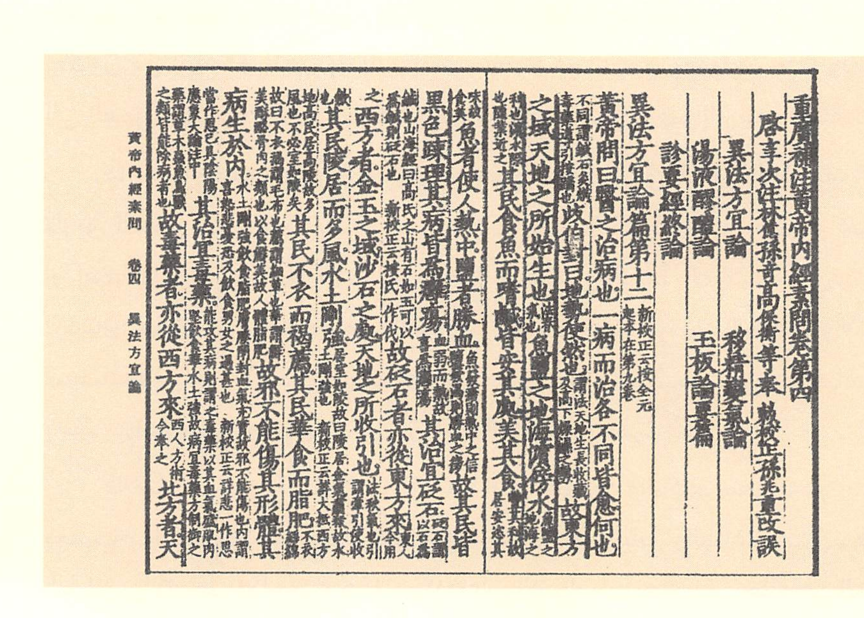
ما تعنيه «معرفة الطريق العظيمة» هو «معرفة طريق السماء العظيمة»، وسر طريق السماء هو الامتلاء بطاقة تشي الين أو تشي اليانغ أو الفراغ منها أو تقويتها أو إضعافها. ويتجلى هذا السر في مبادئ الطرائق والأنماط المختلفة التي ينشئها الإنسان؛ فحين يتّبع شخص ما قوانين الين واليانغ، ويناغم بين الطرائق والأنماط المختلفة، ويراعي الاعتدال في مأكله ومشربه، ويؤسس لنمط معتدل من الحياة، فقد يحظى بعمر طويل ولا يموت قبل أن يبلغ المئة من العمر.

فالمبدأ الأساسي لنظام الحياة إذاً هو اتباع الطبيعة والتكيف معها، وهو التحرك بحسب مواقيت السماء، وهو أيضاً اتباع قوانين الين واليانغ والمناغمة بين مختلف الطرائق والأنماط. وما يعنيه هذا هو أنه على الإنسان أن يعيش في حالة من التناغم مع تشي الين وتشي اليانغ بين السماء والأرض. وكما أن تقلب الفصول الشمسية الأربعة والعشرين تجلٍّ للتحول في طاقة تشي الين وتشي اليانغ بين السماء والأرض، فإن اطلاع الإنسان على أسرار هذه النظرية سيسهّل عليه معرفة المبدأ الذي يقوم عليه نظام الحياة.



من المثير للاهتمام أن نعرف أن «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» يصنِّف الإنسان الذي غاص في هذه الأسرار وتوصّل إلى حقيقتها وتمكَّن من التمتع بالعمر الطويل على أنه «الإنسان الحقيقي» و«الإنسان الأعلى» و«الإنسان القدسي» و«الإنسان الحكيم». وأسرار طول العمر التي يتوصل إليها الناس الذين ينتمون إلى هذه الفئات الإنسانية الأربع هي المبادئ الأساسية المؤدية إلى الوحدة بين السماء والإنسان. على سبيبل المثال، يستطيع الإنسان الحقيقي أن «يستوعب قوانين السماء والأرض، وأن يتمكن من الين واليانغ»، أما الإنسان الأعلى «فيناغم بين الين واليانغ ويتلاءم مع الفصول الأربعة»، في حين أن الإنسان القدسي يستطيع «أن يظل متناغماً مع السماء والأرض ويتبع مبادئ الرياح الثمانية»، بينما يستطيع الإنسان الحكيم «أن يسير مع الين واليانغ ويتصرف بشكل مختلف في الفصول الأربعة».

تتطلب جميع هذه التوصيفات ودون استثناء القدرة على التكيف مع مواقيت



重廣補注黃帝內經素問卷第四

啟玄子次注林億孫奇高保衡等奉敕校正孫兆重改誤

異法方宜論　移精變氣論

湯液醪醴論　玉版論要篇

診要經終論

異法方宜論篇第十二

黃帝問曰醫之治病也一病而治各不同皆愈何也岐伯對曰地勢使然也故東方之域天地之所始生也魚鹽之地海濱傍水其民食魚而嗜鹹皆安其處美其食魚者使人熱中鹽者勝血故其民皆黑色疏理其病皆為癰瘍其治宜砭石故砭石者亦從東方來西方者金玉之域沙石之處天地之所收引也其民陵居而多風水土剛強其民不衣而褐薦其民華食而脂肥故邪不能傷其形體其病生於內其治宜毒藥故毒藥者亦從西方來北方者天

黃帝內經素問　卷四　異法方宜論

الصورة 5-5 «حول ملاءمة مختلف العلاجات والوصفات» في « كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني - الأسئلة المباشرة»

يشتمل جزء «الأسئلة المباشرة» من «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» على *81* فصلاً في تسعة مجلدات. وهو يناقش مواضيع مثل نظام الحياة، والعناية بالصحة، والين واليانغ، والعناصر الخمسة، وتجليات الأعضاء الباطنية، وعلوم الأمراض وأسبابها ونظريات تشخيصها، ونظريات المبادئ العلاجية.

السماء، والوصول إلى التناغم مع فصول السنة والرياح الثماني؛ وهذا هو المبدأ الأساسي المرشد لنظام الحياة الذي يدعو إليه الطب الصيني التقليدي. (الصورة 5-5)

يتضمن علم الأحياء الحديث نظريات حول «الساعة البيولوجية» و«الوتيرة البيولوجية». وقد شاع ذكر هذه النظريات، حيث قلما تجد إنساناً متعلماً لم يسمع عنها. فالوتيرة التي يعمل بها الجسم تبدو وكأن ثمة مفتاحاً يدير نوابض ساعة تسير معها حياة الجسم في دورات منتظمة، وهذا المفتاح ليس في الحقيقة إلا قوانين الطبيعة كما تظهرها الفصول الشمسية الأربعة والعشرون. وإذا تمكن شخص ما من إحكام معرفته بهذا المفتاح حقاً، فسوف يتمكن من «الإمساك بالكون في يده، ومن صنع مليون معجزة من جسمه»، فيصبح إنساناً حقيقياً يجسد الطريق العظمى؛ وعندها سوف يتمكن هذا الإنسان من التمتع بعمر طويل بالتأكيد!



| ممارسات نظام الحياة في المواسم المختلفة

يعيش الإنسان بين السماء والأرض، ولا شك في أن الرياح والبرد والحر والرطوبة والجفاف والنار جميعها تؤثر على جسمه أيما تأثير، وينعكس هذا حتى على مصطلحاته. لذا، نجد في اللغة الصينية عبارات مثل «لدي حريق» أو «لقد قرعتني الرياح والبرد» أو «لقد ضربني الحر»؛ فهذه كلها إشارات إلى تغيرات في المناخ يشعر بها الجسم وقد تصيبه بالمرض. يعتبر الطب الصيني التقليدي أن فيزيولوجيا الإنسان- بما في ذلك أعضاؤه الداخلية، وخطوط الطاقة فيها، والتشي، والدم، والين واليانغ- تتغير في دورات محددة مع تقلب المناخ عبر الفصول. ففي الربيع، يتركز التشي في خطوط الطاقة. وفي الصيف، يتركز في المستوى الثالث من القنوات الفرعية. أما في الصيف الطويل فيتركز في العضلات، وفي الخريف يتركز في الجلد، في حين أنه في الشتاء يتركز في نخاع العظام. وكذلك يتجلى التشي بصفات مختلفة في الفصول المختلفة: فهو دافئ في الربيع، وحار في الصيف، ورطب في الصيف الطويل، ومعتدل في الخريف، وبارد في الشتاء.

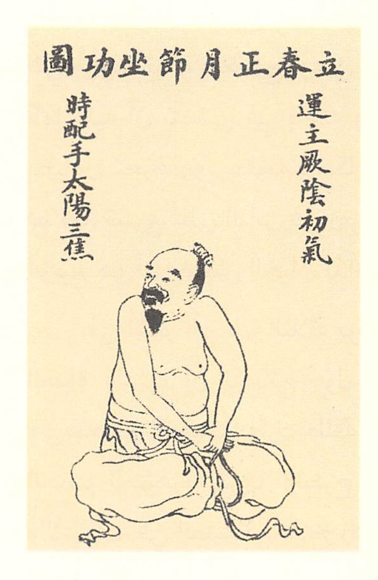
يعكس تشي اليانغ في جسم الإنسان هذه الوتيرة من الارتفاع والطوفان والغرق والهبوط. فيظهر نمط الطوفان في نبض الإنسان في الربيع، ويصبح النبض زاخراً في الصيف، ويصبح وكأنه وتر آلة موسيقية في الخريف، أما في الشتاء فيصبح عميقاً. توجد أربعة فصول هي الربيع والصيف والخريف والشتاء بين السماء والأرض. وبالمقابل، يحتوي جسم الإنسان على التكافؤ والذروة والبداية والإغلاق. إذاً، تشكل السماء والأرض معاً «كوناً أكبر»، أما جسم الإنسان بما يحتويه من غرائب فيشكل «كوناً أصغر». يعود هذا الفهم الدقيق لعلاقة الوحدة هذه إلى زمان غابر وسحيق في تاريخ الصين. وقد أدت هذه الفكرة إلى استحداث أنظمة حياة وحمية لا حصر لها عبر تاريخ السلالات المتعاقبة على حكم الصين.

يناقش أول فصل من «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» كيفية ممارسة نظام حياة يعتمد على نظام حياة طيبة بدلاً من معالجة الأمراض. ولقد أوردنا المبدأ الذي يقوم عليه نظام الحياة الذي اقترحه الفصل الأول من الكتاب: ««في طريقة حفظ الطاقة السماوية الحقيقية في الأزمنة القديمة»، أما الفصل

الثاني: «نقاش كبير حول كيفية تعديل الروح في تشي الفصول الأربعة» فيتضمن نقاشاً كاملاً حول كيفية ممارسة الإنسان لنظام حياة يعتني من خلاله بصحته ويتكيف مع التغيرات المناخية في الفصول الأربعة، فنقرأ فيه ما يلي: «الفصول الأربعة والين واليانغ أساسُ كل شيء في الكون. ولذلك يُنمّي الإنسان القدسي طاقة اليانغ فيه أثناء الربيع والصيف، وطاقة الين أثناء فصلي الخريف والشتاء حتى يماثل القانون الذي تقوم عليه جذوره وأصوله؛ وبذلك يتمكن من التغير أمام بوابة الولادة والنمو الكبرى مع كل شيء آخر في الكون. فإذا اتبع المرء مساراً يعاكس مسار جذوره وفروعه فسوف يعرّض أساساته للضرر ويؤذي طاقته الحقيقية».

يقول القانون الأساسي حول التكيف مع الفصول الأربعة والين واليانغ إنه على الإنسان أن «يُنمّي اليانغ في الربيع والصيف، والين في الخريف والشتاء»، وقد بيَّن «كتاب الإمبراطور المرجعي في الطب الباطني» تفاصيل هذا المبدأ العام بالشكل التالي:

أشهر الربيع الثلاثة هي فترة إطلاق سراح الطاقة القديمة؛ فتبدأ السماء والأرض بالنمو، وكل شيء في الكون يزهر ويتفتح، وعلى الإنسان أن ينام طوال الليل ويستيقظ مبكراً، وعليه أيضاً أن يسير في الباحة ببطء، كما عليه ألا يربط شعره إذا كان طويلاً، وأن يبطئ من حركته حتى تتنامى قدرته، وهكذا ينسجم الإنسان مع طاقة التشي في الربيع؛ وهي الطريق الكبرى في إنماء طاقة الولادة، وإذا تصرف الإنسان عكسها فسوف يتضرر كبده ويصاب «بالمرض البارد» في الصيف، وسوف تكون طاقته للاستمرار في موسم النمو أقل. (الصورة 5-6)



الصورة 5-6 رسم بياني لممارسة التأمل في بداية الربيع والفصول الشمسية في الشهر الأول من نظام الحياة الذي وضعه تشن شي يي لمعالجة الأمراض في الفصول الشمسية الأربعة والعشرين

«التأمل لمعالجة الأمراض في الفصول الشمسية الأربعة والعشرين» ممارسة تأملية وضعت من أجل نظام حياة عملي يعالج الأمراض على أساس التناسب والتوافق بين تدفق التشي في الفصول الشمسية الأربعة والعشرين وخطوط تدفق الطاقة في جسم الإنسان.



أشهر الصيف الثلاثة هي فترة النمو والازدهار، حيث تتبادل طاقة التشي في السماء التفاعل مع طاقة التشي في الأرض، فيزدهر كل شيء ويطرح ثماره. وعلى الإنسان أن ينام في الليل ويستيقظ باكراً، كما عليه ألا يتجنب الشمس، وعليه ألا يسمح لنفسه بالانجرار وراء عاطفة الغضب حتى يحافظ على الطاقة الجوهرية في جسمه فتزهر هذه الطاقة وتطرح ثمارها، كما عليه أن يسمح لطاقة التشي بالانطلاق إلى الخارج؛ فيتصرف وكأن روحه تحب ما هو خارج نفسه. وهكذا، ينسجم الإنسان مع طاقة التشي في الصيف؛ وهي الطريقة الكبرى في إنماء طاقة النمو، وإذا تصرف الإنسان بعكسها فسوف يتضرر قلبه ويصاب بالملاريا في الخريف، كما سيعاني من أمراض خطيرة في الصيف.

ما يعنيه إطلاق سراح الطاقة القديمة هو ترك الطاقة القديمة حتى تولد طاقة جديدة مكانها. والربيع هو الموسم الذي تبدأ فيه الحياة بإخراج براعمها، فيولد كل شيء ويبدأ نباته بالخروج. وعلى الإنسان في ذلك الوقت أن يبدأ بإطلاق سراح الطاقة، كما عليه أن يتمشى في باحته وألا يربط شعره؛ فقد كان الناس في الصين القديمة يطيلون شعرهم ويربطونه بإحكام ويعتمرون القبعات، ولكن هذه القوانين الاجتماعية لم تعد تسري على الناس في زمننا المعاصر. باختصار، إن ما تقوم به طاقة التشي في الربيع هو أنها تنعش الحياة. لذا، إن الكلمة الأساس في هذه الفترة هي الولادة.

في أشهر الصيف الثلاثة يزدهر كل شيء ويثمر، ما يعبر عن التغير والنضج في الحياة. ولذلك، إن النصائح حول أسلوب الحياة الذي يجب اعتماده في ذلك الموسم هي تجنب الغضب، وترك طاقة التشي حتى تنطلق إلى خارج الجسم، وترك طاقة الجسم الجوهرية تزهر وتطرح ثمارها. وما يعنيه هذا هو أنه وكما تنمو الأشجار والأعشاب في الصيف فتتفتح زهورها وتطرح ثمارها، ينقل قلب الإنسان الدم ليوفر الغذاء لكامل جسم الإنسان. ولذلك، الكلمة الأساسية في الصيف هي النمو.

على العموم، ينبغي على الإنسان أن ينمي طاقة تشي اليانغ فيه خلال فصلي الربيع والصيف، كما عليه أن ينمي طاقة تشي الين في فصلي الخريف والشتاء. وتسمى فترة أشهر الخريف الثلاثة أيضاً: «فترة الوقار والسلام»؛ حيث ينضج كل شيء، ويبدو كل شيء في الكون متماسكاً ومحافظاً. فعلى الإنسان أن يقبض قواه الروحية وطاقة التشي الخاصة به حتى يتكيف مع صفات بداية انكفاء الحياة في الخريف.

ولذلك، إن الكلمة الرئيسة التي تعبر عن نظام حياة الخريف هي: الانكفاء، كما قيل: «هكذا ينسجم الإنسان مع طاقة التشي في الخريف، وهي الطريق الكبرى لإنماء قوة الانكفاء». أما أشهر الشتاء الثلاثة فهي الوقت الذي يبرد فيه الطقس ويخفي كل شيء نفسه. لذا، إن الكلمة الأساسية لنظام حياة الشتاء هي: الاختفاء.

«الولادة في الربيع والنمو في الصيف والانكفاء في الخريف والاختفاء في الشتاء»، تلخص هذه العبارات فلسفة نظام الحياة التي يدعو إليها الطب الصيني التقليدي. لكن من أجل مطابقة هذه الفصول مع أعضاء الإنسان الباطنية الخمسة الأساسية اشتق فصل «الصيف الطويل» من فصل الصيف، فتتطابق هذه الفصول الخمسة بالترتيب مع كبد الإنسان وقلبه وطحاله ورئتيه وكليتيه، كما تتطابق مع الوظائف الخمس: الولادة والنمو والتحول والانكفاء والاختفاء، وكذلك مع العناصر الخمسة: الخشب والنار والتراب والمعدن والماء؛ فيتوافق عنصر التراب مع الصيف الطويل.

تبين الصورة 5-7 بوضوح مبدأ نظام الحياة في الفصول الأربعة. وإذا عبّرنا عن تلك الأفكار ببساطة، فعلى الإنسان أن يعتني بكبده ويبني قوته في الربيع، وعليه أن يعتني بقلبه في الصيف، ويعتني بطحاله في الصيف الطويل، وبرئتيه في الخريف، وبكليتيه في الشتاء. إن مبدأ نظام الحياة هذا يعني أنه على الإنسان أن يتنبه إلى نظام غذائه وسلامة



الصورة 5-7 رسم بياني لنظام حياة الفصول الأربعة



أسلوب حياته، وأن يتكيف مع تقلبات الفصول الشمسية وفصول السنة. (الصورة 5-7)

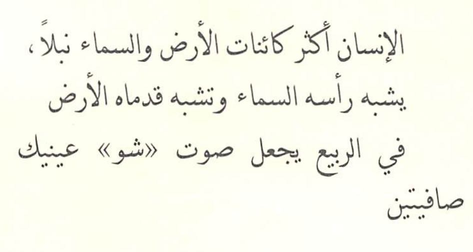
خلال عهدي سلالتي سوي وتانغ، عاش طبيب مشهور يدعى سون سي مياو، ولكن الناس كانوا يطلقون عليه اسم: «الرجل الحقيقي سون»، وقد كان الغموض يلف عمره الحقيقي؛ فقد ذهب بعض الناس إلى أنه عاش حتى بلغ 168 سنة، وقال آخرون إنه مات وقد بلغ 148 سنة. الشيء الوحيد المؤكد هو أن عمره عند موته كان قد وصل 101 سنة على الأقل، ولا بد أن هذا جعله إنساناً مميزاً للغاية، لاسيما وأن الصينيين إجمالاً كانوا بالكاد يبلغون سن السبعين في ذلك الزمن. لقد جعله عمره الطويل ذاك أحد أشهر الناس بطول العمر ونظام الحياة في تاريخ الصين، وكان من نتائج خبرته الطبية الواسعة والشهرة التي نالها أن أطلق الناس عليه خلال الأجيال والسلالات التالية لقب: «ملك الطب». (الصورة 5-8)

ألّف سون سي مياو أغنية شعبية تحت عنوان «أغنية الرجل الحقيقي سون في الحفاظ على الصحة»، وقد بدأت الأغنية في بيتها الأول بالشكل التالي: «الإنسان أكثر كائنات الأرض والسماء نبلاً، يشبه رأسه السماء وتشبه قدماه الأرض»، ويلخص هذا البيت كامل فلسفة التوافق والوحدة بين السماء والإنسان. بعد ذلك، تصف الأغنية طرائق محددة في نظام الحياة ترتكز على اعتناء الإنسان بمأكله ومشربه، وممارسته التمارين الجسدية في فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء. أما الأغنية كاملة فهي كما يلي:



الصورة 5-8 سون سي مياو، الطبيب والراهب الطاوي الذي عاش في حقبة سلالة تانغ، ولد في هوايوان، جينغتشاو (التي تسمى اليوم مقاطعة ياو في شانشي)

اشتهر سون سي مياو باسم «ملك الطب»، وكان طبيباً مشهوراً في عهد سلالة تانغ، كما تمتع بعمر طويل أصبح خلاله أحد أعظم علماء الطب والصيدلة في الصين، وربما في العالم كله.



الإنسان أكثر كائنات الأرض والسماء نبلاً،
يشبه رأسه السماء وتشبه قدماه الأرض
في الربيع يجعل صوت «شو» عينيك صافيتين

ويساعد صوت «خه» قلبك
وصوتا «سي» و«تشوي» في الخريف والشتاء
يجعلان رئتيك وكليتيك أكثر سعادة
وصوت «هو» حسن لجميع الفصول
حتى يذوب الطعام في طحالك
صوت «شي» جيد حقاً للثلاثة جياو في جسمك
ويمكنه أن يزيل الحرارة والغضب
عليك أن تمشط شعرك كثيراً
عليك أن تهذب من التشي الخاصة بك
عليك أن تصر بأسنانك بلطف صعوداً وهبوطاً
إذا كنت تود أن تكون خالداً
فعليك أن تعتني برأسك جيداً
عليك أن تستخدم جميع أصابع يديك
وعليك أن تدلك وجهك كثيراً
عليك أن تقلل من أكل الطعام الحامض في الربيع
وتتناول كمية أكبر من الطعام الحلو
الطعام المر جيد للغاية لأشهر الشتاء
وليست الوجبات المالحة أفضل منه
في الصيف الطعام الحريف جيد
وعليك ألا تتناول طعاماً مراً
في الخريف ضع الطعام الحريف جانباً
والأشياء الأكثر حموضة ممتازة حقاً
في آخر أشهر الفصول كلُ
طعاماً أقل ملوحة وحلاوة بعض الشيء
وهكذا تصبح أعضاؤك الداخلية الخمسة بصحة جيدة



يمكنك أن تجعل جسمك بصحة جيدة فعلاً
وإذا فضّلت أياً من تلك الأشياء
فسيأتيك المزيد من الأمراض من هناك
فالطقس لا يزال بارداً للغاية في الربيع
وعليك ألا ترتدي ثياباً حريرية رقيقة
وفي أشهر الصيف يصبح جلدك كثير التعرق
لذا عليك أن تغير ثيابك كثيراً
الخريف والربيع أبرد
لذا عليك أن ترتدي المزيد والمزيد من الثياب
وعليك أن تتناول دواء ما للوقاية من الأمراض
لا تنتظر حتى يخبرك المرض بأنك انتكست
فليس من السهل بالنسبة لك في أشهر الصيف
أن تعتني بجسمك
فالين يختبئ داخلك في أعمق مكان قد يكون فيه
لذلك لا تشرب الكثير من الماء البارد
البطيخ والدراق البارد والنيء
عليك أن تتناول القليل منهما لا الكثير
فعندها ستمنع الملاريا والإسهال
عندما يأتي الخريف وينتهي الصيف

تركز هذه الأغنية الشعبية على تغيرات المناخ في الفصول الأربعة، وتشير إلى أن الناس عليهم أن يعيشون حياتهم ويحفظوا صحتهم بحسب ما تقتضيه الفصول، كما عليهم أن يحققوا الوحدة بين السماء والأرض إذا أرادوا التمتع بعمر طويل.

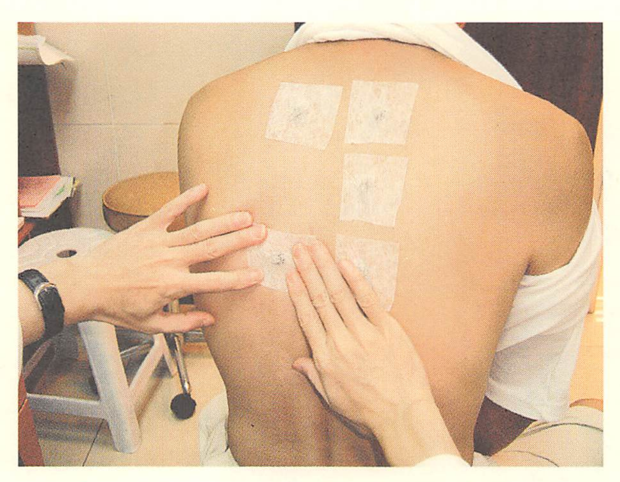
وبالإضافة إلى الانتباه إلى أسلوب الحياة والطعام والشراب، يجب على الناس أيضاً أن يمارسوا التمارين الجسدية بنشاط. كتب تشيو تشو جي، الطاوي العظيم الذي عاش في الصين القديمة، والذي كان يحمل لقب «إنسان تشانغ تشون الحقيقي»،

مقالة تحت عنوان «في أسرار الحفاظ على الصحة» بيّن فيها مبادئ نظام الحياة في الفصول الأربعة، واقترح فيها طرائق محددة في الداو يين والتدليك الذاتي. على سبيل المثال، يستطيع الإنسان في فصل الربيع أن يجعل أسنانه تصطك ستاً وثلاثين مرة قبل أن يأوي إلى الفراش أو حين يستيقظ في الصباح. والغاية من ذلك هي زيادة قوة الكليتين، وإزالة الطاقة الفائضة من الكبد كي يشعر بصفاء في ذهنه وانتعاش في روحه، وبذلك يكون قادراً على الانسجام مع طاقة ولادة الربيع. في أشهر الصيف الثلاثة، على الإنسان أن يمشط شعرة مئة أو مئتي مرة كل يوم في مكان لا رياح فيه، وعليه ألا يحرك المشط بقوة حين يلامس جلد الرأس لأن الرأس هو النقطة التي تلتقي عندها جميع خطوط مسارات الطاقة في الجسم، ولا يجب أن تهب عليه الرياح مباشرة، ويجب أن يتم التمشيط بلطف وبطء يتوافقان مع طاقة النمو في الصيف. أما في أشهر الخريف الثلاثة، فعلى الإنسان أن يغمض عينيه ويجعل أسنانه تصطك إحدى وعشرين مرة في الصباح، ثم عليه أن يبتلع لعابه، وكذلك عليه أن يفرك يديه حتى تصبحا دافئتين ثم يغطي بهما عينيه، وأن يعيد هذه العملية عدة مرات. وإذا كرر ذلك عدة أيام أثناء الخريف، فإن هذا سيفيد بصره كثيراً. تتناسب هذه العملية مع وقت الخريف، حيث تتجلى طاقة الانكفاء وطاقة تشي الرئتين القادرة على تطهير الطاقة ونقلها. أما نظام الحياة الذي يدعى تشيو فهو تدليك وسط أخمصَي القدمين قبل الإيواء إلى الفراش في الليل وعند الاستيقاظ في الصباح؛ فهذا يزيد طاقة الين في الكليتين ويقوي طاقة اليانغ فيهما، ويتطابق مع طاقة الخفاء في الشتاء. (الصورة 5-9)



الصورة 5-9 تشيو تشو جي (1148-1227) وقد اشتهر باسم «تونغ مي»، وكذلك باسمه كرجل دين طاوي: «تشانغ تشون تسي». كان تشيو راهباً طاوياً ينتمي إلى طائفة تشوانتشن الطاوية في آخر عهد سلالة جين في الصين.





الصورة 5-10 معالجة أمراض الشتاء أثناء الصيف، تظهر الصورة «لصقة حرور فو الثلاثة»

توضع «لصقة حرور فو الثلاثة» على مواضع معينة في الجسم في تاريخ بداية حر فو الأول في فصل الصيف في التقويم الصيني القمري. ويقال إن هذه اللصقة قادرة على الوقاية من بعض الأمراض التي تهجم في الشتاء، كما أنها قادرة على معالجتها.

تصرح إحدى المقولات المتداولة في الطب الصيني التقليدي بما يلي: «يمكن للمرض الذي يحدث في الشتاء أن يعالَج في الصيف، كما يمكن للمرض الذي يحدث في الصيف أن يعالَج في الشتاء». على سبيل المثال، يمكن لكي الجلد عند نقاط الوخز بالإبر الطبية في الظهر عند حلول حرور فو الثلاثة أن يترك أثراً ممتازاً لعلاج الربو الذي يحصل في فصل الشتاء. ونظرية الطب الصيني التقليدي الكامنة خلف هذه الممارسة هي أنه «على الإنسان أن ينمي طاقة اليانغ فيه خلال شهري الربيع والصيف»، وكيّ الجلد يمكنه أن يدفئ طاقة تشي اليانغ ويزيدها، ما يساعد على الوقاية الفعالة من أمراض الزكام والربو التي تحصل في الشتاء.

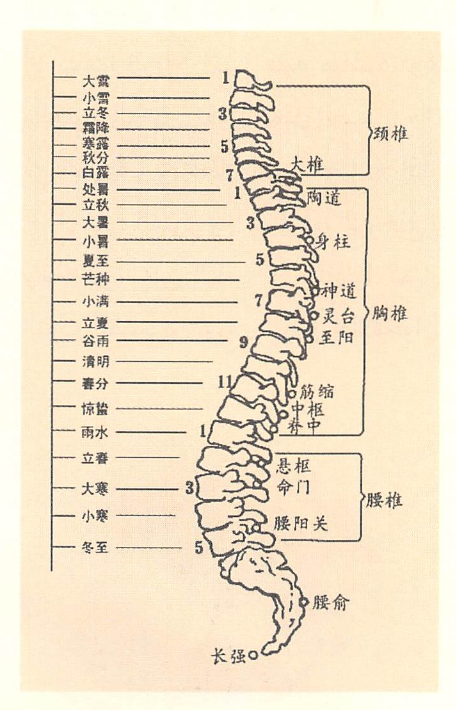
بالنسبة إلى طبيب ماهر في الطب الصيني التقليدي، لا يعكس علاج الأمراض وشفاؤها أداء جيداً منه لمهمته، إذ إنّ الأداء الجيد الحقيقي هو أن يتمكن من الوقاية من الأمراض، حيث لا تحدث أصلاً، أو- في أسوأ الأحوال- إزالة المرض تماماً عند أول ظهور أعراضه. يقول «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» إن «أفضل الأطباء هو من يعالج الأمراض قبل أن تهجم، وليس من يعالجها بعد ذلك».

إذاً، إن الغاية من نظام الحياة خلال فصول السنة الأربعة هي التأقلم مع مواقيت السماء والوقاية من الأمراض. (الصورة 5-10)

| ممارسات أنظمة الحياة في الفصول الشمسية المختلفة

لو اعتبرنا الجسم البشري آلة، فالفصول الشمسية الأربعة والعشرون هي المفاتيح التي تشغل هذه الآلة. وكما أسلفنا من قبل، إن هذه الفصول تجسِّد طاقتي الين واليانغ وطريق السماء الكبرى. لكن جسم الإنسان «آلة» تحكمها روح عاقلة تتمتع بالقدرة على التفكير والحكم والاختيار، وليس الإنسان في إدراكه لنفسه ومحيطه إلا هذه الروح، لذا لا يجب عليه أن يستسلم لتقلبات الطبيعة فقط ويتكيف معها ويخضع لقوانينها باستكانة. كما أن العقل الذي يتمتع به الإنسان قادر على ملاحظة التغيرات في الطبيعة والتفاعل معها بإيجابية ليحسن من صحته ويطيل من عمره.

اكتشف الصينيون القدامى نمط الفصول الشمسية الأربعة والعشرين وطبقوه؛ ليس في الإنتاج الزراعي فقط، بل أيضاً في مجال العناية بالصحة. تشمل نظريات أنظمة الحياة القديمة في الصين مبدأ الوحدة بين السماء والإنسان، وكذلك تشمل أنظمة حياة موسمية تركز على التكيف مع فصول السنة الأربعة، وكذلك التعليمات الشهرية التي تعتبِر كل شهر بحد ذاته دورة، وكذلك نظام الحياة بحسب الفصول الشمسية الأربعة والعشرين الذي يَعتبِر أن كل فصل شمسي يمتد خمسة عشر يوماً دورة بحد ذاته. (الصورة 5-11)



الصورة 5-11 رسم بياني حول التوافق بين الفصول الشمسية الأربعة والعشرين والفقرات العنقية والصدرية والقطنية

لا يذكر «كتاب الإمبراطور الأصفر المرجعي في الطب الباطني» الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، بل يكتفي بذكر مبادئ عامة لنظام الحياة في فصول السنة الأربعة. لكن الناس الذين عاشوا في عهود السلالات التالية اتبعوا تلك



المبادئ ليستخرجوا منها إطاراً محدداً لنظام الحياة بحسب تقلبات الفصول الشمسية الأربعة والعشرين. ومع مرور الزمن، ظلّ غنى هذه المبادئ يزداد على أساس التطور وتغير المناخ وازدياد سعة مجال الأمراض التي تعرف عليها الناس، فتطور الحال بنظام الحياة إلى أن اكتملت تفاصيله.

سوف نورد في ما يلي خلاصة قصيرة لمسببات الأمراض في كل فصل شمسي، والأمراض التي تحدث فيه كثيراً، والأشياء المناسبة وتلك غير المناسبة في أسلوب الحياة خلاله، والطعام المغذي والمفيد أثناءه، وكذلك التمارين الجسدية والتدليك المناسب فيه:

بداية الربيع (3-5 شباط): في فصل «بداية الربيع»، يرتفع مقدار طاقة تشي اليانغ ويطلقها الجسم، وتسبب «الرياح الشريرة» مشاكل صحية للناس، فيتعرضون لأمراض مثل الإنفلونزا والتهاب الرئتين والربو والسكتة الدماغية والبواسير وجدري الماء. وخلال هذه الفترة، على الناس أن يزيدوا من تمشيطهم لشعرهم، كما عليهم ألا يدعوا الرياح تهب عليه مباشرة، وعليهم أن يقللوا من تناول الأطعمة الحريفة والكثيرة التوابل. يقول المثل الصيني: «المزيد من الدفء في الربيع والمزيد من البرد في الخريف يحافظان على صحتك». إذاً، على الناس أن يحافظوا على دفء أجسامهم خلال هذه الفترة، وألا يسارعوا إلى خلع ثيابهم الشتوية. وبالنسبة إلى الطعام المغذي والعلاجي، على الناس أن يتناولوا كميات أكبر من الثوم، وأوراقاً طرية من شجرة التوت الصيني، وأوراق الزنبق والأقحوان وكيس الراعي، وعسلوج البازيلاء، وعسلوج خيزران الربيع، والبطاطا الصينية الحلوة (اليام)، وجذور اللوتس، واللفت، وجوز الماء، والزنجبيل. ويجب عليهم أيضاً أن يقوموا بتمارين رياضية جيدة مثل المشي والداو يين، وتدليك خط مسار الطاقة الخاص بالكبد. (الصورة 5-12)



الصورة 5-12 العلاج الغذائي. تظهر الصورة بطاطا صينية حلوة (يام)



الصورة 5-13 نظام تمارين رياضية. تظهر الصورة استعراض التاي تشي

مياه المطر (18-20 شباط): عند حلول فصل «مياه المطر» تسبب «الرطوبة الشريرة» المشاكلَ لصحة الناس، ويقال في الطب الصيني التقليدي إن معدة الإنسان وطحاله معرضان للكساد نتيجة الرطوبة، فيكثر حدوث الأمراض في المسالك الهضمية، وكذلك يكثر ارتفاع ضغط الدم ونزيف البواسير في هذه الفترة. لذا، من المستحسن خلالها أن يتناول الناس كميات أكبر من العصيدة لزيادة طاقة الكليتين وتقوية الطحال، وعليهم ألا يسارعوا إلى التخلص من ثيابهم الشتوية. وبالنسبة إلى الطعام المغذي والعلاجي، على الناس أن يتناولوا المزيد من فطر التوكاهو وبذور اليورييل وحبوب الدخن والجزر والقرع الشمعي والهليون والبقلة الباردة والفاصولياء العريضة والفلفل. وعليهم أن يدلّكوا بطونهم، ويضغطوا خطوط الطاقة عند الطحال والمعدة بإصبع الإبهام. وعليهم أيضاً المشي أو ممارسة التاي تشي كتمرين للجسد. (الصورة 5-13)

استيقاظ الحشرات (5 -7 آذار): خلال هذه الفترة، تصعد طاقة التشي من الكبد إلى الجسم ويصبح الناس معرضين لانخفاض تشي الكبد أو الإفراط في نشاط

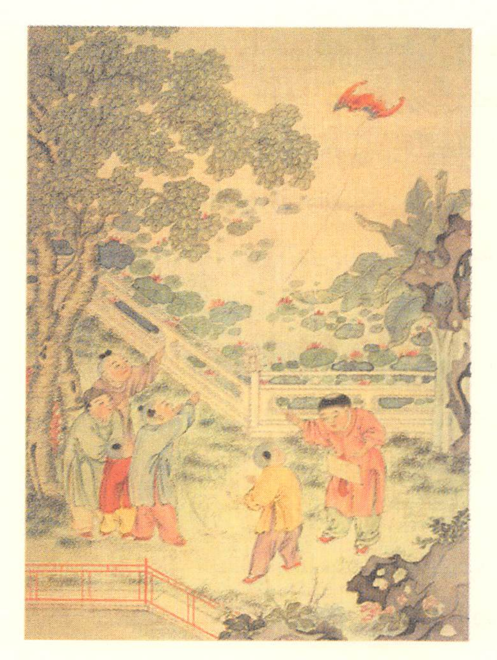


طاقة اليانغ فيه، وعندئذ نرى ازدياداً في حالات ارتفاع ضغط الدم. لذا، يستحسن للناس أن يحمو طاقة تشي اليانغ فيهم وينمّوها، وعليهم أن يمارسوا تمارين جسدية بطيئة، وألا يجهدوا أنفسهم بالإفراط في العمل. أما بالنسبة إلى الطعام المغذي والعلاجي، فعلى الناس أن يتناولوا المزيد من الأرز الغلوتيني والسمسم والعسل ومنتجات الحليب والفول الرائب والسمك والخضروات والأقحوان وقصب السكر. وينبغي أيضاً ممارسة رياضات الجري وتسلق الجبال واللعب بالطائرات الورقية.

الاعتدال الربيعي (20-21 آذار): في وقت الاعتدال الربيعي يولد كل شيء ويبدأ بالنمو. وخلال هذه الفترة، تتكاثر البكتيريا والفيروسات بشكل كبير أيضاً، فيصبح الناس معرضين للأوبئة مثل التهاب قناة التنفس، وقد تعود بعض الأمراض القديمة إلى الظهور بسهولة، وكذلك تشيع الأمراض العقلية. لذا، يجب على الناس أن يحافظوا على اتزانهم العاطفي، وأن يتجنبوا الإفراط في مشاعر الحزن أو حتى السعادة. كما يجب عليهم أن يأكلوا طعاماً خفيفاً يغذي الكبد، ويتجنبوا الإفراط في ممارسة الجنس وتقلبات العواطف الكبيرة. وينبغي أن تكون الوجبات خفيفة، وألا يكون فيها الكثير من السمك أو القريدس أو الزنجبيل أو الثوم بجميع أنواعه، كما يجب على الناس أن يكثروا من تناول أوراق الزنبق وبذور اللوتس والبطاطا الحلوة الصينية وتوت العوسج الصيني، وألا يفرطوا في تناول الكحول. وعليهم أن يدلّكوا أطراف أصابعهم وبطونهم، وأن يمارسوا السباحة والمشي كرياضة لهم.

السطوع المحض (5-6 نيسان): في وقت فصل السطوع المحض يرتفع مقدار تشي اليانغ وينطلق، وتشمل الأمراض الشائعة فيه ركود تشي الكبد، والإفراط في نشاط اليانغ في الكبد، وارتفاع ضغط الدم، والحساسية، والتهاب القصبات المزمن. لذا، يجب على الناس أن يحافظوا على دفء أجسامهم، والخروج من المنزل قدر الإمكان. وعليهم أيضاً أن يتجنبوا الطعام الحريف والساخن والحلو وكثير الدسم، وكذلك الأطعمة المنشطة الأخرى مثل الأسماك البحرية والقريدس البحري والسرطان البحري والمخلل وعسلوج الخيزران ولحم الضأن والديك والثوم بأنواعه والبصل والزنجبيل والبريلا وشاي الياسمين. وينبغي لهم أن يمشوا أكثر، وأن يمارسوا تمارين جسدية مثل التنزه سيراً على القدمين، وتسلق الجبال، واللعب بالطائرات الورقية.

(الصورة 5-14)



الصورة 5-14 «الطائرات الورقية المحلقة» (رسم جياو بينغ تشن)

في اليوم الثالث من الشهر الثالث حين تهب نسمات الربيع، تحلق الطائرات الورقية في عنان السماء. ومع حلول فصل «السطوع المحض»، يميل طقس الربيع إلى الحرارة وتتفتح الأزهار. وهذا أفضل وقت في السنة للعب بالطائرات الورقية.

مطر الحبوب (19-21 نيسان): ثمة الكثير من «الرياح الشريرة» في هذا الفصل الشمسي، وهي تسبب للناس مشاكل صحية. وتشمل الأمراض شائعة الحدوث فيه نزلة برد الهواء الساخن والاكتئاب. لذا، يجب على الإنسان في هذا الفصل أن يطهر رئتيه من الحرارة الزائدة فيهما، وعليه ألا يفرط في مأكله ومشربه. وأفضل الأطعمة تغذية وأنجعها علاجاً في هذا الفصل هي النعناع والأقحوان والأرقطيون والرشاد والكستناء المائية والفطر الأسود. وعلى الناس أن يذهبوا إلى أماكن يتمكنون من تسريح النظر فيها إلى مسافات بعيدة، وأن يمارسوا الجري قليلاً أو الشي، كما عليهم أن يدلّكوا خطوط الطاقة في رؤوسهم وأكبادهم.

بداية الصيف (5-7 أيار): في هذه الفترة وبحسب ما يقوله الطب الصيني التقليدي، تبدأ طاقة حرارية نارية بالتأجج في قلب الإنسان، فتحدث أمراض القلب كثيراً. لذا، على الناس أن يحافظوا على حسن مزاجهم وهدوء حالتهم الذهنية ليحموا قلوبهم، وكذلك عليهم ألا يدفعوا طاقة قلوبهم النارية بقوة مفرطة أو يتخلوا عن الاعتدال في مأكلهم ومشربهم. ويجب عليهم تناول كميات أكبر من الإجاص البلسمي والكرنب الصيني والحنطة السوداء وجذر اللوتس وعصيدة الذرة البيضاء. وأن يمارسوا رياضات مثل المشي والتاي تشي والتأمل.

امتلاء الحبوب (20-22 أيار): يوجد في هذا الفصل الكثير من الرطوبة وعناصر الأمراض التي يؤدي إليها ارتفاع الحرارة؛ ما قد يسبب الاضطرابات لصحة الناس. لذا،



يجب عليهم أن يزيلوا حرارتهم الباطنية و«الرطوبة الشريرة» من بواطنهم، وعليهم ألا يسمحوا للتغيرات العاطفية الكبيرة أن تطرأ على قلوبهم، كما عليهم أن يتناولوا كميات أكبر من الفاصولياء الحمراء واللوبياء الذهبية والقرع الشمعي والخيار وجذور اللوتس والجزر والبندورة والبطيخ والبطاطا الحلوة الصينية ولحم الأفاعي وسمك الشبوط ولحم البط. ويستطيع الناس ممارسة رياضة الجري أو المشي، وتدليك خط طاقة الطحال.

الحبوب في السنابل (5-7 حزيران): تتسبب الحرارة والرطوبة بصعوبة في وظائف الطحال، وتكثر في هذا الفصل الأمراض المعدية وأمراض المعدة والطحال. لذا، يجب على الناس أن يأخذوا قيلولة بعد الظهر، وأن يكثروا من تطهير أماكن معيشتهم ويزيدوا من الاهتمام بنظافتهم الشخصية. وعليهم أيضاً أن يمنعوا نمو العفن في الأشياء. ويشمل الغذاء المناسب لهذه الفترة الخيار واللوف والقرع والبطيخ. وعلى الناس أن يدلّكوا منطقة البطن وخطوط الطاقة في الطحال والمعدة، كما يجب عليهم أن يمشوا. ومن غير المفيد القيام بتمارين شاقة في هذا الفصل الشمسي.

الانقلاب الصيفي (21-22 حزيران): كثيراً ما تسبب حرارة الصيف الضرر لطاقة الطحال، فتكثر أمراض عسر الهضم والسكتات والأمراض الصدرية. لذا، يجب على الناس أن ينظموا عمل الطحال والمعدة، وأن يأخذوا قيلولة بعد الظهر، ويتجنبوا الإفراط في التعرق. وفي هذا الفصل، عليهم أن يُكثِروا من تناول اللوبياء الذهبية والخضار الطازجة والفواكه والأسماك والفاصولياء والخل والزعرور، وأن يمارسوا تمارين خفيفة مثل المشي والتاي تشي. كما يمكنهم تدليك خطوط الطاقة في الطحال والمعدة والقلب.

الحر الأصغر (6-8 تموز): كثيراً ما تتسبب رطوبة الصيف بمرض الاستسقاء، وكذلك تكثر في هذا الفصل أمراض البروستات والسكري والقلب. لذا، يجب على الناس أن يعتنوا بقلوبهم جيداً في هذا الوقت من السنة، وأن يحافظوا على روح التفاؤل في الحياة، وألا يستمتعوا بالبرودة كثيراً، وألا يتناولوا الكثير من الطعام البارد. وتشمل الأطعمة المغذية والعلاجية في هذا الفصل بذور اليوربيل وبذور دمع أيوب والقرع الشمعي وجذور اللوتس والإجاص البلسمي والخيزران المر وشاي ورق البهشية. كما يجب عليهم أن يسبحوا أو يتمشوا، وعليهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في

القلب والكليتين ونقاط الوخز ذات العلاقة مثل ني قوان وشن شو.

الحر الأكبر (تموز 22-24): بحسبما يقال في الطب الصيني التقليدي، تتسبب شدة حرارة الصيف في هذه الفترة بالكثير من الأمراض المتعلقة بسوائل جين الجسدية، وكذلك ضربة الشمس وارتفاع الضغط. على الناس أن ينقوا الحرارة من أجسادهم وزيادة طاقة تشي الموجودة. هذا الوقت مناسب أيضاً لتطبيق علاج أمراض الشتاء في الصيف. على الناس في هذا الفصل أيضاً تجنب الإفراط في الطعام والشراب لأن هذا سيتسبب بالضرر لطاقة الطحال والمعدة. تشمل مواد الأكل الجيدة في هذا الفصل: الأجاص البلسمي واللوف والخيار والقثاء والبندورة والباذنجان والبصل الأخضر والخس والهيلون. يمكن للناس أن يسبحوا أو يمارسوا التأمل كرياضة جسدية، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في القلب والطحال. (الصورة 5-15).

الصورة 5-15: أنواع مختلفة من أدوات التدليك، صورة من معرض الحضارة الصينية في غير الملموسة في المهارات التراثية الكبير في مركز المعرض الزراعي الوطني في بكين (تصوير نيه مينغ)





بداية الخريف (7- 9 آب): في الخريف، يسبّب «الجفاف الشرير» المشاكل لصحة الناس. ففي بداية الخريف، يحرق جفاف الخريف الرئتين، وتكثر الإصابة بالسعال والسكري. لذا، على الناس أن يزيدوا من طاقة التشي الموجودة في الرئتين، وأن يتجنبوا حر الخريف الذي يحرق طاقة الين في الرئتين ويؤذيها. وتشمل الأطعمة الجيدة لهذه الفترة: لحوم البط والأرانب والسلاحف طرية الصدفات، وخيار البحر، والباذنجان، وجذور اللوتس الطازجة، واللوبياء الذهبية، واللوف، والخيار، والقرع الشمعي، والبطيخ والإجاص البلسمي، والإجاص العادي. أما التمارين الرياضية المناسبة فتشمل الجري والمشي. ويستطيع الناس أن يدلكوا خطوط الطاقة في الرئتين والطحال.

حد الحرارة (22-24 آب): تضعف طاقة التشي في الطحال خلال هذه المدة، فيصبح الناس معرضين للإصابة بأمراض المعدة. لذا، على الناس أن يأووا إلى أسرتهم مبكراً، وأن يستيقظوا في وقت باكر أيضاً، كما عليهم أن يتجنبوا الطعام الحريف والساخن. وبالمقابل، يمكنهم أن يتناولوا أطعمة تغذي الطحال والمعدة مثل العنب وفطر التريميلا وجذور اللوتس والسبانخ وبيض البط والعسل. ويجب عليهم أن يمارسوا التأمل والمشي في ذلك الوقت، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في الطحال والمعدة.

الندى الأبيض (7 – 9 أيلول): في وقت الندى الأبيض لا تتوازن الحرارة والبرودة، فتكثر الإصابات بأمراض الحساسية والربو. لذا، على الناس أن يزيدوا من طاقة الين لديهم، وألا يكثروا من تناول الأطعمة الباردة، وألا يرتدوا ثياباً تكشف أجسامهم. وتشمل الأطعمة المناسبة الخيار والبندورة والقرع الشمعي والإجاص والكستناء المائية وقصب السكر والبلح الصيني وفطر التريميلا وأوراق الزنبق والعسل. وقد يمارس الناس رياضة الجري أو تسلق الجبال، وقد يدلّكون خط طاقة الرئتين.

الاعتدال الربيعي (22-24 أيلول): طاقة التشي في الخريف صافية ونقية، ولكن جفاف هذا الفصل يؤذي الرئتين ويتسبب بالسعال والربو وجفاف الجلد. لذا، يجب على الناس أن يغذوا طاقة الين في الرئتين لحمايتهما، وعليهم أن يتجنبوا البرد. وتشمل الأغذية الجيدة في هذا الفصل: فطر التريميلا والإجاص والعسل وبلورات الثلج والأرز وبذور اللوتس وأوراق الزنبق. وعلى الناس أن يمارسوا رياضتَي الركض وتسلق الجبال، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط الطاقة عند الرئتين والكليتين.

الندى البارد (8-9 تشرين الأول): يصبح الطقس بارداً، وكثيراً ما يدخل «البرد الشرير» الرئتين مسبباً التهاب القصبات المزمن والربو والتهاب الرئتين. لذا، يجب على الناس أن يغسلوا أقدامهم بالماء ساخن ويعتنوا بشعرهم جيداً، وعليهم أن يخرجوا من منازلهم قدر الإمكان، وألا يفرطوا في التمارين الجسدية، كما يجب عليهم تجنب التعرض للكثير من الحزن أو الضيق. تشمل الأغذية المناسبة لهذه الفترة الثوم والزنجبيل والفلفل الحار ولحوم العجل والضأن وعسلوج الخيزران والقرع وبذور اللوتس واللونغان والسمسم الأسود والبلح الصيني الأحمر والجوز. وعلى الناس أن يمارسوا رياضتَي الجري والتاي تشي، ويمكنهم أن يدلكوا خط الطاقة عند الرئتين.

نزول الصقيع (23- 24 تشرين الأول): في وقت نزول الصقيع يكون الطقس بارداً خارج الجسم ولكنه ساخن داخل الجسم، فتكثر إصابة الناس بالإنفلونزا والربو. وعلى الناس في هذا الفصل تناول أطعمة مغذية ومنعشة بشكل أكبر كي يظلوا دافئين ويتجنبوا البرد، وعليهم ألا يكثروا من التعرض للبيئة الباردة، وأن يكثروا من تناول توت العوسج الصيني واللونغان والأعشاب البحرية والقرع والجزر والملفوف والبطاطا الحلوة والفول السوداني. كما عليهم أن يدفئوا أنفسهم حين يذهبون لممارسة الجري، وأن يمارسوا التاي تشي والتأمل، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في رئاتهم وكلياتهم.

بداية الشتاء (7-8 تشرين الثاني): في وقت بداية الشتاء تضعف طاقة تشي اليانغ، وكثيراً ما يتمكن البرد والرطوبة من غزو الكليتين، فيزداد التهاب المفاصل وأمراض الأمعاء. لذا، يجب على الناس أن يتناولوا أطعمة مغذية ومنعشة للمساعدة على نمو الين وحماية اليانغ، وعليهم أن يزيدوا جوهر طاقة جينغ في كلياتهم. ولكن، لا يمكن لهذه الزيادة أن تتم من دون التوجيه المناسب، لذا ينبغي أن يكون الناس حذرين من ألا تكون أجسامهم ضعيفة جداً حيث لا تتحمل المواد المنعشة. ولهذا السبب، عليهم في البداية أن يقووا وظائف الطحال والمعدة. وينبغي لهم أن يتناولوا كميات أكبر من لب اللوغان ولب ثمرة الليتشي وتوت العوسج والفطر الأسود والسبانخ والجزر ولحوم العجل والخروف والخيار البحري والأسماك. وتشمل التمارين المناسبة الجري والمشي وممارسة التاي تشي. وعليهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في الكليتين والطحال.



الثلج الأصغر (22-23 تشرين الثاني): لأن تشي الين يصبح مفرطاً في قوته، فإن تشي اليانغ لن يكون قوياً بما فيه الكفاية ليمارس وظيفته. وكثيراً ما تعجز أجسام الناس في ذلك الوقت من السنة عن القيام بدورتها الدموية بشكل صحيح، وكثيراً ما يصاب الناس بالاكتئاب في ذلك الفصل. لذا، يجب على الناس أن يمضوا الكثير من الوقت في الشمس، وأن يحافظوا على دفئهم، ولكن عليهم ألا يتعرقوا كثيراً، وألا يتعرضوا لهبوب الرياح بشكل مباشر. وعليهم أيضاً الإكثار من تناول لفت الشتاء والجوز ولحوم العجل والضأن وتوت العوسج الصيني والحليب وحليب الصويا. وينبغي لهم أن يمارسوا مقداراً أكبر من الداو يين والتأمل في هذه المدة، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط الطاقة في الكليتين والكبد.

الثلج الأكبر (6-8 كانون الأول): في وقت الثلج الأكبر يدخل ين البرد إلى داخل الجسم، فتكثر أمراض التهاب المفاصل وأمراض القلب والأوعية الدموية. لذا، يجب على الناس أن يحافظوا على دفء أجسامهم، وأن يتناولوا أطعمة مغذية ومنعشة، كما يجب عليهم ألا يفرطوا في تناول الكحول أو ممارسة الجنس. وعليهم أن يكثروا من تناول اللونغان والكستناء والبطاطا الحلوة الصينية والبلح الصيني والقرع ولحم العجل والخروف. وتعتبر ممارسة الداو يين والتأمل من الرياضات الجيدة في هذا الوقت من السنة. وعلى الناس ألا يكثروا من التمرين خارج المنزل، ويمكنهم أن يدلكوا خطوط القلب والكليتين.

الانقلاب الشتوي (21-23 كانون الأول): يصبح تشي الين قوياً للغاية، أما تشي اليانغ فينخفض ويختبئ. وخلال هذه الفترة تكثر الإصابة بالتهاب البروستات والإنفلونزا. لذا، يجب على الناس أن يناموا باكراً ويتأخروا في الاستيقاظ، وعليهم ألا يتعرقوا كثيراً أو يعرّضوا أجسادهم كثيراً للبيئة الباردة حولهم. وعليهم أن يتناولوا مقداراً أكبر من لحم الضأن وتوت العوسج الصيني والبطاطا الحلوة الصينية والبلح الصيني والسمسم والصويا. التمرينان الرياضيان المناسبان لهذا الفصل الشمسي هما الداو يين والتأمل، ويستطيع الناس أن يدلكوا خطوط الطاقة في الكليتين والقلب.

البرد الأصغر (5-7 كانون الثاني): الأعراض التي كثيراً ما تظهر في هذا الوقت من السنة كما رصدها الطب الصيني التقليدي هي الضعف والبرد في الطحال والكليتين، وكذلك تكثر الإصابة بالإنفلونزا والتهاب المفاصل وأمراض القلب والأوعية



الصورة 5-16 العلاج بالغذاء. تظهر الصورة خلاصة الفاصولياء مع حساء عظام اللحم

الدموية. لذا، يجب على الناس أن يحافظوا على دفء أجسامهم، وأن يمارسوا التمارين الجسدية المناسبة، وعليهم أن يتجنبوا ملامسة الأجسام الباردة والساخنة فجأة. وعليهم أن يتناولوا الكثير من الكستناء والجوز وتوت العوسج الصيني ولحم العجل والضأن والجزر والزنجبيل المجفف والقرفة، وأن يمارسوا الداو يين والتأمل، ويمكنهم أن يدلّكوا خطوط الطاقة في الكليتين والطحال. (الصورة 5-16)

البرد الأكبر (20-21 كانون الثاني): ينتج البرد الشديد بين السماء والأرض طاقة تشي باردة يمكنها أن تتلف طاقة الكليتين بسهولة. وتكثر في هذا الفصل أمراض مثل ارتفاع الضغط، وأمراض القلب، والإنفلونزا، والتهاب الرئتين. لذا، يجب على الناس أن يناموا باكراً ويتأخروا في الاستيقاظ، وأن يبقوا في أماكن دافئة ويتجنبوا البرد. وعليهم أيضاً تجنب ممارسة التمارين الرياضية قبل طلوع الشمس. وينبغي لهم تناول كميات كبيرة من لحم العجل والضأن والسمك والفاصولياء ومنتجات الحليب والزنجبيل المجفف والبلح الصيني والأرز الغلوتيني. كما عليهم التقليل من النشاطات خارج المنزل، لأن ممارسة التمارين داخل المنزل مثل الداو يين والتأمل أفضل في هذا الفصل. ويمكنهم تدليك خطوط الطاقة عند الكليتين والطحال. (الصورة 5-17)





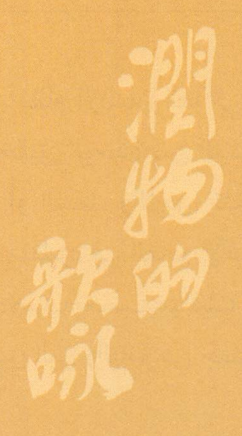
الصورة 5-17 العلاج بالغذاء. تظهر هذه الصورة توت العوسج الصيني

تستخدم إرشادات نظام الحياة هذه كمرجع في الممارسة اليومية، ولكن لا يجب اعتبارها قوانين ثابتة لا ينبغي الخروج عن حرفيتها. فمن أهم مبادئ الطب الصيني التقليدي أن تتنوع العوارض، وهذا ما يقرر العلاج باختلاف أنواعه. وقد تكون لأشخاص مختلفين في أمكنة مختلفة وسائل متعددة للوصول إلى الغاية ذاتها، وتظل أفضل وسيلة لتطبيق هذه النصائح هي الحكم على الأمور على أساس تجربة الإنسان الشخصية. وما يعنيه نظام الحياة هو أن يعتني الإنسان بصحته في أي لحظة من لحظات حياته، وقد تساعدك بعض ممارسات العناية بالصحة في أيام معينة من الفصول الشمسية لتحقيق نتائج أفضل وبناء صحة جيدة.

لماذا ينبغي على الإنسان أن يمارس أسلوب حياة محدداً بحسب أيام محددة من الفصول الشمسية؟ لأن الفصول الشمسية هي «النقاط الحرجة» حين يبدأ المناخ بالتغير على الأرض. فهذه التغيرات تنتج عنها تغيرات موازية في جسم الإنسان.

وبالتالي، إن تغيير أشياء معينة في نظام الإنسان الغذائي والحياتي سيساعده على التأقلم مع السماء والأرض وعلى تحقيق الوحدة بين السماء والإنسان. وحين تتغير البيئة في العالم الأكبر- أي الكون أو السماء والأرض- تتغير معها البيئة في العالم الأصغر- أي الإنسان- تغيراً يتفق مع نظيره في العالم الأكبر. ولذلك، من الممكن أن يحظى الإنسان بوفاق وتناغم، وأن يتصرف بحسب مواقيت السماء. وما يعنيه هذا هو أنه على الإنسان أن يناغم التوازن بين الين واليانغ في جسمه، وأن يكون هذا التوازن بحسب قوانين الكون الطبيعية.

وبالطبع، إذا أراد الإنسان أن يحقّق هذا التناغم ويصل به إلى هذا المستوى فعليه أن يزيد من حساسيته تجاه الطبيعة، فيشهد تغيّرات المناخ في البيئة، ويشعر بالتغيرات الموازية لها في جسمه. الشخص الذي يعرف الشيء الأفضل لك هو أنت نفسك، وينطبق هذا على نظام الحياة الذي يتبعه الإنسان بقدر ما ينطبق على عالمه الروحي.



الفصل السادس

الفصول الشمسية والأزياء الفولكلوري: الحياة في الطريق العظيمة للطبيعة

أضحية شه الربيعية وأضحية شه الخريفية

قال المعلم الطاوي العظيم «لاوتسي» إن الإنسان يتبع قوانين الأرض، وتتبع الأرض قوانين السماء، وتتبع السماء قوانين «الطريق العظمى» (الطاو). عبر آلاف السنين من التاريخ، قام أسلاف الشعب الصيني بالتنظير حول ما كشفته لهم بصائرهم عن «الطريق العظمى» في الطبيعة، وقد أدى ذلك إلى دخول الكثير من الممارسات المرتبطة بهذه الآراء والمعتقدات في حضارتهم. لقد كان التوصل إلى الفصول الشمسية الأربعة والعشرين وليد هذا التفكير، وسرعان ما وجدت هذه الفصول طريقها إلى العادات والتقاليد والممارسات الشعبية حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تقاليد الصين الحضارية. (الصورة 6-1)

كتب لو يو، الشاعر العظيم الذي عاش في حقبة سلالة سونغ الجنوبية، قصيدة تحت عنوان «زيارة إلى قرية غرب الجبل» حفظ لنا فيها مشهداً لأضحية شه الربيعية:

عَكِرٌ هو نبيذ الفلاحين الذي خمَّره التائقون
لكن رجاء، لا تهزأ بهم
فعليهم أن يقدموا المزيد من الدجاج واللحم للضيوف
فقد كان الحصاد وفيراً

الصورة 6-1 رسم لأضحية شه الربيعية (رسمها تشانغ تشونغ في عهد سلالة مينغ)



تمتد الهضاب وتتلوى الجداول في الطريق التي أتبعها
لذا، أشك في أنني سأضل الطريق
أشجار الصفصاف داكنة، ولكن الأزهار زاهية أمام ناظري
وهنا أمامي أجد القرية تنتظرني
نُفخَت النايات وقرعت الطبول، واجتمع الناس من كل حدب وصوب
لأَن أضحية شه الربيعية قد اقترب أوانها
تظهر الثياب العادية والقبعات البسيطة طرازَ الثياب المغرق في القدم
وهم لا يزالون يستمتعون به هنا إلى اليوم
إذا سمح لي أصدقائي هنا بالزيارة
فحين أكون حراً سوف أستمتع بأشعة القمر
وأمشي هنا إلى هذه القرية الصغيرة
وأطرق أبوابهم في الليل

تعود جذور أضحية شه المذكورة هنا في هذه القصيدة إلى عيد أضحية الربيع في الأزمنة القديمة. فقد بدأت طقوس تقديم الأضاحي إلى الشمس في الربيع منذ عهد سلالة تشو، وكانت تقدم في مراسم وطنية ضخمة عند الاعتدال الربيعي؛ حيث كان يشتمل على احتفال رسمي يترافق مع طقوس دينية وموسيقى شعائرية. قال بان رونغ بي (من عهد سلالة مينغ) في كتابه «السجلات حول الأحداث الكبرى في سنة في العاصمة الإمبراطورية»: «تقديم الأضحيات إلى الشمس عند الاعتدال الربيعي، والأضحيات إلى القمر عند الاعتدال الخريفي عيدان وطنيان ضخمان، ولا يُسمَح لمسؤولي الدولة ولا لعامة الناس أن يقيموهما من دون إذن إمبراطوري».

تناقلت الأجيال المتعاقبة هذه المهرجانات عبر السلالات الإمبراطورية الكثيرة. وفي عهود بعض السلالات، كانت الدولة تحتفل رسمياً بأضحية الربيع. وفي بعض الأحيان كان الإمبراطور شخصياً يقود وزراءه إلى تقديم الأضحية إلى السماء، أو كان هو من يعقد الاحتفالات الضخمة. فكان الإمبراطور يضرب بسوطه إحدى مواشي الحراثة في مهرجان الربيع، وهي لفتة ترمز إلى تشجيع الدولة للأنشطة الزراعية. أما في عهد سلالة سونغ، فقد أصدرت الدولة مرسوماً حرّمت فيه ذبح المواشي، لذا كان

الناس في وقت الأضحية الربيعية يقدمون عجيناً مخبوزاً على شكل المواشي، وكان الناس بعد طقوس الأضحية يتقاسمونها ويأكلونها. في أزمنة السلالات التالية، تطورت شعائر الأضحية هذه إلى عيد ربيعي تقيمه كل قرية وقبيلة، وسُمِّي المكان الذي تجري فيه هذه الأضحية: شه الربيعي. لم تقتصر أضحية شه الربيعية على تقديم الأضاحي إلى الشمس، بل كان المهرجان يشمل أضحيات تقدم إلى الأسلاف ومعابدهم، فتذبح الخراف والخنازير، وتعزف فرق موسيقية ألحانها، بينما يقرأ «مضيف» شعائري خطبة الأضحية ويقود الناس كي يقدموا «الأضاحي الطقوسية الثلاث».

كانت هذه الأضاحي رائجة على جميع المستويات، سواء أكان ذلك على مستوى الدولة ومسؤوليها أم على مستوى الريف وفلاحيه. نعرف من الوصف الذي قدمته قصيدة لو يو أن الناس كانوا يرتدون ثياباً قديمة التصميم ويعتمرون القبعات لعقد مراسم الأضاحي، وأن ذلك كان يترافق مع عزف الموسيقى؛ وهو مثال حي على الأنشطة الدينية التي كانت تجري في أيام الفصول الشمسية والتي تطورت رويداً رويداً حتى أصبحت جزءاً من العادات الشعبية. (الصورة 6-2)

حدّد وقت أضحيه شه الربيعية عند خامس يوم شو بعد حلول فصل بداية الربيع، ويطلق على ذلك اليوم: يوم شه. وبالطريقة ذاتها، إن خامس يوم شو بعد حلول فصل بداية الخريف هو يوم أضحية شه. كتب وانغ يون- وهو شاعر من عهد سلالة يوان- قصيدة بأسلوب تسي (وهو طراز من الشعر الكلاسيكي الصيني الغنائي) تحت عنوان «أضحية شه الخريفية بجانب معبد الإمبراطور ياو»:

يصبح الدخان أخف بجانب مذبح أضحية شه
وقد توزّعت جميع الغربان عائدة إلى الغابة
وبينما أحمل كوباً من النبيذ
شاهدت المحاصيل تترعرع وتجهز لمدقة الحصاد
تشبه أصوات الطبول والأوتار صوتَ الرعد
والفرق الموسيقية تتنافس في ما بينها
والناس يضحكون
ويغنون أغنية فلاحين قديمة





الصورة 6-2 جلد ماشية الأرض في الربيع، من «مجموعة كنوز من الرسوم الشهيرة

في بداية الربيع أو في احتفال الربيع عند بداية السنة، يبني الفلاحون تماثيل «ماشية الأرض» ويقودونها في موكب يجلدونها فيه كرمز لبداية الفلاحة في الربيع، وكنوع من الصلاة طلباً للبركة والحصاد الجيد.

والمقصورة والجبل يبدوان وكأنهما من رسم جميل
والهواء منعش وخفيف للغاية
أعتقد أنني أستمتع بغروب الشمس
وكأنني ناسك قديم

الخريف هو موسم الحصاد. وقد كان الإمبراطور ياو واحداً من ثلاثة أجيال من الأباطرة الحكماء، وقد اختير المعبد الذي سُمِّي باسمه كموقع لأضحية شه الربيعية احتفالاً بحصاد جيد. ويظهر هذا أن الناس حتى في ذلك الوقت كانوا يعتبرون فصل «بداية الخريف» الشمسي كجزء من ثقافتهم الشعبية، فكانت تماثيل الآلهة والقرابين توضع على مذابح عالية، وكان الناس يشربون الخمر تحتها ويعزفون الموسيقى ويغنون بصوت عالٍ محتفلين بحصادهم الكبير. ويا له من مشهد سعيد يحتفل به الناس بحصادهم الجيد! (الصورة 6-3)



الصورة 6-3 مشهد لفلاحين يدرسون ويغربلون، وهو رسم صيني يعود إلى ما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر

مع مرور الزمن، أصبح الإله الذي يُضحّى له في أضاحي شه الربيعية والخريفية ثابتاً، وهو إله الأرض. وكان هناك معبد لهذا الإله تقريباً في كل قرية في الصين القديمة. ومع أن الناس كانوا يعبدونه في جميع الأوقات، إلا أن أكبر الأضاحي له كانت تلك التي تحصل في يومَي شه. فبعد بداية الربيع كان الناس يبتهلون إلى إله الأرض كي يعطيهم حصاداً وفيراً في الخريف، وعند بداية الخريف كانوا يضحّون له ويشكرونه على كرمه ويعبّرون عن امتنانهم له.



| مهرجان الطعام البارد ومهرجان السطوع المحض

من بين الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، لا شك في أن فصل السطوع المحض أحدُ الفصول التي يعرفها الشعب الصيني المعاصر جيداً؛ إذ تحدث فيه إحدى أهم العطل التقليدية، وهي مهرجان السطوع المحض. وكما قلنا من قبل، إن الفصول الشمسية ترمز إلى التغيرات الفينولوجية وترتيب الزمن، ولا شك في أن جميع العطل تشمل نشاطات شعبية تحمل بعض المضامين التذكارية. وقد قيل إن مهرجان السطوع المحض يرجع إلى الأضاحي التي كان الأباطرة والأمراء والوزراء وقادة الجيش يقدمونها للقبور في الأزمنة القديمة. وفي وقت لاحق، تبع الناس هذه العادات، فخصصوا ذلك اليوم لزيارة قبور الأسلاف وتنظيفها وتقديم القرابين قربها، كما تناقل الناس هذه العادات جيلاً بعد جيل إلى أن أصبحت اليوم جزءاً من تقاليد الصين الفولكلورية.

أما بالنسبة إلى مهرجان الطعام البارد، فيتم تحديده من خلال الفصول الشمسية؛ وهو اليوم الخامس بعد المئة بعد الانقلاب الشتوي، ويقع قبل يوم واحد تماماً من حلول فصل السطوع المحض. في أيام حكم سلالة تانغ، كان يتم تحديد يوم زيارة قبور الأسلاف رسمياً للتنظيف وتقديم الأضاحي كيوم الطعام البارد.

يُعتقد أن مهرجان الطعام البارد يرجع إلى المرسوم القديم الصادر أيام سلالة تشو، والقاضي بتحريم النار. فيُذكر في كتاب «طقس تشو» أن «الرسل كانوا يدقون أجراسهم ذات المدقات الخشبية ليعلنوا تحريم النار في العاصمة في ثاني شهر من الربيع»؛ لكن عوام الناس يعزون أصل المهرجان إلى قصة جيه تسي توي وخدمته المخلصة لملكه في حقبة الربيع والخريف.

ففي قصة جيه تسي توي، كان الأمير تشونغ إر من مملكة جين في حقبة الربيع والخريف من الشخصيات المهمة. كان الأمير هو الابن الأكبر لملك مملكة جين: شيان قونغ. ولسوء الحظ، حصل شغب كبير حين اختار الملك ولياً للعهد من غير أبنائه الكبار، واضطر تشونغ إر إلى مغادرة المملكة، وكان جيه تسي توي أحد أتباعه المخلصين الذين لحقوا به وهربوا معه. وقد كانت أيام المنفى تلك في غاية الصعوبة. ففي إحدى المرات، مرت أيام من دون أن يجد الأمير أي طعام يتناوله،

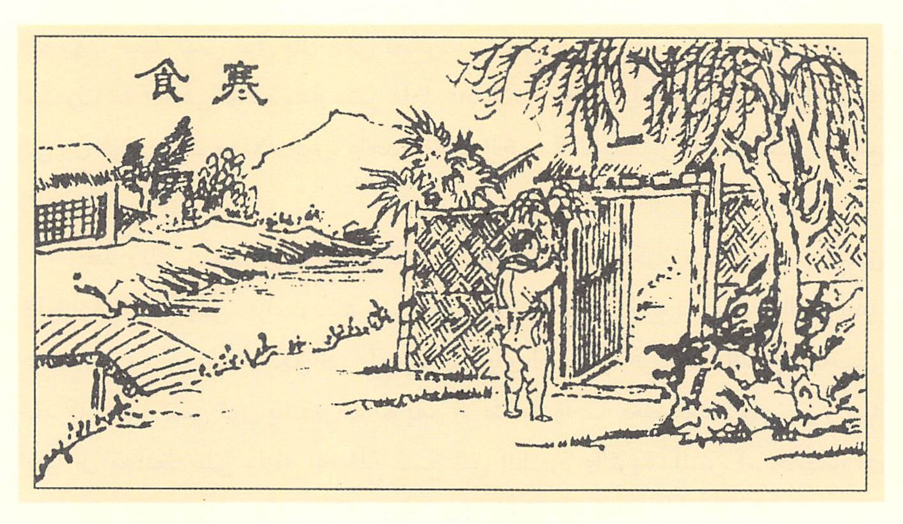
فلم يهدأ لجيه تسي توي بال حتى تمكن من صنع حساء للأمير آثره به على نفسه. استمرت مدة النفي تلك تسعة عشر عاماً، عاد الأمير بعدها وأصبح ملكاً، وتحوّل اسمه إلى ون قونغ؛ ملك مملكة جين، وأحد الملوك الخمسة المهيمنين خلال حقبتَي الربيع والخريف.

بعد ذلك، ابتسم القدر أخيراً للأمير الذي استعاد مملكته، فكافأ وزراءه الذين ظلوا أوفياء له بأوفى جزاء، ولكنه نسي أكثر أتباعه إخلاصاً: جيه تسي توي الذي أنقذ حياته وآثره على نفسه. لكن هذا لم يتسبب بأي اضطراب في قلب التابع المخلص، فقد كان جيه تسي توي يعتقد أنه لم يقم إلا بتأدية واجبه نحو سيده، وأن من واجبه أيضاً أن يحافظ على ولائه له، فلم يسعَ إلى الشهرة والثروة اللتين استحقهما، بل ذهب إلى جبل ميان وعاش هناك حياة نسك وعزلة مع أمه.

في أحد الأيام، تذكر الملك أخيراً تابعه المخلص جيه تسي توي الذي فعل الكثير لأجله، وقرر أنه قد آن الأوان كي يكافئه على أفعاله الخيرة، ولكنه اكتشف أن تابعه القديم قد اعتزل عن بلاطه وتقاعد، فقرر أن يتبعه بنفسه هو وحاشيته إلى جبل ميان. لكن الملك حين رأى الجبل الممتد أمامه بطرقاته الوعرة والوديان السحيقة المحيطة به والغابات الكثيفة التي تزينه أدرك أن العثور على جيه تسي توي لن يكون سهلاً أبداً. عندها، اقترح عليه أحد مرافقيه فكرة وقال: «جيه تسي توي ابن بار للغاية، وإذا أشعلنا النار في الغابة فسوف يخشى على أمه ويخرج بها من هناك، وعندها سوف تجده بسهولة». ويبدو أن الملك لم يقلب هذه الفكرة الخطيرة في ذهنه كثيراً، لأنه وافق عليها على الفور وأمر جنوده بإشعال النار في غابة الجبل.

لكن النار تأججت في الغابة لأيام طويلة من دون أن يخرج جيه تسي توي من الغابة. عندها، أمر الملك ون قونغ بإرسال جنود للبحث عنه، فوجدوا الرجل مع أمه وقد التهمتهما ألسنة النيران تحت شجرة كبيرة. وحين بلغت الأخبار الملك ندم ندماً شديداً، وحزن حزناً شديداً، فدفن تابعه المخلص تحت جبل ميان، وبنى له معبداً يخلّد ذكراه، وذكر إخلاصه منقطع النظير، كما أمر أن يطلق على الجبل اسم: «جيه شيو» (مرقد جيه)ـ حتى إنه استخرج جذور الشجرة التي احترق جيه تسي توي وأمه تحتها وحوّلها إلى «قباقيب» كان ينتعلها من وقت إلى آخر مسمياً إياها تسو شيا، أي «تحت قدمي» ليتذكر جيه تسي توي. وأخيراً، أصدر الملك ون قونغ مرسوماً يُحرِّم فيه





الصورة 6-4: مهرجان الطعام البارد رسم قديم

على الناس في مملكته كل سنة إشعال النار- حيث لا يأكلون إلا الطعام البارد- في اليوم الذي يوافق تاريخه اليومَ الذي أمر فيه جنوده بإشعال النار في جبل ميان، وذلك كي يحفظ ذكرى تابعه المخلص. تطوّرت هذه العادة فيما بعد إلى مهرجان الطعام البارد. (الصورة 6-4)

مع أن هذه القصة غير موجودة في الكتب الرسمية التي أرّخت لتلك الحقبة إلا أنها منتشرة بشكل واسع بين الصينيين. كان وانغ تشانغ لينغ شاعراً عظيماً من منطقة تاي يوان في شانشي، وقد عاش في حقبة سلالة تانغ، وكتب قصيدة بعنوان «مشهد من مهرجان الطعام البارد»:

إنه مهرجان الطعام البارد في جينيوان
وقد تناقل الناس العادات من أقدم الأيام
يطفئ المطر النيران التي بثها التنانين والأفاعي
ويأتي الربيع وتطير الإوزات البرية في السماء
تتدفق دموع الناس، وتجعل مياه النهر تطوف عالياً
تتراقص السحب وتتلكأ مرددة أغنياتهم

يقبع معبد جيه تسي توي غرب المدينة

والجميع فيه ممتلئون بالحزن والأسى

كتب الشاعر القصيدة ليرثي فيها ذلك الرجل الذي حفظ لنا التاريخ إخلاصه وبره، وقد ألّفها في معبد جيه تسي توي، وهي تثبت أن كلاً من مهرجان الطعام البارد وقصة جيه تسي توي كانا منتشرين في عهد سلالة مينغ؛ فجيه تسي توي الذي تحمّل كل الإذلال أثناء فترة نفيه لم يتغير قط، ولم يتخلَّ عن إخلاصه لأميره، وأنقذه من الموت جوعاً، حتى إنه لم يطلب منه مكافأة، فحصل على تقدير الناس إلى الأبد لاستقامته وإخلاصه.

توجد قصيدة أخرى تصف مهرجان الطعام البارد أثناء حقبة سلالة تانغ:

تتطاير عناقيد الأزهار فوق كل العاصمة

ويمكننا أن نرى الربيع في كل مكان

تهب الرياح الشرقية على مهرجان الطعام البارد

وتتراقص أغصان الصفصاف وتتأرجح

عند ساعة الغروب تُرسَل الشموع من القصور

وتحت مرسوم إمبراطور هان

يتسلل الدخان الخفيف إلى منازل

جميع النبلاء الذين اختارهم

يمكننا أن نلاحظ من خلال هذه القصيدة أن مهرجان الطعام البارد كان عطلة عامة كبرى في ذلك الحين؛ فكل الأمة كانت تستمتع بها، وكان الناس يخرجون ليشاهدوا المناظر الربيعية فيها.

وكذلك نذكر قصيدة ثالثة تحت عنوان «قصيدة حول مهرجان الطعام البارد» تُظهِر مشهداً لزيارة قبر في يوم عيد السطوع المحض:

في يوم مهرجان الطعام البارد يذهب الجميع كي يروا



مشهد الربيع خارج المدينة

وعلى المقبرة في الحقول يشعر جميع الناس

بأسى عميق، فتتدفق دموعهم

على السهل توجد القبور، جديدة وقديمة، وما أكثرها

تصطف مع بعضها بازدحام

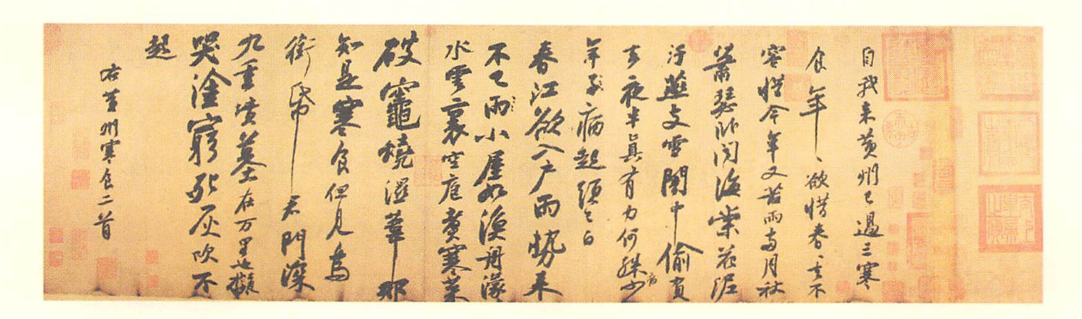
نصف الموتى المدفونين هنا

كانوا قد أتوا لزيارة المقابر في السنة الماضية!

خلال عهد سلالة تانغ، تم توحيد مهرجانَي الطعام البارد والسطوع المحض، ثم تطوّر الأمر إلى عطلة تحفل بالسمات التقليدية؛ حيث تختلط دموع الأسى التي تتدفق حين يزور الناس القبور الجديدة ويتذكرون موتاهم مع ضحكات الفرح حين يخرج الناس إلى مشاهد الربيع الخضراء، كما نرى من خلال القصيدة أن جميع الناس كانوا يشاركون في هذه النشاطات. (الصورة 6-5)

عند حلول فصل السطوع المحض، تكون الأراضي الممتدة خضراء وجميلة، ويكثر تساقط رذاذ المطر وهبوب النسمات اللطيفة كما تقول قصيدة: «يتطاير رذاذ المطر نزولاً من أزهار المشمش ويبدو وكأنه يبلل ثيابك. تهب النسمات من أشجار الصفصاف والحور ولكنها ليست باردة حين تلامس وجهك».

الصورة 6-5 قصيدة حول مهرجان الطعام البارد في هانغتشو، عمل بخط اليد لسو شي من عهد سلالة سونغ



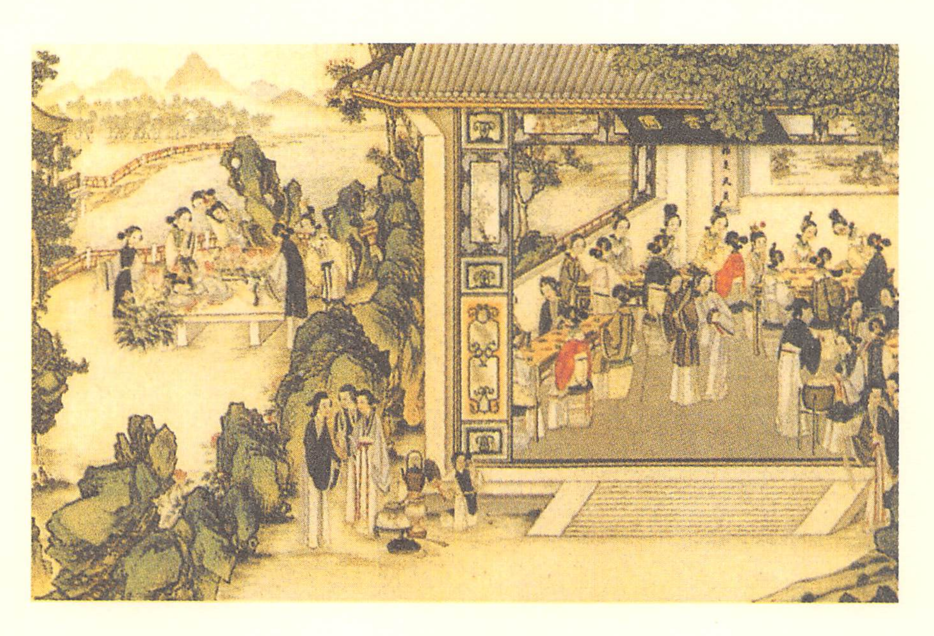


الصورة 6-6 السطوع المحض، رسم قديم

خلال هذه الفترة يحب الناس بفطرتهم الاقتراب من الطبيعة؛ فذلك هو وقت الربيع، وأي شيء أفضل من ارتقاء الروح إلى قمم الجمال وتمتعها بمشاهد الربيع الجميلة وشعورها بلطف النسائم الخفيفة والمريحة؟ لقد درج الصينيون منذ آلاف السنين على الخروج في الربيع لرؤية الأراضي الخضراء، ولكن عاداتهم في يوم السطوع المحض هي بدون شك الأغنى والأكثر إثارة للاهتمام بين الفصول الشمسية الأربعة والعشرين كلها. وبالإضافة إلى الخروج في الربيع، ثمة ألعاب ونشاطات يمكن التمتع بها؛ مثل الأراجيح ورياضة البولو وتزيين أغصان الصفصاف وحفلات تقدير الأزهار ومعارك الديكة ومسابقات الأشعار. (الصورة 6-6)

كتب شعراء الصين القدامى وعلماؤها الكثير من القصائد الرائجة حول السطوع المحض. فعلى سبيل المثال، قام ليو بينغ- الشاعر الذي عاش أثناء سلالة يوان- بكتابة بيت في قصيدته قال فيه: «لقد بقيت في الشوارع على ضفّتَي نهر تشينهواي أثناء مهرجان الطعام البارد هذه السنة. وقد تفتحت أعداد لا حصر لها من زهور المشمش والخوخ». وكذلك قال الشاعر الراهب مينغ شيو (عهد سلالة مينغ) في بيت له: «تعود طيور السنونو في المطر عند مهرجان الطعام البارد، وزهور الإجاص تتفتح في كل مكان تحت نسائم الربيع»؛ وهو بيت يعكس تقليد الاجتماع في حفلة لتقدير الزهور





الصورة 6-7: الاحتفال بمهرجان السطوع المحض الكبير، من «النسخة الكاملة لحلم الغرفة الحمراء» (رسم سون ون، عهد سلالة تشينغ)

في مهرجان الطعام البارد. كما كتب دو يان قصيدة تحت عنوان «مصارعة الديوك» قال فيها: «في مهرجان الطعام البارد يجتمع الناس بجانب الطريق في الضواحي الشرقية، ومن الأقفاص تخرج تلك الديوك المحاربة بدروعها الجلدية. تشع الشمس على عرف كل منها، وتهب الرياح من بين جناحيه وعلى ريشه المزين بلون الخردل، ويتساقط الريش على كل مكان في الحقول الخضراء، وتتلطخ الزهور بالدماء المراقة. ربما يكون الديك قد انتصر في مئة معركة ولم يفشل قط، إلا أنه لا يفتخر أبداً بأعماله التي يحييها الناس». تصف القصيدة مشهد مصارعة الديوك بدقة بالغة.

وكذلك كتب داي بياو يوان، وهو شاعر من عهد سلالة يوان، قصيدة تحت عنوان «مهرجان الطعام البارد في القرية الخشبية» قال فيها: «تجري كلاب الصيد وراء سيدها الممتطي حصانه على الرمل البارد، وتطير الغربان بعيداً حاملة لحم الأضحية في مناقيرها. يتكلمون في القصائد القديمة عن أضحية الربيع، وكان الناس جميعهم سكارى يحيط بهم قرع الطبول وموسيقى الناي».

إذاً، لقد كان مهرجان الطعام البارد مشابهاً لاحتفال الكرنفال اليوم؛ حيث يقدم

الناس في الريف الأضاحي لأقربائهم، ويجرون مسابقات شعرية، ويعزفون الموسيقى بالناي والمزمار، ويشربون النبيذ ويلعبون الألعاب. لا شك في أنها كانت لحظات سعيدة بالفعل!

السطوع المحض هو الفصل الشمسي الوحيد الذي تحوَّل إلى عطلة شعبية من بين الفصول الشمسية الأربعة والعشرين، ولا يزال عطلة عامة في الصين حتى يومنا هذا؛ لكن العادات القديمة فيه تغيرت بعض الشيء. فتزيين أغصان شجر الصفصاف تحول إلى زراعة الأشجار، ولعبة تسو جيوي (وهي لعبة كرة صينية قديمة) تحولت إلى كرة القدم، والخروج الربيعي تحول إلى رحلات على الأقدام. الشيء الوحيد الذي ظل على ما هو عليه هو زيارة القبور؛ وهو أمر يكشف عن أصالة الشعب الصيني وعراقته. ففي خضم الحداثة التي نعيشها اليوم، لا يزال الصينيون يتذكرون ماضيهم، ويظهرون امتنانهم للأسلاف الذين ساعدوهم في الوصول إلى ما هم عليه اليوم. (الصورة 6-7)

ترتبط الفصول الشمسية الأربعة والعشرون بعلاقة وثيقة مع العطل الصينية. فعلى سبيل المثال، يعتبر عيد الربيع أهم عطلة لدى الشعب الصيني، وكان الاحتفال به يتم عند حلول فصل بداية الربيع قبل عهد سلالة هان، ثم تطور بعد ذلك ليصبح عطلة مستقلة عن الفصول الشمسية. أما مهرجان منتصف الخريف فقد نشأ عن الاعتدال الخريفي، حيث اتخذ الصينيون القدامى من ذلك اليوم مناسبة يقدمون فيها الأضاحي إلى القمر. لكن ليس كل يوم اعتدال خريفي يوم قمر بدر، ولذلك تغير موعد هذا العيد تدريجياً إلى أن ثبته الناس في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن في التقويم الصيني التقليدي.

الفصول الشمسية علامات تحدد الظواهر السماوية والظروف المناخية. وهي تمثّل الظواهر الفلكية، وخاصة تتبع مسار الشمس. ومع أن الناس كانوا في بادئ الأمر يربطون عطلهم وأعيادهم بتلك الظواهر والظروف، إلا أن مرور الزمن وتطور الحياة الاجتماعية فرّقا بين الفصول الشمسية والأعياد، فأصبحت الأعياد ثابتة في تواريخ محددة يحتفل فيها الناس ويقدمون أضحياتهم وقرابينهم؛ هذا باستثناء العطل الصينية في فصل السطوع المحض.



عادات الطعام المرتبطة بالفصول الشمسية

يحمل الطعام أولوية كبرى في حياة الشعب الصيني. وعبر تاريخ الصين الطويل، طورت مختلف المجموعات الإثنية الصينية أنواعاً كثيرة من تقاليد الأطعمة والأشربة المرتبطة مع الفصول الشمسية. ومع تطور فنون الطهي الصينية وسماتها المختلفة برزت أنواع كثيرة من أساليب الطهي والوجبات الخفيفة، وجميعها مرتبط بشكل أو بآخر بعادات الأكل والشرب في الفصول الأربعة والعشرين.

في الربيع، يتناول الناس أطعمة الربيع وحلويات الربيع ويشربون نبيذ الربيع. ويعود أصل أطعمة الربيع إلى أصناف الطعام اللاذعة الخمسة في عهد سلالة جين. ففي الربيع لا تكون طاقة تشي البرد قد زالت بالكامل، بينما تكون طاقة تشي اليانغ قد ولدت لتوها. وأصناف الطعام اللاذعة الخمسة هي الثوم الأخضر والثوم والفلفل والزنجبيل والخردل، ويمكنها أن تحفّز الشهية وتوجه طاقة التشي وتمنع الإنفلونزا. أما اللفت والخس فهما من الأطعمة الربيعية التي تحضّر لفصل بداية الربيع أثناء عهد سلالة تانغ. وقد كتب الشاعر دو فو في قصيدته «بداية الربيع» ما يلي: «حين رأيت كل هذا الخس الرقيق في أطباق أطعمة الربيع عند فصل بداية الربيع، تذكرت فجأة حين كنت في العاصمتين في وقت تبرعم الخوخ. في ذلك الحين، جُلِبت لي الأطباق من بيوت الأشخاص المهمين هناك؛ أطباق حضرتها أيدٍ بارعة قطعت الخس إلى قطع طويلة ورقيقة».

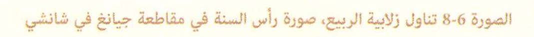
وفي عهد سلالة سونغ، كتب سو شي في قصيدة له: «يستعمل الثوم المعمر في أصناف الطعام اللاذعة»، وكذلك: «أتذوق الشيح الأخضر الحلو والثوم المعمر الأصفر في أطباق أطعمة الربيع». تدلنا هذه القصائد على أن الناس كانوا يستخدمون الشيح الحلو والثوم المعمر الأصفر لصنع أصناف أطعمة الربيع في ذلك الوقت. يمكن استخدام الشيح الحلو للوقاية من الملاريا، أما الثوم المعمر فيمكنه أن يقوي طاقة اليانغ ويدعم الطاقة الإيجابية، ما يكشف أن أصناف أطعمة الربيع كانت تستخدم لمنع تفشي الطاعون والأوبئة.

تشير عبارة «لقمة الربيع» إلى عادة تناول أطعمة الربيع، وزلابية الربيع، ولفائف الربيع المقلية، واللفت عند حلول فصل بداية الربيع. وتكشف كلمة «لقمة»

عن جوهر الكثير من عادات تناول الأطعمة المرتبطة مع هذا الفصل الشمسي؛ إذ تتألف أصناف أطعمة الربيع من الخضروات والفواكه والكعك الموضوعة على أطبق تقدم إلى الأصدقاء والأقارب، أو تلك التي يمكن أن يتناولها أعضاء العائلة أنفسهم. (الصورة 6-8)

إن زلابية الربيع طعامٌ يُتناوَل مع أصناف أطعمة الربيع. وهي زلابية رقيقة تصنع من العجين المقلي. وقد تطوّر فنّ صناعة هذا الصنف من الطعام اليوم وتحول إلى لفائف الربيع المقلية المقلية (Spring Rolls). وقد مدح الشاعر لين لان تشي فن الطهي هذا في قصيدة له فقال: «تختلط الزلابية والأحسية مع ألوان الربيع. يأتي الربيع فنضعه في لفافة؛ وبعد مرور أربع وعشرين ريحاً مزهرة، بإمكانك أن تظل قادراً على نيل رسوم جميلة، ولكن هذه اللحظات لا تدوم».

تطورت لفافات الربيع اليوم على أساس فن الطهي هذا في المناطق جنوب نهر يانغتسه في الصين، حيث أُخِذت قطع من اللفت وخضروات أخرى وتحوّلت إلى حشوة لُفَّت حولها قطعة رقيقة من العجين قبل أن تقلى مغمورة بالزيت إلى أن يتحول لون العجين إلى الأصفر المائل إلى البني، وعندها نحصل على لفافة طرية الحشوة وذات قشرة هشة. إن هذه الوجبة الخفيفة من أشهر أصناف الأطعمة الصينية، وهي تعود إلى ما اخترعه سكان المناطق جنوب نهر يانغتسه.



الصورة 6-8 تناول زلابية الربيع، صورة رأس السنة في مقاطعة جيانغ في شانشي







الصورة 6-9 لفافات ربيع مقلية، وهي إحدى أشهر الوجبات الخفيفة في جنوب نهر يانغتسه

في شمال الصين يأكل الناس زلابية الربيع، وهي زلابية تصنع من عجين رقيق يُحشى بمختلف أنواع الأطعمة، وتُطهى بواسطة البخار. الثوم الأخضر الطويل والرقيق لا غنى عنه في أسلوب الطهي هذا، وتؤكل اللفافات الناتجة بعد تغميسها بمرق الصويا، وطعمها رائع أيضاً. يقدم بط بكين المحشو- وهو أحد أشهر أصناف الطعام الصينية- ويؤكل بالطريقة ذاتها التي يقدم بها ويؤكل هذا النوع من زلابية الربيع. (الصورة 6-9)

إذاً، لماذا يعتبر الثوم الأخضر جزءاً لا غنى عنه في أسلوب الطبخ هذا؟ لأن الثوم الأخضر ينمو في بداية الربيع حين يكون فصل الربيع قد عاد للتو ويتحوّل إلى نبتة طرية طعمها منعش ولذيذ، حيث يأكلها الناس كجزء من «لقمة الربيع» . ويمكننا أن نرجع بهذه العادة إلى حقبة الربيع والخريف والممالك المتحاربة. وكما

قال فيلسوف الطاوية العظيم تشوانغ تسي في ذلك الزمن: «في الربيع، يشرب الناس النبيذ ويأكلون الثوم الأخضر ويطهرون أعضاءهم الداخلية الخمسة».

يُسمّى النبيذ الذي يُتناول في الربيع نبيذ الربيع، وهو يصنع عادة في الشتاء، ويقدم في بداية الربيع. يوجد بيت في قصيدة تم تأليفها في عهد سلالة تانغ يرد فيه ما يلي: «مررَتْ لي خطأ في اللعبة الخطاف المصنوع من الجاد بعد شرب نبيذ الربيع الدافئ، فنحن في فريقين مختلفين في لعبة التكهن تحت أضواء شموع المصابيح الحمراء». يدل هذا على أن نبيذ الربيع كانت له شعبية كبيرة في عهد سلالة تانغ، ويُسمّى نبيذ الربيع أيضاً «حريق الربيع»؛ ربما لأنه كان خمراً مقطراً يحتوي على مقدار كبير من الكحول، وكان أشهر أنواع هذا النبيذ في ذلك الوقت: «حريق الربيع من ممر جنوب جيانمن»، وقد كان يُصنَع خصّيصاً للبلاط الإمبراطوري. يشتهر اليوم خمر يحمل الاسم نفسه في سيشوان في الصين، وربما يكون قد تطور من «حريق الربيع» في عهد سلالة تانغ.

في المناطق جنوب نهر يانغتسه، يطهو كل منزل بواسطة البخار الكثير من الكرات الخضراء التي تحتوي على مسحوق الأرز الغلوتيني وعصير القمح، وذلك حين تصبح الحشائش خضراء وطويلة، وتحلق الطائرات الورقية في السماء، وتمتلئ الجداول تحت الجسور. ترجع هذه العادة إلى مهرجان الطعام البارد، وهذا الطعام طري وحلو مثل لهجة وو التي تتكلمها الفتيات الصغيرات في تلك المنطقة، والكرات الخضراء التي تنتج عن هذا الأسلوب في الطهو لذيذة إلى درجة مذهلة. (الصورة 6-10)

بعد فصلَي السطوع المحض ومطر الحبوب يشرب الناس شاياً جديداً يدعى: «شاي مطر الحبوب». إذ يُعتَقد أن أوراق الشاي التي تُلتَقط عند فصل مطر الربيع تساعد شاربه على تطهير طاقة النار الداخلية، وإزالة الشرور، وجعل قدرة العينين على الإبصار أفضل. وفي جنوب الصين توجد أنواع أخرى من الشاي مثل «شاي ما قبل السطوع المحض»، و«شاي ما قبل مطر الحبوب»، وربما اشتُقّ هذان الاسمان من عادة تذوق الشاي في فصل مطر الحبوب.

عندما يقترب الاعتدال الربيعي، تنمو نباتات الكينوا البرية على أطراف الحقول في المناطق جنوب نهر يانغتسه، وتسمى «طرخون الربيع الأخضر»، فيأخذ الناس



قبضة منها ويضعونها في قدر من الماء المغلي مع شرائح من لحم السمك رقيقة وبيضاء. وخلال دقيقة واحدة، يجهز «الحساء المغلي» الذي يتّصف بلون رائع ورائحة وطعم رائعين، ويسمى هذا الحساء حساء الربيع. ويساعد شربه الإنسان على تطهير أمعائه ومعدته ورفع معنوياته، فكما يقول المثل الشعبي: «حساء الربيع في معدتك يطهر كبدك وأمعاءك، وعندها سيكون الجميع في عائلتك سعداء وأصحاء».

على العموم، يُعتقَد أنه يجب على الناس أن يتناولوا الحساء عند الاعتدال الربيعي، والبيض عند بداية الصيف. و«بيض الشاي» من الوجبات الخفيفة التي يعرفها الصينيون جيداً، وقد تطورت هذه الوجبة على أساس عادة تناول البيض عند بداية الصيف، وكما يقول المثل: «البيض رخيص كالخضروات في الشهر الرابع». كان البيض في الأصل يطهى مع بقايا أوراق الشاي، ولكن الناس حسّنوا لاحقاً من طريقة الطهي هذه، وأضافوا الشمر والمرق والقرفة والزنجبيل المقطع، بالإضافة إلى أوراق الشاي المخصصة للطهي. لبيض الشاي المطهو بهذه الطريقة رائحة رائعة، ويحب الكثير من الناس تناول هذه الوجبة.



الصورة 6-10 الكرات الخضراء

ثمة أسباب وجيهة تكمن وراء عادة تناول البيض عند بداية الصيف؛ إذ إن الطقس يصبح أشد حرارة بدءاً من ذلك اليوم، فتضُعف طاقة المعدة والطحال لدى الكثير من الناس وخاصة الأطفال، ونتيجة لذلك تضعف شهيتهم وكذلك أطرافهم؛ وهو ما يسميه الطب الصيني التقليدي: عدم التأقلم مع الصيف. وإن أفضل الأطعمة لزيادة طاقة هذه الأطراف وإعادة التوازن إلى الجسد هو بيض الدجاج، وكما يقول المثل الشعبي: «كُلْ بيضة عند بداية الصيف ولن تشكو من عدم التأقلم مع الصيف في الأيام الحارة».

خلال حرور فو الثلاثة على الناس أن يتناولوا لحم الضأن، وهذا ما يُسمّى «تناول ضأن فو»، وترجع هذه العادة إلى أزمنة قديمة للغاية، ويقول مثل في شوتشو في مقاطعة جيانغسو: «تناول قصعة من حساء ضأن فو المطهي في بنغتشنغ ولن تحتاج إلى وصفة طبيب في حياتك». ويجري اليوم في كل سنة احتفال كبير «لضأن فو» في المناطق المشرفة على شانغهاي مثل تشنغبو خلال أيام حرور فو الثلاثة. وهذا الاحتفال إنما هو استمرار لهذه العادة. (الصورة 6-11)

خلال فصل الحر الأكبر، تصل حرارة الصيف إلى حد لا تطاق فيه. لذا، يجب على الناس أن يتناولوا غذاء ينعش الأجسام، وله طبيعة باردة، مثل هلام عشبة السلحفاة وهلام العشبة الخالدة. ولكن في بعض الأماكن يتناول الناس خلال هذه الفترة أغذية طبيعتها حارة. فعلى سبيل المثال، يحتفل الناس في بوتيان، فوجيان «بالحر الأكبر» بتناول اللتشية ولحم الضأن وشراب الأرز المخمر. وفي الأقاليم الوسطى والشمالية من مقاطعة خهنان يستخدم الناس أسلوباً تقليدياً في رفع طاقة الأعضاء في الحر الأكبر؛ وهو تناول لحم دجاجة لا تزال في السنة الأولى من عمرها. أما في المناطق الجنوبية الشرقية من خهنان فقد اعتادوا على تناول الزنجبيل أثناء الحر الأكبر، وكما يقول المثل عندهم: «تناول اللفت في الشتاء والزنجبيل في الصيف، ولن تحتاج إلى رؤية الطبيب أبداً».

عند بداية الخريف يصبح الطقس لطيفاً. وفي ذلك اليوم، كان الناس يقيسون أوزانهم ويقارنونها بأوزانهم عند بداية الصيف. فالحر الشديد في الصيف يضعف الشهية، ويميل الناس فيه إلى تناول وجبات خفيفة طوال النهار. وبعد مرور شهرين أو ثلاثة يخسر الناس بعض الوزن، ولذلك عند حلول بداية الخريف وهبوب نسماته اللطيفة الأولى فقد يرغبون في تناول أطعمة لذيذة تحتوي على مقدار أكبر من





الصورة 6-12 حساء الضأن عند «احتفال ضأن فو» في شانغهاي

الغذاء للتعويض عن الطاقة التي فقدوها في الصيف. وتدعى عملية تقوية الطاقة هذه: «زيادة دهن الخريف». عند بداية الخريف، يتناول الناس مقداراً أكبر من أصناف اللحوم المطبوخة على شكل يخنة، أو المشوية، أو المطهوة بصلصة الصويا لأجل «زيادة الدهن عبر تناول اللحم». وبالطبع، إن الكثير من الناس اليوم يرغبون في إنقاص أوزانهم. ولكن في الصين، لا يزال اللحم المشوي بصلصة الصويا من أصناف الطعام المرغوبة جداً في الكثير من المطاعم عند بداية الخريف. (الصورة 6-12)

يقول المثل الشعبي: «عليك أن تتناول اللونغان عند الندى الأبيض». وقد اعتاد الناس على ذلك في فوتشو. يقال إن تناول هذه الثمرة عند فصل الندى الأبيض يترك أثراً خارقاً على زيادة الطاقة. فحبة واحدة في يوم بداية ذلك الفصل لديها الأثر المنعش ذاته الذي يتركه تناول دجاجة كاملة!

في ونتشو وأماكن أخرى في تشهجيانغ، اعتاد الناس على إقامة احتفال بفصل الندى الأبيض.-+ وفي تسانغنان وبينغيانغ تناقل الناس عادة «التقاط الأعشاب الطبية

العشر» (وبحسب رواية أخرى للعادة: الأعشاب الثلاث) فيطبخون دجاجة أو بطة «سوداء العظام وبيضاء الريش» مع هذه الأعشاب العشرة، ويقال إن أسلوب الطبخ هذا قادر على زيادة طاقة الجسم وإخراج شرور الرياح والرطوبة.



الصورة 6-12 وزن الجسم، ويسمى «وزن الرجل»

عند بداية الخريف، يُستخدم ميزان معلق كي يزن الناس أجسامهم ويقارنوا أوزانهم بأوزانهم عند بداية الصيف.

يشير فصل «بداية الشتاء» الصيفي إلى كل من انكفاء الخريف واختفاء الشتاء. ففي الأزمنة القديمة، كان المجتمع في الصين زراعياً، وكان الناس يعملون طوال السنة ليحظوا ببعض الراحة عند «بداية الشتاء» وحتى تلقى العائلة بكاملها مكافأة على مجهودها الشاق والمضني. وكما يقول المثل: «عند زيادة طاقة الجسم في بداية الشتاء، املأ فمك بالطعام». فعند بداية الشتاء في جنوب الصين يتناول الناس لحوم الدجاج والبط والسمك، أما في تايوان فتمتلئ المطاعم التي تقدم مأكولات مثل الضأن الساخن والبط بالزنجبيل بالزبائن. وكذلك يطهو الكثير من الناس يخنة الدجاج بزيت السمسم والأعشاب الأربع لتعويض نقص الطاقة.

عند الانقلاب الشتوي تصبح الفطائر أمراً لا غنى عنه في الاحتفال بذلك النهار؛ بغض النظر عن كون من يحتفل به غنياً أم فقيراً. وكما يقول المثل الصيني: «في أول أيام الشهر العاشر يأتي الانقلاب الشتوي، وكل منزل ستغلى فيه الفطائر». ويقول مثل متداول في شمال الصين: «إذا لم تكن لديك قصعة فطائر عند الانقلاب الشتوي، فسيقرض الجو البارد أذنيك». فالفطائر غذاء أساسي للجميع عند الانقلاب الشتوي. ويتناول الصينيون الفطائر عند عيد الربيع والانقلاب الشتوي، لأن الانقلاب الشتوي كان من الأعياد الرئيسة في الأيام القديمة أيضاً. (الصورة 6-13)



الصورة 6-13 فطائر يِهْتشون المطهوة بالبخار (تصوير دو تسونغ جيون)

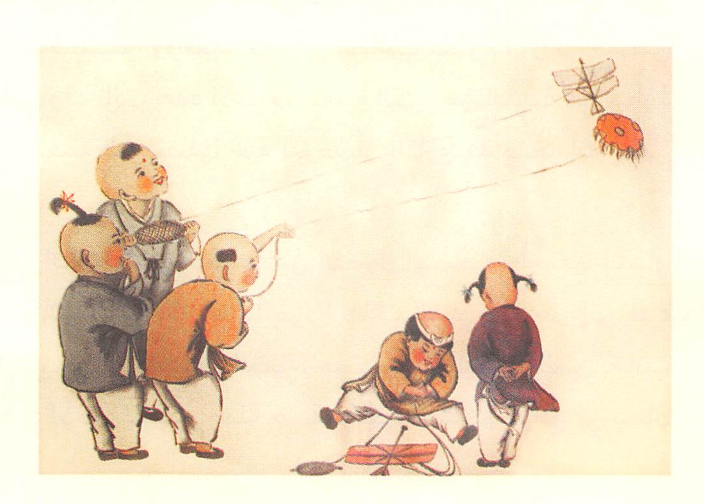
«عليك أن تتناول الفطائر عند الانقلاب الشتوي، والنودلز عند الانقلاب الصيفي، وبيض الدجاج عند بداية الصيف، والبطيخ عند بداية الخريف، ونبيذ رهج الغار عند عيد قارب التنين، وشاي الأقحوان عند عيد التسعتين». لا شك بأن عادات الأكل والشرب في المناطق المختلفة من الصين متنوعة ومتباينة، وبعضها يعود إلى ثقافات قديمة تناقلتها الأجيال، فيما بعضها الآخر يعود إلى حاجة الإنسان إلى نظام حياة يحافظ على صحته. ولا تزال تلك العادات رائجة في الصين حتى يومنا هذا، وكذلك لكل من الوجبات الخفيفة التي اشتهرت بها مناطق الصين المختلفة أصولها وقصصها الخاصة. ولهذا، إن الطعام جزء لا يتجزأ من ثقافة الصين وحضارتها، وعادات المأكل والمشرب في الفصول الشمسية الأربعة والعشرين هي الأساس لأسلوب طبخ طعام يفخر الصينيون به كجزء أساسي من حضارتهم.

الفصول الشمسية في الأغاني الشعبية

الأغاني الشعبية قصائد وأغانٍ يغنيها عامة الناس وتشتهر بينهم وتنتشر، وتعكس حقيقة حياتهم ومشاعرهم تجاهها. وقد تناقل الناس الكثير من تلك الأغاني منذ أزمنة سحيقة للغاية، وتعتبر هذه الأغاني «أم» الفن الشعري في الصين. معظم القصائد التي يذكرها «كتاب الأغاني» هي في الواقع أغانٍ شعبية.

عادة، تنتشر هذه الأغاني شفوياً، فيتناقلها الناس في ما بينهم من فم إلى أذن إلى فم آخر، فتنال شعبية وتنتشر في جميع أرجاء الصين. وهي وجه من وجوه التعبير الفني الذي يعشقه عامة الناس، وكثيراً ما تمثّل أغنية شعبية روح حقبة بكاملها. قد تكون هذه القصائد بسيطة وخاوية من التزيين البلاغي إلا أنها ليست ضحلة الأفكار؛ فهي تُقدِّم وصفاً حياً ومفصلاً للواقع يعكس وتيرة نبض الطبيعة، وشعور الناس تجاهها وتجاه أنفسهم ومحيطهم. ويمكننا القول إن الأغاني الشعبية في الحقيقة نوع من الأدب الحضاري الذي يحتوي على كامل مزايا الفن الأدبي من ناحية، والبساطة الشعبية من ناحية أخرى. (الصورة 6-14)

دعنا نأخذ كمثال أغنية شعبية مضحكة ومثيرة للاهتمام بعنوان «أغنية المئة تسي حول الفصول الشمسية»:



الصورة 6-14 اللعب بالطائرات الورقية عند الخروج في الربيع هو إحدى العادات الشعبية في جينلينغ (تقدمة ليو جيان هوا)

يرتبط اللعب بطائرات الورق بالتخلي عن الحظ السيئ في الصين القديمة. وهو نشاط ترفيهي يحب الناس في نانجينغ ممارسته، وخاصة في فترة السطوع المحض.



نتحدث عن الفصول الشمسية ونعد التسي.

في أول شهر من السنة الجديدة يرقص الناس رقصة الأسد

في الشهر الثاني يربي الناس دود القز عند استيقاظ الحشرات

في الشهر الثالث يزورون القبور عند السطوع المحض

في الشهر الرابع عند «بداية الصيف» يزرع الناس فسائل الأرز

في الشهر الخامس عند عيد قارب التنين يأكل الناس حلوى الأرز

في الشهر السادس الطقس بارد ويشتري الناس المراوح

في الشهر السابع عند بداية الخريف يحرق الناس «مال جهنم» للأسلاف

في الشهر الثامن عند احتفال منتصف الخريف يأكل الناس كعكات قمر السمسم

في الشعر التاسع عند عيد التسعتين يتناول الناس شراب الأرز المخمر

في الشهر العاشر يصبح الطقس بارداً ويرتدي الناس ثياباً قطنية

في الشهر الحادي عشر تبدأ التسعات الباردة التسع، ويظل الناس بجانب النار ليتدفأوا

في الشهر الثاني عشر تنتهي السنة، ويتجنب الناس دائنيهم ويختبئون في أماكن مختلفة

يوجد الكثير من حروف تسي في النسخة الصينية من هذه الأغنية الشعبية، وجميعها تتعلق بطرائق معيشة الناس، وهي عمل أدبي واقعي؛ لأن الناس الذين تعبر عنهم يعيشون حياة بسيطة وواقعية، فتعكس مصاعب عملهم الزراعي المضني وفرح حصادهم الوفير. وقد نالت هذه الأغنية الشعبية الكثير من الشهرة في منطقة سيشوان، والعادات الشعبية التي تصفها حية لدرجة أن القارئ قد يشعر أنه يعيش في وسطها. (الصورة 6-15)

أما أشهر الأغاني الشعبية التي تتحدث عن الفصول الشمسية وأوسعها انتشاراً فهي «أغنية التسعات التسع الباردة»، فتبدأ من الانقلاب الشتوي لتدخل إلى فترة التسعات التسع الباردة، وتعيش معها جو العائلة؛ حيث يقبع الكبار في السن بجانب النار وهم يعلمون هذه الأغنية للصغار جملة جملة، وكلماتها بشكلها الرائج في شمال الصين هي التالية:



الصورة 6-15 الربيع والصيف والخريف والشتاء. رسم يانغجيافو للسنة الجديدة محفور على الخشب خلال أوائل أيام جمهورية الصين الشعبية، والرسم معروض في متحف شاندونغ (صورة مقدمة من إي قوه تشينغ)

في التسعتين الباردتين الأولى والثانية لا تتجرأ على إخراج يديك
في التسعتين الباردتين الثالثة والرابعة يمكنك السير على الثلج
في التسعتين الباردتين الخامسة والسادسة يمكنك أن ترى الصفصاف الأخضر بمحاذاة النهر
في التسعة الباردة السابعة يذوب الثلج على الأنهار
في التسعة الباردة الثامنة تعود الإوزات البرية إلى الشمال
في التسعة الباردة التاسعة تسير مواشي المزارع في جميع الحقول

تستخدم هذه الأغنية الشعبية لغة شعبية للغاية، ولكنها مقفاة بشكل جيد، ويسهل ترديدها على الألسن؛ فحتى طفل في الخامسة أو السادسة من عمره يمكنه أن يحفظها.



تصف الأغنية الشعبية مشاعر الناس تجاه البرد والظواهر الفينولوجية الأخرى، رابطة إياها مع تغير درجات الحرارة والطقس. إذ يؤدي تغير درجات الحرارة إلى تغيرات في الحيوانات والنباتات مثل تبرعم شجر الصفصاف، وتفتح زهور الدراق، وعودة الإوزات البرية.

تعود «أغنية التسعات التسع الباردة» إلى زمان بعيد جداً، فقد برزت للمرة الأولى في وقت ما أثناء حقبة السلالتين الشمالية والجنوبية، ومع حلول زمن سلالة مينغ كانت واسعة الانتشار والشعبية، وقد سجل لنا كتاب «الإشاعات الخمس» الذي أُلِّف في زمن سلالة مينغ نسخة مختلفة من هذه الأغنية:

في التسعتين الباردتين الأولى والثانية
حين يلتقي الناس لا يتجرأون على إخراج أيديهم
في التسعة الباردة الثالثة واليوم البارد السابع والعشرين
تعول الرياح وتعزف المزامير على الأسوار
في التسعة الباردة الرابعة واليوم البارد السادس والثلاثين
يبدو لك النوم ليلاً وكأنك مستلق في العراء
في التسعة الباردة الخامسة واليوم البارد الخامس والأربعين
تخرج الشمس وتشع على الباب
في التسعة الباردة السادسة واليوم البارد الرابع والخمسين
يخرج الفقراء ويستمتعون بالدفء بسعادة
في التسعة الباردة السابعة واليوم البارد الثالث والستين
تخلع الثياب المبطنة لأنك أصبحت تعرق فيها
في التسعة الباردة الثامنة واليوم البارد الثاني والسبعين
تشعر القططة والكلاب بالحرارة فتبحث عن أماكن أكثر برودة
في التسعة الباردة التاسعة واليوم البارد الحادي والثمانين
تحمل المحاريث والفؤوس إلى الحقول

لقد قارنت الأغنية الشعبية بين عويل الرياح والآلة الموسيقية التي تدعى لي باللغة الصينية، وهي آلة كانت تستخدم في الأزمنة القديمة في شمال الصين من قبل

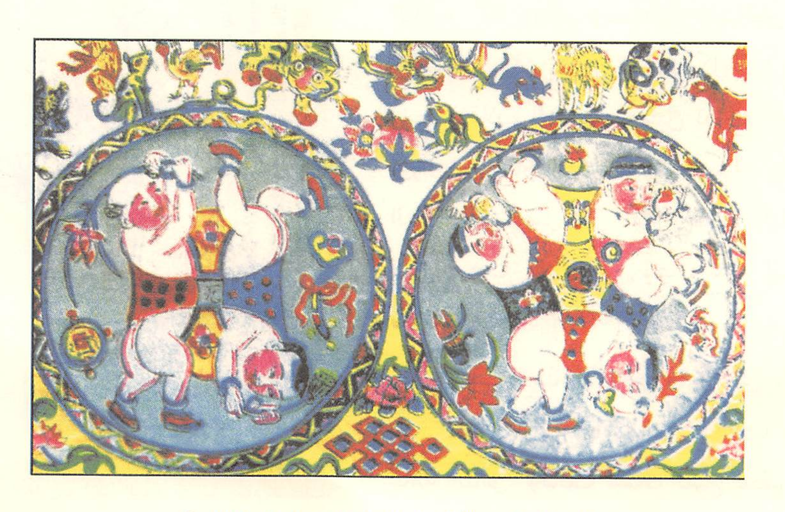
مجموعة إثنية من الأقليات؛ ما يكشف عن أن هذه الأغنية الشعبية كانت رائجة في شمال الصين في ذلك الوقت.

ترد في الكتاب أيضاً نسخة ثالثة من هذه الأغنية الشعبية، وهي التالية:

في التسعتين الباردتين الأولى والثانية لا يجرؤ الناس على إخراج أيديهم حين يلتقون
في التسعتين الباردتين الثالثة والرابعة يجتمع الناس حول الموقد ويشربون الخمر
في التسعتين الباردتين الخامسة والسادسة يخرج الناس للقاء الأصدقاء والأقارب
في التسعتين الباردتين السابعة والثامنة يشاهد الناس أشجار الصفصاف ويمشون قرب الأنهار

هذه الأغنية تبدو أسهل حفظاً، وأقرب للنسخة المشهورة اليوم.

إن الشتاء فصل طويل، ويصعب على الناس انتظار مروره البطيء والكئيب، ولذلك يخترع الناس طرائق مختلفة لإمضاء الوقت في الشتاء على أساس «أغنية التسعات التسع الباردة»، وهو ما يسمى برسوم أو خطوط التسعات التسع الباردة، وبغض النظر عن كون هذه الألعاب مكتوبة أو مرسومة، فإنها تدعى: «رسم التسعات التسع الباردة لقتل البرد». (الصورة 6-16)



الصورة 6-16 رسم الأطفال الصغار «لقتل البرد» في الصين القديمة



الصورة 6-17 رسم الربيع في كل بلدة قوانتشنغ من بين رسوم التسعات التسع الباردة لقتل البرد

توجد نسختان على الأقل من «رسوم التسعات التسع الباردة لقتل البرد». الأولى نموذج في فن الخط، حيث تكتب جملة من قصيدة بالخط الصيني على الرسم، ومن الأمثلة على ذلك الجملة التي تقول: «» أي: «أشجار الصفصاف أمام المقصورة تنتظر نسيم الربيع بعناية شديدة». مجموع جرات القلم على هذه الحروف الصينية هو 81 جرة قلم. لذا يستطيع الشخص أن يقوم بجرة قلم واحدة على النموذج كل يوم بدءاً من الانقلاب الشتوي. وحين يكمل كل جرات القلم يكون الربيع قد أتى. (الصورة 6-17)



الصفحة 6-18 رسم أزهار الخوخ من بين رسوم التسعات التسع الباردة لقتل البرد

أما النسخة الثانية فهي رسم زهور الخوخ، حيث يُعطى الشخص رسماً لغصن يحمل أزهار الخوخ، ويبلغ مجموع أوراق الأزهار 81 ورقة، ويستطيع الشخص أن يلوّن كل ورقة باللون الأحمر كل يوم بعد بدء الانقلاب الشتوي، وحين تصبح جميع أوراق الأزهار على الرسم حمراء يكون الربيع قد وصل. إن أيام الشتاء الباردة هي أصعب الأيام التي يجب على الناس تحمّلها. (الصورة 6-18)

راجت هذه العادة في بادئ الأمر بين المثقفين، ثم انتشرت تدريجياً بين عامة الناس. وكانت هناك نسخ مطبوعة من هذه الرسوم تباع في الأسواق، ما جعل

الأمر أسهل؛ إذ كان الناس يشترون واحدة منها قبل الانقلاب الشتوي، ثم يلوّنون ورقة واحدة على رسم الزهرة أو يقومون بجرة قلم واحدة في الأحرف الصينية الواردة في القصيدة كل يوم. وبالطبع، إن هذه العادة تظهر شوق الناس إلى الربيع.

ومع أنه لم تكن هناك أي عادة مماثلة في ما يتعلق بالتسعات التسع الحارة في الصيف، إلا أن هناك أغنية شعبية تدعى «أغنية التسعات التسع الحارة» في الصيف. وتبدأ هذه التسعات التسع مع الانقلاب الصيفي وتستمر لواحد وثمانين يوماً أيضاً، وربما جعلها القدامى كذلك لتقابل نظيرتها الشتوية.

وبحسب السجلات المحفوظة في كتاب «الإشاعات الخمس» في عهد سلالة مينغ، نرى ما يلي:

حين تأتي التسعتان الحارتان الأولى والثانية
ستمسك المروحة بيدك بإحكام
في التسعة الحارة الثالثة واليوم الحار السابع والعشرين
ستجد الماء البارد لذيذاً كالعسل
في التسعة الحارة الرابعة واليوم الحار السادس والثلاثين
ستعرق وكأنك تستحم بالبخار
في التسعة الحارة الخامسة واليوم الحار الخامس والأربعين
تطير أوراق الخريف فوق رأسك بسرعة
في التسعة الحارة السادسة واليوم الحار الرابع والخمسين
ستزور المعابد البوذية لتستمتع بالهواء البارد فيها
في التسعة الحارة السابعة واليوم الحار الثالث والستين
ستبدأ بوضع غطاء لتتجنب البرد في فراشك
في التسعة الحارة السابعة واليوم الحار الثاني والسبعين
سترغب في أن تتغطى ليلاً بغطاءين
في التسعة الحارة التاسعة واليوم الحار الحادي والثمانين
ستسمع صراصير الليل عند باب بيتك

شرب الماء المثلج البارد الذي كان يؤخذ من قبو الثلج في الصيف أمر يعود إلى



حياة الطبقات العليا في المجتمع الصيني القديم. ولكن الناس يتداولون نسخة أخرى من «أغنية التسعات التسع الحارة من الانقلاب الصيفي»، وهي أكثر شعبية:

حين تأتي التسعة الحارة الأولى بعد الانقلاب الصيفي
سوف تحمل مروحة من الريش في يدك
وفي التسعة الحارة الثانية واليوم الحار الثامن عشر
سوف تخلع قبعتك وترتدي قطعة من قماش الحرير الرقيق
في التسعة الحارة الثالثة واليوم الحار السابع والعشرين
ستتساقط قطرات العرق على وجهك حين تخرج
في التسعة الحارة الرابعة واليوم الحار السادس والثلاثين
ستأخذ حصيرة وتنام في العراء
في التسعة الحارة الخامسة واليوم الحار الخامس والأربعين
ستشعر بحر الخريف قوياً كالنمر
في التسعة الحارة السادسة واليوم الحار الرابع والخمسين
ستذهب إلى المعابد لتستمتع بالبرد اللطيف في الليل
في التسعة الحارة السابعة واليوم الحار الثالث والستين
ستبدأ بوضع غطاء لتتجنب البرد في فراشك
في التسعة الحارة السابعة واليوم الحار الثاني والسبعين
ستريد أن تتغطى بلحاف مصنوع من القطن عند منتصف الليل
في التسعة الحارة التاسعة واليوم الحار الحادي والثمانين
ستفتح خزانة ثيابك وتأخذ منها ثيابك القطنية

إذا قارنا الصور الموجودة في هذه الأغنية الأخيرة مع تلك الموجودة في الأولى، فسوف نجد أنها تعكس حياة عامة الناس بشكل أوضح وأفضل.

وبالإضافة إلى الأغاني الشعبية التي تتحدث عن التسعات التسع الباردة والتسعات التسع الحارة، تناقل الناس الكثير من الأمثال والأغاني الشعبية حول الفصول الشمسية التي نالت شعبية خلال عهود السلالات المختلفة، وفي ما يلي مثال عليها:

وتنمو جذور جديدة للأعشاب والأشجار
إذا جاءت الرياح الشرقية في يوم «مياه المطر»
فسوف تكون هناك أمطار غزيرة خلال «حرور فو»
إذا لم تتحرك السحب أثناء «استيقاظ الحشرات»
فسوف يبقى البرد حتى منتصف الشهر الخامس
عند «الاعتدال الربيعي» تناول العشاء حوالي ساعة الغروب
ولكن بعد ذلك ستصبح الأيام أطول قليلاً
ضع إكليل صفصاف على رأسك يوم «السطوع المحض»
فإن هذا سيدفع الشر الذي يبعد الشباب بعيداً
عند «مطر الحبوب» عليك أن تزرع بعض الأزهار
وإلا فسوف تشعر بالحقد يعصر قلبك
حين يأتي فصل «بداية الصيف» في الصباح
سوف يجعلك حر بعد الظهر تُخرج مروحتك
وبدءاً من «امتلاء الحبوب» سوف تعمل وقتاً إضافياً كل يوم
وعند «الحبوب في السنابل» لا يمكنك حتى أن تخسر دقيقة من يومك
إذا هبت الرياح الشرقية عند «الانقلاب الصيفي»
فسوف يأتي الطوفان خلال نصف شهر
وإذا شق صوت الرعد كبد السماء عند «الحر الأصغر»
فسوف يعود مطر الخوخ الأصفر مجدداً
إذا لم يكن الحر شديداً عند «الحر الأصغر»
فسوف يكون الطقس حاراً جداً بعد الخريف
حين يأتي فصل «بداية الخريف» في الصباح
سوف يصبح الجو لطيفاً في الليل
عند «حد الحر» لا يزال الجو حاراً
الحر شديد كأنه نمر بعد الخريف
عند «الندى الأبيض» يُخفي الضباب كل شيء
عند «الندى البارد» يرتدي الناس المزيد من الثياب



إذا لم يظهر الصقيع عند «بداية الصقيع»
فسيكون الجو بارداً في الربيع التالي
إذا هبت الرياح من الشمال الغربي عند «بداية الشتاء»
فسوف يكون لديك حصاد وفير في السنة المقبلة
إذا لم يتساقط أي ثلج عند «الثلج الأصغر»
فسيكون هناك تساقط ثلج كثيف عند «الثلج الأكبر»
إذا كان الجو صافياً عند «الانقلاب الشتوي»
فسيكون تساقط الأمطار معتدلاً في السنة التالية
«البرد الأصغر» أشد برداً من «البرد الأكبر»
طقس كهذا شائع ويحصل كثيراً
إذا كان الجو دافئاً في «البرد الأكبر»
فسوف يستمر البرد مع نهاية الشهر الثاني

بعض هذه الأمثلة الشعبية التي تتضمنها القصائد مقفّى، وبعضها يعكس ظواهر مناخية وفينولوجية محلية، وبعضها يتكهن بالجو في المستقبل البعيد بعض الشيء! أول ما تركز عليه الأغاني الشعبية الرائجة بين عامة الشعب هو مواقيت الزراعة والحصاد. ونرى أذواق عامة الناس واهتماماتهم تملأ هذه الأغاني الشعبية، فالحضارة الصينية حضارة تحترم الحياة والزراعة، ولا تتجسد هذه الفضيلة الحضارية في شيء كما تتجسد في الأغاني الشعبية حول الفصول الشمسية.

يتعلم أطفال الصين اليوم «أغنية الفصول الشمسية الأربعة والعشرين» التي تم تأليفها حديثاً في الواقع:

تدور الأرض حول الشمس
ومع انتهاء كل دورة تمر سنة
تنقسم كل سنة إلى اثني عشر شهراً
وبالتوالي ، يوجد أربعة وعشرون فصلاً شمسياً
على أساس حساب التقويم الغربي
فصلان شمسيان لكل شهر ، لم يتغير هذا قط

يختلف تاريخ كل واحد بيوم أو يومين
وغالباً ما يكون السادس أو الحادي والعشرين في النصف الأول
والثامن أو الثالث والعشرين في النصف الثاني من السنة
هذه هي أيام الفصول الشمسية
وتاريخ كل واحد منها لا يتغير إلا بيوم أو اثنين
تتابع الفصول الشمسية الأربعة والعشرون
حيث يمكنك أن تتذكرها في هذه الأبيات التالية
في كانون الثاني «البرد الأكبر» يتلوه «البرد الأصغر»
وفي شباط «بداية الربيع» يأتي قبل «مياه المطر»
في آذار يصل كل من «استيقاظ الحشرات» و«الاعتدال الربيعي»
وفي نيسان يحصل كل من «السطوع المحض» و«مطر الحبوب»
في أيار هناك «بداية الصيف» و«امتلاء الحبوب»
في حزيران «الحبوب في السنابل» يأتي مع «الانقلاب الصيفي»
في تموز هناك الحرّان الأصغر والأكبر
في آب يأتي «بداية الخريف» و«حد الحر» معاً
في أيلول يقود «الندى الأبيض» إلى «الاعتدال الخريفي»
في تشرين الأول يأتي كل من «الندى البارد» و«نزول الصقيع» إلى باب بيتك
في تشرين الثاني يجلب «بداية الشتاء» فصل «الثلج الأصغر»
بعد ذلك يرحب فصلا «الثلج الأكبر» و«الانقلاب الشتوي» بالسنة الجديدة

مع تغير الزمن يتغير المناخ أيضاً. في الصين أراضٍ شاسعة ذات مصادر غنية تمتد في أنحاء قارة آسيا بأكملها؛ لذا نجد فروقات واسعة بين الأغاني الشعبية في المناطق المختلفة. يعكس هذا السمات المميزة لكل إقليم في الصين، وحقيقة الحياة التي انبثقت منها تلك الأغاني. فقد انتشرت الأغاني الشعبية بشكل واسع نتيجة الصور الحية التي ترسمها، والكلمات السهلة التي تستخدمها، وقد أصبحت من المكونات المهمة في ثقافة الصين الشعبية، حيث تؤثر في حياة كل مواطن صيني.



| الفصول الشمسية في الشعر والفنون الأدبية الأخرى

إذا كانت الأغنية الشعبية هي «أم الشعر» فيمكننا وصف قصائد المثقفين والمتعلمين بأنها «أغانٍ شعبية» أفضل بلاغة وأوضح بياناً، والصين هي بلد الشعر. ومن بين نماذج الشعر الصيني الكثيرة في زمن سلالتَي تانغ وسونغ التي حفظها لنا «كتاب الأغاني» يمكننا أن نجد الكثير من القصائد عن الفصول الشمسية، فدعونا نلقي نظرة إلى أجمل تلك المقاطع الشعرية، ونستشعر الأثر الحضاري الجميل الذي تركته الفصول الشمسية في فنون الأدب الصيني.

في البداية، دعونا نقرأ قصيدة للشاعر لوه يين من حقبة سلالة تانغ، والتي كتبها تحت عنوان «بداية الربيع عند اليوم السابع من الشهر الأول في العاصمة»:

واحد ، اثنان، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة

جميع الأشجار تُخرج براعمها في هذا اليوم

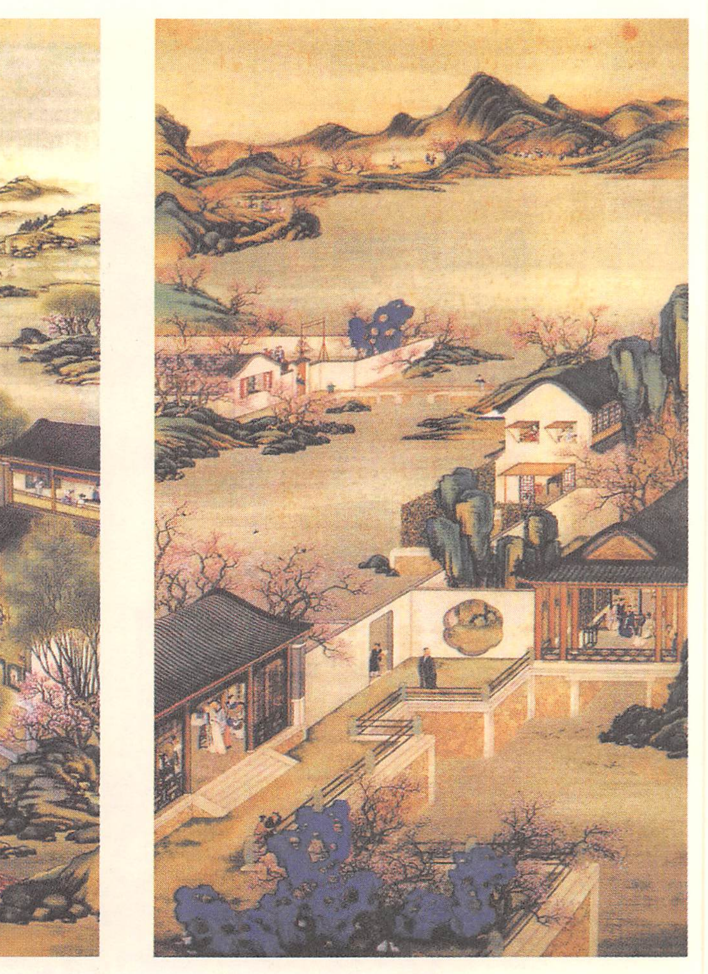
وتطير- في الأفق البعيد- الإوزات البرية عائدة

ويحطم السمك الجليد ، ويقفز خارجاً من الماء

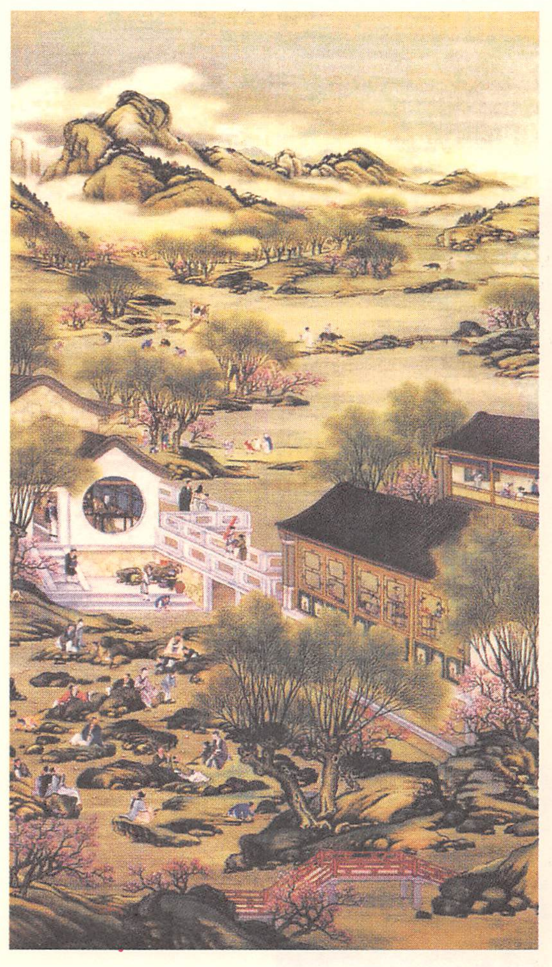
تبدأ القصيدة بالعد من الواحد إلى السبعة؛ وكأن أطفالاً صغاراً يعدّون، ولا يكاد أحد يتوقع أن ثمة شعراً سيذكر لاحقاً. لكن بعد ذلك يكشف الشاعر عن مشهد خروج البراعم من الأشجار في فصل «بداية الربيع» فيكتمل المشهد الشعري، حيث يخرج القارئ بانطباع؛ وهو أنه يستشعر مرور الوقت وكأنه نهر ربيعي دافق. أما وصف الإوزات البرية العائدة، والسمك المحطم للجليد فيذكرنا بالوصف المكتوب في «التعليمات الشهرية» في «كتاب الطقوس». يحفّز هذا المشهد مشاعر الناس، حيث يتعجب كل من يرى هذه الإوزات العائدة، ويفكّر بعمق في المسافرين العائدين إلى أوطانهم.

تعبِّر هذه القصيدة بعمق عن اتحاد التغيرات في الطبيعة الخارجية مع تقلب المشاعر الإنسانية في يوم «بداية الربيع» هذا، وينتقي الشاعر كلمات شديدة التعبير؛ مثل الكلمة التي اختارها لفعل «يقفز» التي تكاد تسحب القارئ إلى صورة حركة الأسماك السريعة والمفاجئة؛ إذ تخرج قافزة من الماء. حقاً، إنّ في علم البيان سحراً!

(الصور 6-19، 6-20، 6-21)



الصورة 6-19 اكتشاف الربيع في الشهر الثاني من «ألعاب الأشهر الاثني عشر» خلال حكم يونغ تشنغ في حقبة سلالة تشنغ



الصورة 6-20 كوب النبيذ الطافي في الشهر الرابع من «ألعاب الأشهر الاثني عشر» خلال حكم يونغ تشنغ في حقبة سلالة تشنغ

وفي ما يلي سنقرأ قصيدة بعنوان «قصيدة كتبت بشكل عارض عند بداية الربيع» من تأليف تشانغ تسي في زمن سلالة سونغ الجنوبية:

مع نهاية السنة يغلق الطبع دورة كاملة
فيخف الثلج والصقيع
ويعود الربيع إلى الأرض

الصورة 6-21 الاستمتاع بالبرد اللطيف في الشهر السادس من «ألعاب الأشهر الاثني عشر» خلال حكم يونغ تشنغ في حقبة سلالة تشنغ

والأشجار والأعشاب هي الأولى التي تعلم بذلك
فجأة، أرى تفجراً بالحيوية ينمو أمامي
والحياة تحتشد من كل حدب وصوب أمام ناظري
وتهب الرياح الشرقية على النهر
فتتجعد كل الظلال الخضراء

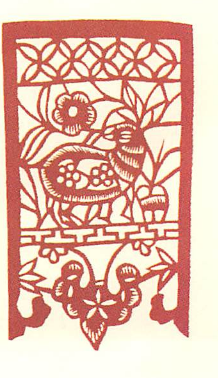
كما أسلفنا مراراً، فصل «بداية الربيع» هو بداية السنة، «ودورة الطبع الموسيقي» إشارة ذكية إلى الفصول الشمسية التي تسير في دورة مثل الطبوع الموسيقية، وعلينا هنا أن نتذكّر أن الصينيين القدامى كانوا يعتقدون أن الطبوع والمقامات النغمية الموسيقية كانت تتراسل مع طاقة تشي في الأرض وتتطابق معها أتم مطابقة، فكانت لديهم نظرية حول ذر الرماد باستخدام آلات النفخ الموسيقية التي تحدد المقامات والطبوع، وإيقاع الطبيعة يشبه في وتيرته نغماً أوبرالياً يتقدم في دورته المشبوبة بالعاطفة مرة تلو أخرى.

وهكذا، نرى عواطف الشاعر تتدفق وهو يتمسك بهذا التشبيه الذي افتتح به أبياته، فيصف بواقعية المشهد الخلاب الذي ترسمه الطبيعة أثناء عودة الربيع إلى الدنيا، فيذوب الثلج والجليد، وتنمو الأشجار والأعشاب مجدداً، وتهتز الأرض تحت آثار الربيع فيخرج منها مشهد زاهٍ أمام عيني الإنسان. تظهر صور تعج بالحيوية في كل طرف من أطراف الأرض، ويمتلئ كل تموج أخضر تحركه الرياح على سطح النهر في الربيع بجمال لا حد له. يمثل الشاعر في أبياته التي بدأها بقوله: «الأشجار والأعشاب هي الأولى التي تعلم بذلك» إلى «الحياة تحتشد» إلخ... التغيرات في الطبيعة على مختلف مستوياتها، فيكاد القارئ يشعر بشغف الشاعر بالحياة وجمالها.

في قصيدة كتبت بأسلوب شعر تسي ألّفها شين تشي جي (من عهد سلالة سونغ الجنوبية) تحت عنوان «الربيع في القصر أثناء زمن سلالة هان: يوم بداية الربيع»، نقل لنا الشاعر أحاسيس أخرى عن الربيع:

لقد عاد الربيع
وأرى على رأس فتاة
أعلام الربيع ترفرف بلطف

تأتي الرياح والأمطار دون سبب
ولم يغادرنا البرد تماماً بعد
يأتي طائر سنونو السنة الماضية
وأنا أعلم أنه لا يزال اليوم
يحلم بسعادة بالحديقة الغربية
لم أجهّز بعد
ثمار اليوسفي لتحضير النبيذ
كما لم أجهز الثوم الأخضر في صحوني
أضحك عند مجيء الرياح الشرقية
التي تنضج الخوخ والصفصاف الأخضر
لا وقت لديها لتبقى بهدوء
فحين لا يكون لديها أي شيء لتفعله تأتي إلى مرآتي
وتجعل وجهي يشيخ بشكل مزعج
لا يمكنني إيقاف حزني الضبابي
أود معرفة من القادر
على أن يحل لغزي بحكمة
أما أنا فأخشى اليوم
أن أرى الزهور تتفتح وتتساقط
والإوز البري يرجع
من الحدود عند الصباح

الصورة 6-22 أعلام الربيع (قطع ورقية)

خلال حقبة سلالة سونغ الجنوبية، بدأ الناس بإلصاق أعلام الربيع على عتبات الأبواب بهدف الدعاء من أجل الحصول على البركة.

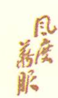
أعلام الربيع عبارة عن أوراق ملونة تقص على شكل طائر السنونو وتزين رؤوس الفتيات الصغيرات. وتبدأ آثار الربيع بأخذ مجراها في حياة الإنسان في الزينة التي توضع على رؤوس الفتيات. إن الوصف الذي استخدمه الشاعر في هذه القصيدة يحمل الكثير من الأصالة، ويثير حيرة القارئ ويشعل خياله. فلدينا شاعر يرسم لنا صورة عن تغير الفصول والعادات المرتبطة مع هذا التغير، مثل ثمار اليوسفي والثوم الأخضر؛ وهي من الأشياء التي يستمتع بها الناس في الربيع. وكذلك إن مظاهر تغير الفصول، والظواهر الفينولوجية جميعها تترافق مع الجو الحزين الذي يرسمه الشاعر لعواطفه، فيرى القارئ أمامه صورة لإنسان يرى في جمال الربيع مناسبة لتذكر مضيّ عمره وخشيته من ذلك. (الصورة 6-22)

أفضل القصائد حول فصل «السطوع المحض» هي القصيدة التي تحمل العنوان «السطوع المحض» والتي كتبها الشاعر دو مو في عهد سلالة تانغ:

حين يصل فصل السطوع المحض
يتساقط رذاذ المطر دون انقطاع
يرحل الناس على الطرقات
ويشعر الجميع بحزن شديد
«هل توجد حانة قريبة؟»
سألت راعي غنم
فأشار إلى البعيد
بين أشجار المشمش، إلى القرية الصغيرة

تعتبر هذه القصيدة من جواهر الشعر الصيني، ويكاد جميع الصينيين يحفظونها. فهي تجمع بين وصف المشاهد والعواطف والأمطار والجو الشاعري والنبيذ، بالإضافة إلى ربطها كل ذلك مع فصل شمسي؛ فكأنها جمعت جوهر الثقافة الصينية التقليدية التي تناقلتها الأجيال.

تظهر الفصول الشمسية في مختلف أنواع فن الشعر الصيني: الشعر العادي، وشعر تسي، وشعر تشيوي. وكان «ما رو في» فنان أغانٍ شعبية، وكان يكتب الشعر في طراز تانتسي في سوتشو أثناء عهد سلالة تشنيغ. ومن الأغاني الشعبية التي كتبها



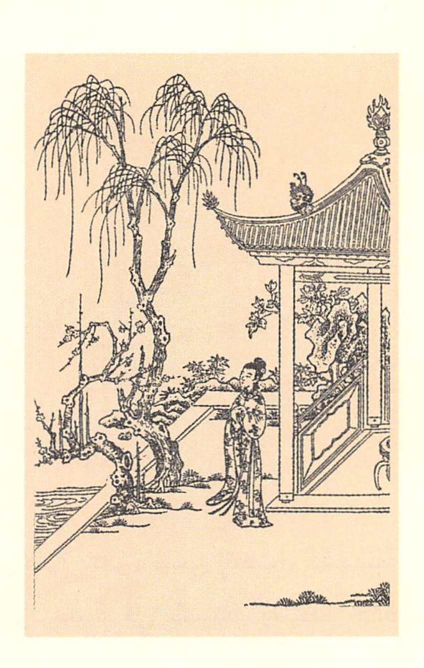
بأسلوب تانتسي تلك التي كتبها تحت عنوان «الفصول الشمسية الأربعة والعشرون»:

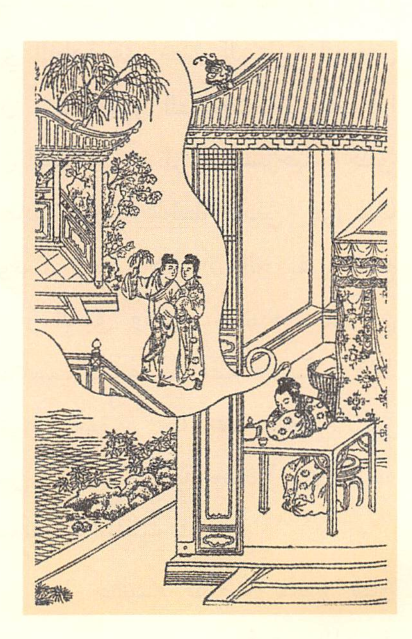
تتفتح زهور الخوخ في الحديقة الغربية
ها قد أتى يوم بداية الربيع
يبدأ انهمار «مياه الشتاء»
فيأتي «استيقاظ الحشرات»
ويقفز سمك الشبوط من النهر
عند «الاعتدال الربيعي» أنت تحلم
بالفراشات التي تطير بين الأزهار
حين يصل يوم السطوع المحض
أجدني أطلق الطائرة الورقية الخطأ لتحلق
عند «مطر الحبوب» أربي دود القز
في باحة منزلي في الغرفة الغربية الساطعة
عند «بداية الصيف» تذبل الأزهار
بجانب مقصورة عود الصليب
عند «امتلاء الحبوب» تتفتح زنابق لسان الحمل
وتسترعي انتباهك بجانب المنزل
«الحبوب في السنابل» لصيادي السمك
حيث يغنون بسعادة بجانب الجدول
عند «الانقلاب الصيفي» يأتي رجال طيبون
ويزرع هؤلاء المحبّبون بسعادة
أنت تعرف ثياب «الحر الأصغر»
حيث يكون قميص حرير خيرَ الثياب
عند «الحر الأكبر» أنام في الخارج
وتنتصب مقصورة مشاهدة النهر هناك
مر «بداية الخريف» بسرعة
وتفتحت زهور عباد الشمس وابتسمت للشمس
يلامس «حد الحر» المبنى الغربي





الصورة 6-23 رسمان حول «قصة حب في الغرفة الشرقية» في المسرح الصيني





الصورة 6-24 «البحث عن حلم» و«الاستيقاظ من حلم»، رسمان من «مقصورة عود الصليب» من المسرح الصيني



الصورة 6-25 تشن مياو تشانغ في «دبوس الشعر المصنوع من الجاد»، صورة على علبة سجائر، جمهورية الصين (تقدمة هوانغ شين)

وعند الغروب أسمع زيز الحصاد يغني
الآن أنت ترى جميع قطرات «الندى الأبيض»
تشع في حديقة الزمرد
عند الاعتدال الخريفي ألتقط
أزهار العبقة تحت أشعة القمر
...
عند «بداية الشتاء» أجلب النبيذ
وأشرب كفايتي عند برج كايلين
عند «الثلج الأصغر» أردد القصائد
وأصنع صداراً مطرزاً



نار الموقد حمراء عند «الثلج الأكبر»
فأظل دافئاً في «البرج الهادئ»
عند «الانقلاب الشتوي» أكون قد مللت
إلى درجة أنني ألامس آلة عود بيبا بأصابعي
عند «البرد الأصغر» أنام هناك بسلام
وأجد من يوقظني بفظاظة
قبضة من الثلج تطير إلى الأعلى
والآن يأتي «الثلج الأكبر»

(الصور 6-23، 6-24، 6-25)

تضع هذه الأغنية الشعبية المنظومة على طراز شعر تانتسي الفصول الشمسية الأربعة والعشرين ومسرحيات كونتشو الثماني عشرة في قصيدة. وتنتظم هذه المسرحيات بحسب الفصول الشمسية بترتيب طبيعي وذي أهمية يفترض به أن يظهر مهارة المؤلف. على سبيل المثال، تجري العادة عند فصل السطوع المحض بأن يتم تطيير الطائرات الورقية، لذا من المناسب أن تؤدى مسرحية «أطلق الطائرة الورقية الخطأ لتحلق» في ذلك الوقت. وعند الاعتدال الخريفي تتفتح أزهار العبق وتفوح عطورها، لذا من المناسب تأدية مسرحية «قصة التقاط زهور العبق». أما عند البرد الأكبر فمن المناسب تأدية «قبضة من الثلج» كمسرحية مناسبة للموسم.



الصورة 6-26 دوبيت من بيتين على بوابة منزل شعبي: «تساقط مطر الربيع ليلاً، والوقت دائماً وقت السطوع المحض» (تقدمة ليو يوان شنغ)

إذا حظيت بفرصة سماع فنان يؤدي هذه الأغنية بلهجة وو اللطيفة واللبقة فلن تتمالك نفسك، بل ستضرب الطاولة بيدك وتصرخ: «أحسنت!».

ويمكننا أيضاً أن نجد ذكر الفصول الشمسية في فن أدبي صيني قديم آخر وهو دوبيت. ويتطلب هذا الفن أن تتطابق الأوزان والقوافي في كل بيتين من القصيدة، ما يجعله أكثر جموداً حتى من فن الشعر الصيني الكلاسيكي. (الصورة 6-26)

بحسب الأسطورة، زار وزير التعليم جبل تيانتاي في تشهجيانغ وأقام في كوخ على الجبل لليلة. وفي صباح اليوم التالي استيقظ ورأى الصقيع الأبيض يغطي سطح الكوخ، فألّف الأبيات الأولى من دوبيت:

في الليلة الماضية وصلت فضربنا «البرد الأكبر»

وعند ذلك، كان هناك «تساقط الصقيع» مثل «الثلج الأصغر»

يتضمن هذا البيت وحده ذكراً لثلاثة فصول شمسية: البرد الأصغر، ونزول الصقيع، والثلج الأصغر. ويُذكّر أسلوب وصفه للمشهد بما ورد في قصيدة أخرى: «الديك يصيح في كوخ النزل، تحت القمر المرتفع في السماء، ظهرت آثار أقدام المسافرين، على الصقيع الذي يغطي الجسر الخشبي». ترسم لنا هذه الأبيات صورة لصقيع الخريف الأبيض الذي يغطي الأرض أمام الزائرين. ورغم التلاعب اللغوي الواضح في البيت الذي نظمه وزير التربية، إلا أن المعنى واضح ومنطقي ولا غرابة فيه ولا تناقض. وقد ظل هذا البيت مثالاً لا نظير له في هذا النوع من الصنعة الشعرية الجامعة بين ذكاء الاستخدام والتمكن اللغوي، وقد وجد الكثير من العلماء من أصحاب المواهب اللغوية أن مضاهاة هذا البيت مستحيلة. ومن الأمثلة الحديثة على بيت يكمل البيت السابق، ذلك الذي كتبه تشاو قونغ بي والذي قال فيه:



الصورة 6-27 تقول الدوبيت المكتوبة في الصورة: «يصنع ندى الصباح غذاء جيداً لجميع الزهور، ولدى نسيم الربيع القدرة على إعطاء الحياة لكل شيء»، أما الاسم المكتوب معها فهو: ليانغ تشانغ جيوي (تصوير كونغ لان بينغ)



يأتي هذا الصباح «استيقاظ الحشرات»

والآن يسقط المطر من «الاعتدال الربيعي» إلى «السطوع المحض»

يتضمن هذا البيت أيضاً ذِكراً لثلاثة فصول شمسية: استيقاظ الحشرات، والاعتدال الربيعي، والسطوع المحض، وهو يصف مشاهد الربيع. ويعتبر هذا البيت مضاهياً بشكل جيد للبيت الذي نظمه وزير التعليم السابق، كما يصف الربيع جيداً؛ حيث يرغب الناس في رؤية المطر عند بداية الربيع مع فصل «استيقاظ الحشرات». يدل هذا البيت بدوره على مهارة ناظمه الأدبية. وحين يُذْكر البيتان معاً يكاد القارئ يحسبهما من قصيدة واحدة ألفها شاعر واحد. (الصورة 6-27)

حفظ لنا التاريخ أيضاً دوبيت أخرى كتبها شاعر مجهول تجمع بين العناصر الأدبية والعلمية، ويقول فيها:

الاعتدال الربيعي في الشهر الثاني

الاعتدال الخريفي في الشهر الثامن

لا يعود أي من الليل أو النهار أقصر من الآخر

يعيَّن أول شهر كبيس للسنة الثالثة

ويعيَّن ثاني شهر كبيس للسنة الخامسة

ليس بين الين واليانغ ضياع أو خطأ

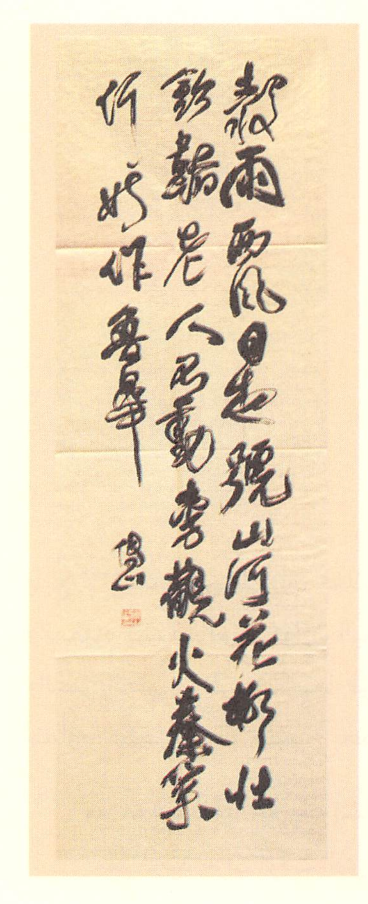
يحصل الاعتدالان الربيعي والخريفي في الشهرين الثاني والثامن من التقويم الصيني التقليدي. ولأن طول الليل يساوي طول النهار في هذين اليومين، قال الشاعر: «لا يعود أي من الليل أو النهار أقصر من الآخر». أما الأبيات التالية فتصف شيئاً



الصورة 6-28 عبادة القمر في احتفال منتصف الخريف

في الصين القديمة، التزم الأباطرة بنظام طقوس يشتمل على تقديم الأضاحي إلى الشمس في الربيع وإلى القمر في الخريف. ونتجت التضحية إلى القمر عن ممارسة عبادة القمر. وخلال حقبتي سلالتي وي وجين كان من الشائع أن يستمتع الناس بضوء القمر في عيد منتصف الخريف. ومع حلول زمن سلالة مينغ، كانت الأضاحي إلى القمر قد شاعت في جميع أرجاء الصين. وقد ظلت آثار هذه الطقوس في عادات الصين حتى اليوم، حيث يستمتع الناس بضوء القمر في ذلك الوقت ويتناولون كعك القمر.

مختلفاً؛ وهو السنوات الكبيسة في التقويم الصيني. فأول شهر كبيس يحصل في السنة الثالثة، أما الثاني فيحصل في السنة الخامسة، حيث يحتوي التقويم على سبعة أشهر كبيسة خلال تسع عشرة سنة. لم يكن بإمكان مؤلف هذه الدوبيت أن يتمكن من تأليفها لو لم يجمع بين القدرة اللغوية الكبيرة والمعرفة المناسبة بعلم الفلك الصيني والتقويم الصيني التقليدي. (الصورة 6-28)



الصورة 6-29 لفافة تحتوي على رباعيات تتألف من سبع كلمات مكتوبة بالخط المتصل كتبها فو شان على قطعة حرير حجمها 52 × 185 سنتم (تصوير كونغ لان بينغ)

تقول القصيدة المكتوبة بالخط المتصل ما يلي: «تعول الرياح الغربية عند اقتراب حلول مطر الحبوب طوال الليل وطوال النهار، وتصير الأزهار وأشجار الصفصاف جزءاً من تكتيكات حرب الدول. أنا مجرد رجل عجوز يجلس صامتاً ليشاهد النار وهي تحترق متوهجة، ولا يهم كثيراً إذا انتهى الحال بجين بذلّ يشبه ذلّ لو».

ينبع الشعر من الطبيعة والحياة. وحين نرى إقبال الفصول الشمسية فنحن نرى قصائد تكتبها الطبيعة على أوراق الأرض، ويظل هذا الشعر مخفياً في أعماق الأرض وبين ثنايا تقلب الفصول الشمسية حتى يتفجر في الربيع، فيتحدث به خرير الجداول، ويهمس بإلهامه في قلوب الشعراء وعقولهم. تشتمل الفصول الشمسية من دون ريب على أبسط التعابير والمفاهيم الشعرية وأقربها إلى الفطرة؛ فهي تتفجر من الأرض، وتتسامى حتى تتساقط بعد ذلك من السماء مثل المطر المنهمر. كل هذا طبيعي للغاية، ولكنه يجلب الطاقة إلى كل شيء في الكون، وخاصة إلى قلب الإنسان، فنشعر بهذا التعبير البسيط والبريء، وبأعمق أسرار الطبيعة وأسمى معاني الخليقة. (الصورة 6-29)

إن الفصول الشمسية هي شعر السماء وموسيقاها ولوحاتها الفنية التي تشكل نغماً يتدفق في مدارك الإنسان، فيمدّ ذهنه وخياله





الصورة 6-30 الطبول العملاقة للفصول الشمسية الأربعة والعشرين على برج الطبول في تشيان، شانشي (تصوير فينغ شياو لي)

بنبع لا ينضب من الإلهام. فعلامات الفصول الشمسية الأربعة والعشرين الخاصة والمميزة تكشف أسرار توازن الين واليانغ بين السماء والأرض، وتجتمع مع الشمس والقمر الجاريين في فلكيهما في السماء، وفصول السنة الأربعة لتعزف موسيقىً سماوية تمجد الخالق وتسبح بحمده. (الصورة 6-30)

وما أشبه هذا بما عبّر عنه الشاعر «دو فو» حين قال:

المطر الجيد يعرف الوقت الذي عليه أن ينهمر فيه

فهو يأتي فقط بعد وصول الربيع

فيتساقط في الليل مع النسيم بخفاء

ويسقي كل شيء بلطف

في البرية، تمدّ السحب ظلالها السوداء على الطرق

وفي النهر لا يشع إلا نور واحد من السفينة

وزهور الصباح حمراء ومبتلة ومثقلة

وقد تفتحت بالكامل في مدينة وزير الحرير

لقد ابتكر الشعب الصيني الفصول الشمسية الأربعة والعشرين قبل آلاف السنين، ولكنه وجد الإلهام في صنيعته هذه، فاستلهم منها أجمل ما كتبه من أغانٍ شعبية وقصائد عن الطبيعة حفظها لنا التاريخ.

المراجع:

[1] Du Shiran et al. A Draft of the History of Ancient Chinese Science and Technology[M]. Beijing: Science Press, 1982.

[2] Pan Jixing. A Collection of Joseph Needham[M]. Shenyang: Liaoning Science and Technology Publishing House, 1986.

[3] Zhang Wenyu. Lectures on Ancient Chinese Astronomy and Calendric Studies[M]. Guilin: Guangxi Normal University Press, 2008.

[4] Zhu Yaping. Taoist Culture and Science[M]. Hefei: Press of University of Science and Technology of China, 1995.

[5] Li Jinshui. A Complete Collection of the Knowledge on Chinese Solar Terms[M]. Beijing: Contemporary World Press, 2010.

[6] Shi Qi. A Practical Encyclopedia of Chinese Regimens[M]. Shanghai: Xuelin Publishing House, 2000.

